آجال
AJAL

فصلية محكمة تعنى بليبيا القديمة (شمال أفريقيا) والحضارات الأفروآسيوية
المجلد الأول، العدد الثالث، خريف 2024



مركز دراسات الحضارة
الدار العربية للكتاب



من فنون الفسيفساء في القرن الأول والثاني للميلاد بمدينة لبدة الكبرى، بموقع فيلا دار بوك عميرة. تُظهر هذه الفسيفساء مجموعة من الأسماك البحرية التي كانت تعيش على شواطئ شمال أفريقيا، ويبدو أنها تمثل ما يعرف اليوم بأسماك الشلبة والمرجان والمغزل والتريليا والفروج والوراتة والمحار والروبيان والمناني، على التوالي.

آجال AJAL

فصلية محكمة تعنى بليبيا القديمة (شمال أفريقيا) والحضارات الأفروآسيوية

المجلد الأول، العدد الثالث - خريف 2024

□□□

تصدر عن الدار العربية للكتاب ومركز دراسات الحضارة

بالتعاون مع حلقة الدراسات الأفروآسيوية

□□□

الغلاف: من الفنون الصخرية، أكاكوس ، فزان.

مجلة آجال مخصّصة لدراسات وأبحاث ليبيا القديمة وتاريخ الثقافات الأفروآسيوية، تنشرها الدار العربية للكتاب ومركز دراسات الحضارة (C.C.S)، بهدف تعزيز البحث العلمي في علم الآثار وتاريخ السياقات الاجتماعية والثقافية واللغات القديمة في الشرق الأدنى وشمال أفريقيا.

توجَّه المراسلات إلى إدارة التحرير على العنوان التالي:

مجلة آجال، شارع عمر المختار، إدارة الكتاب، المطابع الحكومية، طرابلس

أو على بريد هيئة التحرير: ajal@markez.info أو ajalbarid@gmail.com

□□□

ترسل طلبات الاشتراك والاستفسارات عن نقاط التوزيع إلى alarabiabooks@gmail.com

□□□

□□□

□□□

ISSN : 2795-9465 (PRT), 42795-9473 (ONLN)
NSSN: 1318

الترقيم الدولي: 978-9959-1-2690-0

الوكالة الليبية للترقيم الدولي الموحّد - 2024

9090509 - 9096379 - 9097074

تمت الطباعة في مطابع العالمية الأولى - طرابلس

في هذا العدد

معايير النشر

آجال فصلية علمية محكّمة مخصّصة لدراسات وأبحاث ليبيا القديمة (شمال أفريقيا) وتاريخ الثقافات الأفروآسيوية، تنشرها الدار العربية للكتاب ومركز دراسات الحضارة (C.C.S)، بهدف تعزيز البحث العلمي في التاريخ القديم وعلم الآثار وتاريخ السياقات الاجتماعية والثقافية واللغات القديمة في الشرق الأدنى وشمال أفريقيا.

تعتمد آجال في إصدار أعدادها على الاسترشاد بتوصيات نخبة من المستشارين، بالإضافة إلى لجنة علمية من الباحثين الأكاديميين يقومون بالإشراف على سياق المجلة التحريري، وتقييم المشاركات، ومراجعة محتويات المجلة وفق المعايير المتّبعة، وتلتزم المجلة بمقرّراتهم، وقوفاً عند كفاءاتهم وحرصهم على اعتماد الأدوات المنهجية والموضوعية.

□ الأسبقية والقراءة الأولية

- تعطى هيئة التحرير أولوية النشر للبحوث والعروض والتقارير حسب أسبقية الورود الزمنية، وذلك بعد إجازتها من هيئة التحكيم، وفقًا للاعتبارات العلمية والفنية المتبعة.

- تقوم اللجنة العلمية بالقراءة الأولية للبحوث العلمية المقدمة للنشر بالدورية للتأكد من توافر مقومات البحث العلمي، وتخضع البحوث والدراسات بعد ذلك للتحكيم العلمي والمراجعة اللغوية.

□ التحكيم والردود

- يقوم المحكّمون بعد المراجعة (مُحكّمان اثنان لكل بحث) بإصدار توصية بالنشر من عدمه، أو بالتعديل وفق ملاحظات محدّدة، استناداً إلى قيمة البحث العلمية، ومدى أصالته، ودقة الأدبيات المرتبطة بموضوعه، وسلامة المنهج العلمي المتّبع، وتلاؤم البيانات والنتائج النهائية للفرضيات المقترحة، بالإضافة إلى تقنيات العرض وأسلوب صوغ الأفكار، وتنظيم الجداول ووضوح الأشكال والصور.

- إذا صدرت توصية المحكّمين بالنشر يُراسل المؤلف ويُخطر بذلك، ويُحدَّد موعد النشر.

- إذا أُقرّ البحث بملاحظات، يُعاد إلى المؤلف لإجراء ما يلزم من تعديلات خلال أسبوعين من تاريخ الإرسال، أما إذا كانت التعديلات طفيفةً، كتصويب الأخطاء المطبعية مثلاً، فيقوم منسق التحرير بإجرائها دون تأجيل.

- إذا لم يناسب البحث أو المقال شروط النشر في المجلة يُخطر المؤلف بذلك مع الاعتذار.

□ التزامات المؤلف

- يتضمّن إرسال مادة للنشر في مجلة آجال بروتوكولاً قانونياً وأخلاقياً يفيد ضمنياً أن المؤلف يقرّ

بمسؤوليته الكاملة عمّا أرسله، من جهة التزامه بالأمانة العلمية واعتماد الأصول العلمية في الإعداد والكتابة والتنسيق، مؤكداً أن البحث المقدّم للنشر لم يُنشر سابقاً، ولم يرسل إلى جهة أخرى لغرض النشر، وأن نشر عمله يعدّ موافقةً قانونيةً منه على انتقال حقوق النشر إلى مجلة آجال، وضمنياً بالتالي إلى حقوق المشاع الفكري والإبداعي وفق رخصة CC BY-NC.

□ ضوابط فنية

- سلامة البحث من الأخطاء النحوية والإملائية.

- إرفاق ملخّصين، باللغة العربية، والإنجليزية أو الفرنسية، لا يزيد كلاهما عن 150 كلمة.

- لا يزيد حجم البحث كاملاً عن 6000 كلمة.

- لا يزيد العنوان الرئيسي عن 7 كلمات.

- يُرسل البحث بخط Simplified Arabic مقاس 14 عادي، وتُحدّد العناوين الفرعية بالخط نفسه مقاس 16 أسود، والعناوين تحت الفرعية بمقاس 14 أسود.

- تُترك هوامش الصفحة بقدر 2 سم من جميع الاتجاهات.

- تُكتب الهوامش والإحالات بأرقام متسلسلة في كل صفحة بترقيم آلي.

- تُذكر المراجع والمصادر مرتّبة أبجدياً حسب المؤلفين وفق نمط APA.

- يُرفق المؤلف الذي ينشر للمرة الأولى في مجلة آجالنبذة عن سيرته العلمية لا تزيد على 50 كلمة.

□ ملاحظات

- جميع الآراء والأفكار والمعلومات الواردة في البحث تعبر عن رأي كاتبها وعلى مسؤوليته هو وحده، ولا تترتّب على الناشرين أو المجلة أو هيئة التحرير أي مسؤولية عمّا يرد في سياق المواد المنشورة تحت أسماء أصحابها.

- لا تعمل آجال بنظام رسوم النشر، أو ما يعرف بنظام APC. فغرضُ النشرِ علميّ معرفيّ بحت، ولا تتقاضى المجلة مقابلاً - كما لا تمنح مكافأت - عمّا تنشر.

- تُنشر مواد المجلة في صورة رقمية وتتاح مجاناً للتصفح والتحميل عن طريق عدة منافذ رقيمة، بينما تُباع النسخة الورقية بمقابل.

- يحق للمجلة إعادة نشر البحث المقبول منفصلاً، أو ضمن مجموعة من المساهمات العلمية الأخرى بلغته الأصلية، أو مترجماً إلى أي لغة أخرى، بصورة إلكترونية أو ورقية.

- لا تُستخدم الألوان في طبعة المجلة الورقية باستثناء الغلاف، ويمكن نشر الصور ومختلف أشكال الانفوغرافيك ملوّنةً في الطبعة الرقمية.

من سومر إلى العرب
– نظرية المقاطع الجذرية ونشأة اللغة العربية –

شاكر الغزي

في كتابه «ما قبل اللغة، الجذور السومرية للغة العربية واللغات الأفروآسيوية» يطرح الدكتور عبدالمنعم المحجوب نظرية تقول بأن السومرية هي السلف المباشر للغة العربية، وبعبارة أكثر دقة وشمولاً هي الحالة الجنينية، البدئية، أو الجينات الأولى لما نعرفه الآن باللغات الأفروآسيوية؛ بوصفها قارّة متوطّنة في هذه اللغات على شكل مقاطع جذرية أولية، وإن اختلفت اللغات الأفروآسيوية في بنائها العام معجمياً وصرفياً إلا أن تلك الحمولة السومرية متوطّنة فيها، بل إنها الأساس الذي تنبني عليه تلك اللغات بالإضافة والتحوير؛ إذ ثمة صلة لا تنكر بين السومرية وبين العربية والأفروآسيويات؛ فهي مبدأ ومنشأ عدة لغات ولهجات، منها:

الأكدية والبابلية والآشورية والكنعانية والعبرية والأوغاريتية والآرامية والسريانية والمندائية والسبئية والحضرمية والسّقطرية والمهرية والمصرية والقبطية والشاوية والمزابية والسواحيليّة والتغرينية والتغريّة والحَرَريّة والغَفت والماو والمالطية ولغة جزر الخالدات.

ويضيف المحجوب بأن دراسته للغة قبائل التبو في الصحراء الليبية أثبتت صلات أخرى بالسومرية كانت غائبة حتى هذه اللحظة.

وقد حُوربت هذه النظرية من قبل البعض بعدّة حجج ودعاوٍ، منها: أنّها تذيب اللغة العربية في اللغة السومرية. ومنها: أنها تنزُع عن لغة القرآن قدسيتها. ومنها: أنها تسلب من القومية الآشورية ريادة الساميّات!

فيما يتعلّق باللغة العربية، تفترض هذه النظرية أن اللغة السومرية مُحتواةٌ في اللغة

العربية بوصف مقاطعها الصوتية جذوراً أوليّة كامنة في مفردات اللغة العربية!

قدّم المحجوب لهذه النظرية من خلال افتراضين:

الأول: إن تاريخ منطقة الوطن العربي - الممتدّة من الأحواز شرقاً إلى جزر الخالدات غرباً، ومن شمال البحر المتوسط إلى جنوب الصحراء الكبرى في أفريقيا وإلى ساحلها الشرقي وما يناظره شرقاً في جنوب الجزيرة العربية، وينتهي جنوباً إلى جزيرة سقطرى - إنما هو تاريخ متّصل وإن تنوّعت حقبه وحلقاته، صنعته الأقوام نفسها، وإن تعدّدت أسماؤها، وسادت فيه لغة واحدة، وإن اختلفت لهجاتها، وانتشرت فيه العقائد نفسها، وإن تطوّرت أشكالها وتغيرت.

الثاني: إن لغات منطقة الوطن العربي تجمعها كتلة واحدة، وتنطوي في هذه الكتلة عدّة ضمائم لغويّة ولهجيّة، تقترب وتبتعد عن أصلها القديم بحكم ما مرّ بها من عوامل وعوارض عبر تاريخ حامليها والمتكلمين بها.

واللغة السومريّة ليست في معزل عن هذه الكتلة اللغوية، بل هي اللغة الساميّة الأمّ، التي جُعلت افتراضاً علمياً يدلّ على ما بين الساميات أو الأفروآسيويات من تقارب معجمي ونحوي صوتي-صرفي (أو صَوْرفي حسب تعبير د. محجوب)، وهي تقابل الهندوأوروبية الأمّ في التعبير عن مثل هذا التقارب بين ضمائم الكتلة الهندوأوروبية، وقد تطوّرت.

هي ليست أمّاً بمعنى قابلية العودة التأثيلية إليها بشكل أفقي، وإنما رأسي كما يقول محجوب، بمعنى أنها متوطّنة قارّة في الضمائم الأفروآسيوية التي نسميها اللغات واللهجات العاربة؛ أي أن التقارب بينها وبين السومرية لا يعتمد على التشابهات المعجمية، وإنما هو تكوّن الجذور اللغوية العربية وغيرها من مقاطع سومريّة مفردة ومثنّاة.

كانت النظرية السائدة هي أن السومرية لغة إلصاقية معزولة لا صلة لها بما جاورها من اللغات، وقد تمّت مقارنتها بأكثر من ثلاثين لغة دون التوصّل إلى نتائج مرضية من حيث المقاربة المعجمية أو الصرفية المورفوفونولجية morphophonological، هكذا قال الروّاد من قرّاء المسماريات، وهكذا يقرأ طلبة الجامعات وكليات الدراسات الشرقية واللغات القديمة! وهذا - بحسب د. محجوب - وهم علمي عاشه البحث اللغوي قرابة مائة سنة، بل - وبالتدريج - ترسّخ أن هذه اللغة المجهولة البداية صارت مجهولة النهاية أيضاً!

هكذا، كأن السومريين جاءوا ثم ذهبوا مثل نجم مذنَّب مرّ في السماء دون أن يتوطّن الأرض، أو حتى دون أن يصطدم بها، ودون أن يعرف أحد: من أين جاءوا؟ وإلى أين ذهبوا؟

حتى أن علماء الساميات اليهود مثل جوزيف هاليڤي زعموا أن السومرية لغة سريّة من ابتكار الكهنة البابليين أنفسهم لأغراض دينية وشعائرية؛ فهي لغة بدون شعب! ويمعن هاليڤي في زعمه فيقول: إن لقب «بلاد سومر وأكد» لم يستعمل للدلالة على مفهوم قومي أو جغرافي بقدر ما استعمل على بسط السلطة مثل بقية الألقاب الملكية القديمة. إذن لا يوجد دليل واضح على وجود السومريين، حتّى ألواح الطين المسمارية لا تقول لنا ما هي سومر، ومن هم السومريون!

يفترض الدكتور محجوب أن اسم سومر هو اسم جامع يدلّ على نشأة الأقوام التاريخية التي توطّنت الشرق الأدنى وأسّست ممالك ودول وحضارات أخذت أسماء مختلفة، وانفصلت لهجاتها ثم تطوّرت في تلك البيئات المختلفة لتتحول إلى لغات. وفي السومرية، يُذكر اسم سومر - في لهجة الإيميسال الشعبيّة – بصيغة «كنانغ» Kanang، وحيث أنّ الحرف الصامت الأخير يُحذف عادة؛ فيكون لفظه: كنآن Kan-an، الذي يرادف صيغة كنعان العربية بإضمار حرف العين في الألف الأولى.

وهذا التفسير - بحسب محجوب - يجيب على التساؤل المحيّر عن أصل الكنعانيين، أسلاف العرب، الذين يذكر المؤرّخون أنهم ظهروا فجأة ليتوطّنوا الساحل الشرقي من البحر المتوسط. أمّا قرّاء الألواح فقد غيّبوا الرموز المسمارية التي يمكن أن تفيد حرف العين، وقاربوا بين الصواتة السومرية وبين مخارج الألفاظ كما في اللغات الهندوأوروبية.

وهذا خطأ علمي، بل خطيئة حرّفت مسار البحث اللغوي، ونتجت عنها فجوات كثيرة في مسارات التاريخ. والذي تحاوله نظرية د. محجوب هو إعادة تجسير هذه الفجوات من أجل قراءة التاريخ العربي قراءة سليمة صحيحة.

لم يظهر السومريون أو يفدوا فجأة إلى جنوب العراق، بل أنهم كانوا في البدء مزيجاً من الأقوام الرحّل الذين قادتهم الضرورة إلى جنوب العراق بعد أن أصبح إقليماً صالحاً للاستقرار وقد كان مستنقعاً كبيراً، وهناك أسّسوا أقدم المدنيات وعبدوا أقدم الآلهة واختطوا أول المدن.

تاريخياً، ابتدأ تدوين اللغة السومرية مع بداية الألف الرابعة قبل الميلاد، وهذا يعني أن هناك ألفي سنة - على أقل تقدير - بين نشأة الكلام السومري وتمثيله كتابياً، وهي مرحلة كافية لا لحفظ الكلام وتدوينه فقط، بل لمعرفة أن لهجات نبعت من اللغة الأصلية قد نشأت واكتملت، وقد توفَّر لها من الأسباب ما جعلها تستقلّ تدريجياً بصواتها وصورفتها، بدأت بالأكدية، وعندما توفّرت للأكدية أسباب الانتشار؛ تفرّعت هي الأخرى إلى لهجتين: البابلية والأشورية، تفرّعت كلّ منهما بدورها إلى لغات مستقلة، وهكذا.

الأكدية - بحسب د. محجوب - لم تكن لغة جاورت السومرية بل هي لهجة من السومرية سادت وانتشرت وحلّت محلّ أمّها ومصدرها، كاللاتينية التي تختلف صواتها وصورفتها مع بناتها اللاتي تحدّرنَ منها. يحتفظ المعجم بحدّ ما من التشابهات والقرابات اللفظية، ولكن سياقات الكلام تختلف بحسب المكان والزمان. وهكذا أنتجت السومرية اللغةَ الأكديةَ تدريجياً.

في ملحمة إِدّنْ دَگَنْ Iddin Dagan السومرية، ترد العبارة التالية:

di kuruĝu kiengi kiuri gu teša binsig

وترجمتها الحرفية: قُضي الأمر، إنّ سومر وأكد صوتٌ واحد معاً.

وكلمة صوت gu هنا ليست سوى اللغة والكلام. وتنصّ ملحمة أنمركر وسيد أراتّا السومرية - بحسب محجوب - على وحدة

اللسان بين سومر وأكد وغيرهما من المدن، وتعبّر عنه حرفياً بـ: إمي-خَمُن eme-hamun أي اللسان المتوافق أو لسان التوافق، غير إن الترجمات الغربية - لسبب غير معروف - تجعلها اللسان المتعدّد أو لسان التعدّد.

لكن الأمر مختلف قليلاً مع العربية؛ فهي تحتفظ بالمعجمين السومري والأكدي معاً؛ فتحتفظ من السومرية بمقاطعها ومفرداتها، ومن الأكدية الثاني بصورفتها وجزء كبير من بنيتها النحوية. وعلى الباحث اللغوي الذي يسعى إلى تأثيل المعاجم العربية تاريخياً وبشكل تعاقبي أو تناسلي، أن يدرك أن بعض الكلمات العربية التي قد لا توجد في السومرية يمكن أن يُعثر عليها في الأكدية، والعكس صحيح. وعلى هذا، فالسومرية لم تكن (وهي ليست) لغة منقرضة على الإطلاق، نحن نتحدّثها ونكتب بها كلّ يوم؛ لأنها كامنةٌ في لغتنا العربية، مقاطعها المفردة والمثنّاة كامنة في جذور العربية.

السومرية والعربية لغة واحدة، وليستا لغتين، والذي يتحدّث العربية يتحدّث السومرية ضمناً، شاء أم أبى. وربّما كانت حجة الفصل القوية بين السومرية والعربية هي كون السومرية لغة مقطعية إلصاقية، والعربية لغة جذرية اشتقاقية، ولكن الدكتور محجوب يقول أن هذا التحديد في الحقيقة يخدعنا أكثر ممّا يخبرنا الحقيقة؛ فهو يفترض أن اللغة العربية في مرحلة ما - غابت عن التدوين - كانت لغة مقطعيّة، إلصاقية، كما توصف السومرية الآن، لكننا لم نعرف لغتنا إلا في صورتها المكتوبة عندما أصبحت لغة جذرية اشتقاقية.

لعلّ أول ملامح هذه النظرية هي ما كان بين السومرية والأكدية من تقارض واستعارة كلمات بحكم ما كان بين اللغتين من تجاور وتداخل في الاستعمال.

وثمة ملمحٌ آخر، وهو احتفاظ العاميّة العراقية بمفردات سومرية، خاصة في ما يتعلّق بالحِرَف والمهن ومسميّات الأدوات اليومية.

كانت المحاولة الأولى على يد لاندزبرگر الذي اكتشف عدداً من المفردات لا هي بالسومرية ولا هي بالأكدية، وبناء على ذلك افترض أن قوماً سبقوا السومريين - أطلق عليهم تسمية الفراتيين الأوائل - كانوا قد توطّنوا بلاد ما بين النهرين، وأن تلك المفردات من بقايا لغتهم. وخلال محاضرة للدكتور محجوب ألقاها في قاعة القبة الفلكية، أوضح أن هذه المفردات لا يمكن أن تكون أساساً لافتراض وجود الفراتيين الأوائل؛ لأنها ببساطة مفردات عربية مهجورة، لم يكلّف العلماء والباحثون أنفسهم عناء التدقيق في المتون المعجمية القديمة ليعرفوها.

وقد قدّم الدكتور محجوب في كتابه «ما قبل اللغة» عشرات الأمثلة التي تتجاور فيها التأويلات والقراءات بين التأثيل المعجمي الاشتقاقي وبين التحوّل الدلالي في عملية متواصلة من الإزاحة وإعادة البناء. ولاحظ أنّ العربي عند تلفّظه بكلمة عربية واحدة مكوّنة من ثلاثة حروف صوامت فإنّه يقول في الحقيقة كلمتين أو ثلاث من السومرية دون أن يدري؛ لأن الكلام تداولٌ للدلالات لتحقيق التواصل، وليس بحثاً في بنية المفردات والألفاظ.

مثال ذلك: كلمة «كتب» العربية، هي في الحقيقة تنطوي على ثلاثة مقاطع سومرية:

- كَ ka بمعنى: فم، كلام.

- تَ ta بمعنى: بِ أو بواسطة أو آلة.

- بَ ba بمعنى: أداة خشبيّة لكشط ألواح الطين، والرّقْم (النقش) عليها.

وهكذا تكون الدلالة الأساسية لكلمة كَتَبَ العربية في التأثيل السومري، هي: الكلام بأداة النقش، أو الكلام بالقلم.

وكلمة «لغة» هي الأخرى ليست سوى مقطعين سومريين هما:

- لُ lu : رجل أو إنسان.

- گو gu: صوت. أو الفعل صوّت، تحدّثَ.

فاللغو أو اللغة هما في التأثيل السومري صوت الإنسان، أو الإنسان متكلماً، وهي الكلمة التي ستتحول في ما بعد إلى Logo

أو Logos اليونانية.

وكلمة «سلام» التي توجد في أكثر من 20 لغة، فتتكوّن من مقطعين أساسيين:

- سِلْ sil بمعنى: فرح، سعادة.

- لم lum بمعنى : زاد ونما وربا وامتلأ وأخصب، وهي التي استقرت أيضاً في العربية «لملم».

فكلمة السلام العربية المستخدمة للترحيب والتحية هي بالمعنى السومري: عمّ بهجةً، أو زِدْ سعادة، أو فلتمتلئ حبوراً.

وكلمة «أدب» العربية أصلها السومري هو إدُبّا édubba التي تعني مدرسة، أو بالأصح مكتبة، وهي متكونة من é بمعنى بيت، وdubba بمعنى لوح، أي بيت الألواح، والألواح في الحضارة السومرية هي الكتب الآن، وقد تحوّلت في العربية إلى أَدب بمعنى أدب النفس والدّرس، ومنها الفعل أدّبَ بمعنى عَلّم.

مَسْرَد لاندزبرگر- بعض مفردات الفر اتيين الأو ائل

ت	اللفظ العربي	اللفظ اللاتيني	المعنى	الأصل العربي المهجور
1	أپِن	Apin	محراث	ءبّن الأثر: هو أن يقفوه فلا ينفلت منه وهو شأن الحرّاث. ويصنع المحراث البدائي من عود، وعقدة العود في العربية هي: الأُبنة، وتجمع على أُبن.
2	أُتُل	Utul	راعٍ	العَتَلة: العصا الضخمة. العَتْل: الدفع والإرهاق بالسَّوْق العنيف.
3	سباد	Sibad	راعٍ	السَّبَد: ما يطلع من رؤوس النبات قبل أن ينشر.
4	إنگار	Engar	فلاح	الأكّار: الحرّاث، الزرّاع، الجمع: أَكَرَة. أَكَرَ: حَفَر المؤاكرة: المزارعة على نصيب معلوم مما يزرع في الأرض.
5	پخار	Paḫar	فخّار	
6	تِبِرا	Tibira	نحاس	التبر: الذهب، أو جميع جواهر الأرض من النحاس والصفر.
7	دَمْگار	Damgar	تاجر	لعل أصل التاء اجتماع صوتي الدال والميم.
8	كي	Ki	أرض	القِيُّ: الأرض المستوية.
9	گَلْ	Gal	كبير، عظيم	الجلل الشيء العظيم. الجيأل: الضخم من كل شيء.
10	ملاخ	Malaḫ	ملّاح	
11	نگار	Nagar	نجار	
12	بُرَنُن	Buranun	الفرات	
13	إدِگنا	Idigna	دجلة	الدكنة لون بين الحمرة والسواد. (لعلّه لون الغرين والطمي).

وفي الفصل السادس من كتابه، قام الدكتور محجوب بمعالجة الجذور التي يضمُّها حرف النون في المعجم العربي، اعتماداً على معجم لسان العرب لابن منظور؛ لاستظهار الدلالات الرئيسية، وقد تبيّن له أن الكثير من هذه المفردات يتكون من بادئة هي حرف «ن» الذي يعني النفي والضديّة في السومرية، ويليه جذر ثنائي متكوّن من حرفين في المعجم العربي هما عادة مفردة سومرية متكونة من مقطعين، فالمفردة العربية - أي البادئة بحرف النون – إنما هي كلمة سومرية دخلت عليها أداة النفي السومرية «ن» بمعنى: «لا» أو «ليس» أو «ضد»، واستقرّت في اللغة العربية بالشكل الذي نعرفه الآن، هذا واحد فقط من أشكال عديدة نشأت فيها اللغة العربية؛ فاللغة السومرية متوضّعة في العربية على شكل بِنية أو طبقة تحتية Substrata .

على سبيل المثال: كلمة «نسق» التي تفيد الانتظام، هي في تأثيلها السومري نون النفي زائداً المقطع «سَقْ» الذي يعني التبعثر والتحطيم:

نَسَقْ = ن + سَقْ n + sag

ونفي دلالة التبعثر بأداة النفي يؤدي معنى الانتظام، وهكذا.

تدريجياً انحلّت سمة المقطعية في الكلام؛ فاستقلّت المفردات، ثم اندرجت في منظومة صوتية وصرفية فطرية، حصل ذلك في زمنٍ ما من الألف الثاني قبل الميلاد، وهو الزمن الذي اتخذت فيه اللغات الأخرى خصائص محلية كالأوغاريتية مثلاً.

ويذهب الدكتور محجوب إلى أن بعض الكلمات الواردة في القرآن غير المتفق حولها، والتي اختلفت فيها التأويلات، يمكننا تأثيلها سومرياً باستظهار مقاطعها الأساسية واكتشاف دلالاتها أو معناها العام.

والقاعدة التي يضعها الدكتور محجوب في تأثيل الكلمات العربية سومرياً، هي:

قراءة السومرية جذرياً، في مقابل قراءة العربية مقطعياً.

وبعبارة أخرى: ردُّ المفردات إلى أصولها المقطعية، كما مرّ أعلاه.

***

العرب أحفاد السّومريين حضارياً

ثمّة مسلمتان بين علماء الآثار والأشوريّات لا يسوّغون المساس بهما، تتعلّقان بالسومريين ولغتهم، وهما:

(1) اللغة السومرية لغة مقطّعية.

(2) السومريّون غير ساميّين.

والمسلمة الثانية نتيجةٌ عرضية للتسليم التامّ بالأولى. ولعل أهم ما يميّز عائلة اللغات الساميّة هو أنّها جذرية وليست مقطعيّة، تغلب فيها الحروف الصوامت على الصوائت (حروف العلّة)، وبالإمكان ردّ الكلمات المتشابهة إلى جذر لغويّ واحد، في الغالب هو جذر ثلاثيّ صامت، أو فيه حرف علة واحد في وسطه أو آخره، وهذه الظاهرة تسمّى «الاشتقاق»، وهي تستتبع ظاهرة أخرى هي «الإعراب» للإبانة عن أنواع المشتقّات وعملها، في حين أن اللغات المقطعية تتكوّن الكلمة فيها من مقطع صوتي واحد أو أكثر، وكل مقطع صوتي ينتهي بحرف من أحرف المد غالباً، أو يبدأ به، أو أن الصائت يتوسّط المقطع الصوتي، وهكذا، وتتم الاستعاضة عن الإعراب بتغيير المقاطع الصوتية، وعن الاشتقاق باللواصق (السوابق واللواحق)؛ وإذا ما استقرّ الرأي على أن اللغة السومرية هي لغة مقطعيّة، نتج عن ذلك أن السومريين ليسوا من الشعوب الساميّة. ولعلّ أهم النظريات التي يُرجَع إليها بخصوص نشأة النظام المقطعي في اللغة السومرية، نظرية المستشرق جون ألان هالّوران John A.Halloran في كتابه The Proto-Sumerian Language Invention Process والتي تفترض أن الأساس في نشأة اللغة هو الصائت المفرد (V)، ثم في مرحلة تالية بُدئ بصامت (C) يليه صائت، ثم ظهرت الأبنية الثلاثة الأولى: (VC, CV, VCV).

وبعد فترة من استعمال هذه الأبنية الثلاثة - قدّرها هالّوران بجيل واحد على الأقل - اتّسعت وتطوّرت التتابعات المقطعيّة؛ فظهرت الصيغة: CVC التي تشتمل على 30% من كلمات المعجم السومري. ويلاحظ أنّ متواليات هالّوران تجعل الأساس البنيوي للمفردة هو الصائت (V) الذي ظهر أولاً، رغم أن هذه الصيغة لا تضمّ سوى أربعة فونيمات كوّنت الصوائت الأربع: (a, e, i, u)! وقد قام هالّوران بجمع كل مفردات هذه الصيغة، فكانت:

الصيغة الأولى: الصوائت المفردة (V)

(a): ماء، مجرى ماء، قناة، منيّ، نسل، أب، دموع، فيضان.

(e): بيت، أهل، معبد.

(i): صرخة ألم، أسر، هزم، غلب.

(u): نبات، كلأ، طعام، خبز.

وأما الصيغتان الأخريان، فهما مع بضعة أمثلة:

الصيغة الثانية: صائت - صامت (VC)

(an) : سماء، الإله آن، علا، عالٍ.

(en): وقت، حتّى.

(ig): باب، مدخل.

(ub): ركن، زاوية، غرفة صغيرة.

الصيغة الثالثة: صامت - صائت (CV)

(ga): حليب.

(ĝe): أنا، نفسي، ياء النسبة.

(gi): قصب.

(lu): رجل، ذكر.

ثم يقترح هالّوران متوالية الصيغ المقطعية التي تضمّ 25 صيغة، وكما في الجدول التالي:

المتتاليات السومرية
(اختلاف قراءة الصوامت والصوائت وفق نظريتي هالّوران والمحجوب)

مثال	المعنى	قراءة هالّوران		قراءة المحجوب	
a	ماء	آ	V	ءَ	C
ab	نافذة	اب	VC	ءبْ	CV
ba	أعطى	با	CV	بَ	C
aba	بحيرة	ابا	VCV	ءَبَ	CC
dab	حملَ	داب	CVC	دَبْ	CV
gaba	صدر	گابا	CVCV	گَبَ	CC
ušub	سلّة	اوْشُوب	VCVC	ءُشُبْ	CCV
urgu	ضراوة	اوْرگو	VCCV	ءُرْگُ	CVCV
endub	طها	ايندوب	VCCVC	ءِنْدُبْ	CVCV
urudu	نحاس	اورودو	VCVCV	ءُرُدُ	CCC
ĝadub	وعاء	گادوب	CVCVC	نْگَدُبْ	VCCV
nešbu	أداة	نيشبو	CVCCV	نِشْبُ	CVC
urugal	عالم سفلي	اوروگال	VCVCVC	ءرُگَلْ	CCCV
eškiri	رَسَن	ايشكيري	VCCVCV	ءِشْكِرِ	CVCC
umbisaŋ	ناسخ	اومبيسان	VCCVCVC	ءُمْبِسَنْگ	CVCCVV
immindu	تنّور	ايمّيندو	VCCVCCV	ءِمّنْدُ	CVCVC
elamkuš	مثانة	ايلامكوش	VCVCCVC	ءِلمكُشْ	CCVCV
kankal	أرض بور	كانكال	CVCCCVC	كَنْكَلْ	CVCV
tabira	مُعَدّن	تابيرا	CVCVCV	تَبِرَ	CCC
buranun	نهر الفرات	بورانون	CVCVCVC	بُرَنُنْ	CCCV
kurušda	علف	كوروشْدا	CVCVCCV	كُرُشْدَ	CCVC
muḫaldim	طاهٍ	موخالديم	CVCVCCVC	مُخَلْدِمْ	CCVCV
mangaga	سعف النخل	مانْگاگا	CVCCVCV	منْگَگَ	CVCC
dalhamun	عاصفةهوجاء	دالهامون	CVCCVCVC	دَلْهَمُن	CVCCV
kingusili	الأغلب	كينگوسيلي	CVCCVCVCV	كِنْگُسِلِ	CVCCC

ومن أهم الملاحظات التي سجّلها الدكتور عبدالمنعم المحجوب على متواليات هالّوران، هو أن طريقة قراءة علماء الأشوريّات فيها عمْدٌ إلى مقاربة الصوائت كما استقرّت في اللغات الهندوأوروبية، وبما يتفق ومخارج حروف لغاتهم، دون احتمال أن تكون أقرب إلى الحركات التي نعرفها في اللغات الأفروآسيوية، ويمكن ملاحظة هذا واضحاً في الفرق بين نقحرات جون هالّوران (التي تمثّل عموم النقحرة الغربية) ونقحرات د. المحجوب في الجدول أعلاه. وثاني الملاحظات هي تغييب حروف الحلق – ولا سيما العين - دون الاستناد إلى إثبات واضح سوي القياس على نظام الصواتة في اللغات الأوروبية.

وحيث أن لا أحد يعرف طريقة نطق السومريين للحروف من مقاطع ونَبْر، وكيف جعلوا مُدَد الحركات والمدّات؛ فبالتالي لا يمكن الجزم بأن النقحرة الغربية المفترضة هي النقحرة الوحيدة المحتملة، فضلا عن أن تكون الصحيحة!

وإذا صحّت إعادة النقحرة التي اقترحها د. عبدالمنعم المحجوب - وسبق أن عرضناها بشكل مفصّل في موضوع سابق - فإن التسليم بمقطعية السومرية سيشوبه الكثير من الشك؛ وتبعا لذلك فإن القول بساميّة السومريين ستكون واردة جدّاً، بل هي التفسير الأنسب لوجود هذا الشعب في هذه المنطقة من جنوب العراق، وتنتهي – عندئذ - المشكلة التي ابتدعوها وسمّوها المشكلة السومرية! سيكون السومريون والأكديون شعباً واحداً لا شعبين، وقومية واحدة لا قوميتين. وعندها، فالتفسير المقبول لثنائية اللغة السومرية- الأكادية هو أن السومرية هي مرحلة أولى - تدوينية - للغة التي تتخاطب بها هذه الشعوب؛ ولذلك فقد كانت متعثّرة وبدائية، والأكدية هي المرحلة الثانية من مراحل تطوّر كتابة هذه اللغة.

كما أنّها تطوّرت لاحقاً في مرحلتيها البابلية والأشورية، وهكذا. وما الأكديون إلّا سلالة حاكمة من بين السلالات السومرية التي حكمت في عهد ما بعد الطوفان.

وقد أعاد د. محجوب تمثيل متواليات هالّوران، لا كما تبدو في الكتابة، بل كما يُظهرها اللفظ، قياساً على ما هو دارج في قراءة المقاطع الأفروآسيويّة - العربيّة، خاصة - فنتج عن ذلك تغليب الصوامت كما هو الحال في اللغات السامية.

ويلاحظ من الجدول الذي أعدّه د. محجوب في كتابه «ما قبل اللغة»، أن مفردات اللغة

السومرية تنبني غالباً على البدء بصامت، يليه تسكين (علامة الصائت)، بشكل تراتبي، وأن هذا التقعيد الفونيطيقي متّصل وذو تركّب منطقي يعتمد على البدء بالصامت والصائت ومضاعفة تكرارهما بنيوياً، كما يقول د. محجوب. ويضيف بأن هذا المنهج يتّفق في خلاصاته العامة مع منهج تذوّق الحروف وترتيب مخارجها على طريقة الخليل الفراهيدي.

شخصياً، أعتقد أن نفي صفة المقطعيّة عن اللغة السومرية أمرٌ هامّ جدّاً في حل المشكلة السومرية؛ فبانتفائها يمكن إعادة النظر في اللغة السومرية على أنّها اللغة الأمّ للغات السامية، ولا يُشترط في اللغات السامية أن تشترك في كلّ صفاتها وقواعدها مع لغتها الأمّ أو الأصل الذي انحدرت منه؛ باعتبار أنّها شكل بدائي أو نموذج أولي مرتبك. ومن الغرابة بمكان! أن أقدم لغة معروفة من اللغات السامية هي اللغة الأكدية، بلا شك، ولا يختلف علماء الأشوريّات في القول بأن بين اللغتين السومرية والأكدية تأثّر وتأثير متبادل حدّ أنّ فكّ رموز العلامات المسمارية السومرية المستعصية يتم باللجوء إلى مقارنتها باللغة الأكدية، فضلاً عن أن المعاجم ثنائية اللغة (السومرية- الأكادية) كانت هي المرجع الأهم في ترجمة العلامات السومرية والتعرف عليها، فبعد كل هذا كيف يُغفَل عن العلاقة الوطيدة ما بينها؟ وكيف لا يسوّغ اعتبارهما لغة واحدة مرّت بمرحلتين من التدوين لا أكثر؟

انتهى كثير من الآثاريين إلى وحدة الشعبين السومري والأكدي معتبرين أنّهم قومية واحدة وشعب واحد وهو الشعب الأكدي، وشكّك آخرون بوجود السومريين أصلاً، وذهب كلاهما إلى أن اللغة السومرية لغة تدوين وليست لغة تخاطب، أو أنها لغة سرّانية للكهنة والمراسلات الرسمية، وما يهمّنا من هذا هو خلاصته الأخيرة، وهي أن السومريين والأكديين شعب واحد وقومية واحدة، وبالتالي فالسومريون ساميّون بالضرورة، وهذا ينفي المسلمة الثانية. إذن، لا اعتبار للمشكلة السومرية من الأصل، وتكون افتراضات أصل السومريين مجرّد خبط عشواء، وإن هي تكشف عن حدود تأثير الحضارة السومرية في جهات العالم القديم الأربع معرفيّاً وتجارياً.

وفي رأيي، فلا السومرية، ولا الأكدية، كما نعرفهما اليوم من خلال المدوّنات الطينية، هما لغة تخاطب الشعب السومري -الأكدي؛ لسبب بسيط ومنطقي، وهو أنّهما مرحلتان بدائيتان من مراحل تدوين لغة التخاطب الشفاهي، لا شكّ أنّ المرحلة الثانية (الأكدية) تحقّقت لها تطوّرات وتحديثات مهمّة، ولكن ذلك لا يعني مفارقتها للأصل البدئي

(السومرية)؛ وإذا حصل ورُدّت جميع اللغات السامية إلى الأكدية بوصفها اللغة الأمّ، أو أقرب أفراد العائلة السامية زمناً إلى اللغة الأمّ، فمن باب أولى القول بأن السومرية هي تلك الأمّ، أو أنها الأقرب إلى الأمّ حتّى من الأكدية نفسها، في حال التسليم بمسرد لاندزبرگر للكلمات السومرية التي ردّها إلى لغة أقدم افتُرض أنّها لغة الفراتيين الأوائل (أو العُبيديين).

وبهذا، فاللغة الساميّة الأمّ Proto-Semitic بدل أن تكون مجرّد افتراض لغوي - بوجود لغة بدائية ينتهي إليها التسلسل المنطقي للغات السامية المستقلة التي كانت في يوم ما لهجات فرعية – يمكن أن يصبح حقيقة تاريخية قارّة إذا ما سلمنا بأن السومرية هي اللغة البدائية الأمّ لكلّ اللغات السامية، لا سيّما وأن هذا يتطابق مع فرضهم بأن اللغة السامية الأمّ كانت موجودة خلال الألف الرابع قبل الميلاد، ومع الرأي القائل بأن الموطن الأصلي للُّغات السامية هو بلاد ما بين النهرين.

ومصطلح اللغات الساميّة يطلق على اللغات التي تكلمتها كتلة الأمم التي كانت تقطن في بلاد آسيا وأفريقيا التي كانت تُعرف

بالشرق الأدنى، وهي مرادف لما نسمّيه اليوم «الجزيرة العربية». وأول من أطلق هذا المصطلح هو المؤرخ النمساوي أوغست لودفيغ ڤون شلوتزر A. L. Von Schlözer عام 1781م، استقاه من مواليد أبناء نوح الواردة في الأصحاح العاشر من سفر التكوين التوراتي. وأول مايلاحظ على التقسيم التوراتي لأنساب شعوب أولاد نوح، هو أنه يجعل الكنعانيين من بني حام، في حين أن هناك روابط عنصرية ودموية ولغوية متينة تربط بين الكنعانيين وبين بقية أبناء سام، ولا سيما العبريين، وكلتا الكنعانية والعبرية من اللغات السامية اليوم. في حين يجعل العيلاميين من أبناء سام.

وبسبب وجود علاقة تشابه واضحة بين جميع اللغات؛ استنتج المستشرقون أن هذه اللغات هي لهجات نجمت عن لغة أصلية موحّدة كانت منتشرة بين الأمم الساميّة في مهدها الأول وموطنها الأصلي الذي نشأت فيه. وبعد هجرة القبائل الساميّة وتفرّقها في بلاد شتّى بدأت البيئات الجديدة تترك على لهجاتها تأثيراً ملحوظاً يخالف لغة الأصل الموحّدة، حتى أصبح بعضها يغايرها مغايرة واضحة وكأن كل واحدة منها لغة مستقلة.

ولتسهيل معرفة لغة الساميين الأصلية، لجأ المستشرقون إلى البحث عن المهد

الأصلي للساميين، فذهب بعضهم - بدعم من التوراة - إلى أن بابل هي أقدم موطن سكنه أبناء نوح، ومن بابل تبلبلت الألسن وشاعت اللغات، وقال آخرون، ومنهم جويدي T.Guidi أن جنوب العراق هو المهد الأصلي للأمم الساميّة بحجة أن سكّان تلك المنطقة هم أول من استعمل عدداً من أسماء النباتات والحيوانات وكلمات العمران، وأن تلك التسميات مألوفة ومعروفة في جميع اللغات الساميّة.

وهناك من يؤشر - دون جزم - إلى أن الجزيرة العربية يُحتمل أن تكون هي المهد الأصلي للأمم الساميّة. ومما يمكن أن يدعم هذا الرأي هو أن كثيراً من المستشرقين القدامى يرون أن اللغة العربية أقرب لغات الساميين إلى اللغة السامية الأصلية.

يقول الدكتور إسرائيل ولفنسون: إن اللغة العربية تشتمل على عناصر لغوية قديمة جداً بسبب وجودها في منطقة منعزلة عن العالم بعيدة عمّا يتوارد عليه من تقلبات وتغيّرات.

ويرى باحثون آخرون أن اللغة الآشورية البابلية هي أقرب اللغات السامية نسباً إلى اللغة الأصلية، غير أن كبار المستشرقين رفضوا هذا الرأي بسبب قلة ما وصل إلينا من ألفاظ اللغة الآشورية التي لا تشكل نواة صالحة لفهم حقيقة هذه اللغة.

ومهما يكن من شيء، فالذي عليه الاتفاق أن جميع الأمم السامية كانت في عصور ما قبل التاريخ أمة واحدة ذات لغة واحدة

وتقطن منطقة واحدة. ومما لا شك فيه أن مفردات اللغة السامية الأصلية كانت قليلة كما هو الشأن في جميع اللغات البدائية، ثم تكثّرت بتطوّر مناحي الحياة الفكرية، ونشأ فيما بينها شيء من التمايز والاختلاف في الظهور، وبمرور الزمن اتسعت الشقّة واتضحت الاختلافات بين لهجات اللغة الواحدة وطرق استعمال ألفاظها، على أن ذلك التمايز والاختلاف لم يسلبها الخصائص والمميزات التي تجعل منها كتلة لغوية واحدة.

[...] وينقل د. أحمد سوسة عن المستشرق البريطاني جون فيلبي (الشيخ عبدالله) أن اللغة العربية هي أقرب اللغات السامية إلى اللغة الأمّ الأصلية التي اشتقّت منها جميع هذه اللغات، وهي على الأغلب أقدم لغة في العالم ما زالت حيّة حتى يومنا هذا.

ويذهب المستشرق سپرنجر Sprenger إلى أن الآشوريين والبابليين والآراميين

والفينيقيين (الكنعانيين)، كلّهم عرب هاجروا من الجزيرة.

وبحسب الدكتور عبدالمنعم المحجوب، فإن أرض سومر، في اللهجة السومرية الشعبية eme-sal تُسمّى: كَنانْگ ka-na-ang وتُقرأ «كنآن» بحذف الصامت الأخير، وبإضمار العين المغيّبة في الألف؛ فإن هذا الأسم يشي مباشرة بـ«كنعان»!

وبحسبه أيضاً؛ فإن السومريين الأوائل كانوا خليطاً من الجماعات التي كانت تطوف المنطقة بحثاً عن أسباب التوطّن؛ لأن المنطقة بأكملها لم تكن مهيّأة بعد، لنشأة المدنيّة القارّة؛ فالأدوار الأولى ليست سوى «كومونات» تعتمد على الرعي وبالكاد انتظمت فيها الزراعة، كما إن أراضي جنوبي الرافدين لم تكن غير مستنقع كبير.

وكان الدكتور عبدالمنعم المحجوب، سبق أن اقترح في كتابه «ما قبل اللغة»، مصطلح الأفروآسيويات بديلاً عن مصطلح اللغات السامية، ثم عدل عنه في «أصوات بابل» إلى مصطلح العاربة: اللغات العاربة، اللهجات العاربة، والأقوام العاربة؛ باعتبار أن هذا المصطلح التراثي أكفأ من الأفروآسيويات، ومن مصطلح اللهجات العروبية الذي أوصى به مجمع اللغة العربية في ندوة النقوش العربية القديمة المنعقدة في طرابلس، 2005. واللغات العاربة عنده تشمل تراث كل اللغات واللهجات الأفروآسيوية القديمة التي ظهرت في تاريخ قديم لم يدوّن، ثم دُوّن مع ظهور الأقوام الأولى في بلاد الرافدين، والذين عرفَت بلادهم باسم كِنْگي ki-en-gi أو سومر بحسب الدراسات الشرقية في القرن التاسع عشر، ولغة هؤلاء (السومرية) هي التي أنتجت اللغة العربية الحجازية، مرورا بالأكدية، ولهجتيها: البابلية والآشورية.

ولغات هذه المنطقة - التي تُعرف قديماً، في التوراة والثقافات الغربية، باسم بلاد بابل، باعتبار أن بابل هي العلم الأشهر عن هذا التاريخ القديم ابتداء من سومر، وما قبلها، وانتهاء بدمار مدينة بابل نفسها - ليست إلّا لغة واحدة وإن تعددت لهجاتها التي تبتعد أو تقترب من الأصل القديم المشترك، وإن التقارب بين اللغة السومرية واللغات العاربة لا يعتمد على التشابهات المعجمية التأثيلية، وإنّما هو تقارب من نوع آخر، هو عبارة عن توطُّن المقاطع السومرية كطبقات تحتيّة قارّة في الجذور اللغوية العربية واللهجات الأفروآسيوية.

ويؤكّد الدكتور محجوب: السومريون الأوائل هم مزيج من القبائل التي كانت تجوب الوديان والمفازات بحثاً عن أسباب التوطّن والاستقرار الدائم، ومن المستحيل بحث أصولهم العرقية في تلك الفترة، لكنّني لا أتردّد في وصفهم بأسلاف العرب، أو العرب الأوائل، ببدء توطّنهم في المدن والقرى الأولى التي نشأت بين دجلة والفرات، وهذا التوطّن كان تدرّجاً امتدّ لقرون من الزمن.

وإن تأخّر تدوين اسم العرب لا ينفي فرضية كون السومريين أسلاف العرب؛ بدلالة خروجهم إلى بلاد الرافدين من الجزيرة وبادية الشام. وبفعل وحدة المجال البيئي واتصال المكوّنات الاجتماعية؛ يمكن إثبات الصلة بين السومرية والعربية، فأولاً، يلاحظ أن اسم «سومر» اسم أكدي لم يرد في المدونات السومرية، ويرد في المدونات الأكدية بصيغة شومر šumer مرفقاً عادة باسم كيوري ki-uri أي أكد، وهذا يعني أن «سومر-أكد» كيان واحد.

وثانيا: لا خلاف في أن اللغة الأكدية هي السلف الأقدم للعربية، وبتحقّق هذه الوحدة (كنگي-كيوري)؛ تكون السومرية، أيضاً، سلفاً أقدم للغة العربية، واللهجات العاربة.

ومصطلح العاربة - عند د. محجوب - عامّ يشمل كل القبائل العربية القديمة التي عاشت وسادت في أرض الجزيرة وجوارها الإفريقي. وهو لا يستلزم أيّ مقابلة مع المصطلحين الآخرين الذين يردان في كتب الأخبار، أي: البائدة والمستعربة، حيث درج المؤرخون على تقسيم العرب إلى ثلاثة طبقات: (1) العرب البائدة: أقوام عاد، ثمود، جُديس، عبيل، وجُرهم. (2) العرب العاربة: القحطانيون، أولأد قحطان بن عابر... بن سام بن نوح. (3) العرب المستعربة: العدنانيون، أو النزاريون، أو المعدّيون، وينتهي نسبهم إلى عدنان من نسل اسماعيل بن إبراهيم. يذكرون أن اسماعيل تزوّج امرأة من قبيلة جُرهم؛ فتعلم منهم العربية بعد أن كان يتكلم بلغة أبيه الآرامية أو الكلدانية.

يقول الدكتور جواد علي في كتابه «المفصّل»: اتفق الرواة وأهل الأخبار، أو كادوا يتفقون، على تقسيم العرب من حيث القدم إلى طبقات: عرب بائدة، وعرب عاربة، وعرب مستعربة. أو: عرب عاربة، وعرب متعرّبة، وعرب مستعربة. أو: عرب عاربة وعرباء وهم الخلص، والمتعرّبة. واتفقوا، أو كادوا يتفقون، على تقسيم العرب من حيث النسب إلى

قسمين: (1) قحطانية، منازلهم الأولى في اليمن. (2) عدنانية، منازلهم الأولى في الحجاز.

ويخلص الدكتور محجوب إلى القول بأن العرب اسم علم جامع يدل على كتلة حضارية تاريخية لغوية اجتماعية واحدة متّصلة الحلقات منذ انحسار العصر الجليدي الأخير، أي منذ اثني عشر ألف سنة! والعرب، بهذا، اسم جامع للمسارات التاريخية الأفروآسيوية بدءاً من أولى التجمّعات القارّة في بلاد ما بين النهرين وشمال الجزيرة، غير المسمَّاة آنذاك لغياب التدوين.

وفي وقت لاحق، تحوّلت تلك التجمّعات إلى حضارات قديمة، عرفت أولاها باسم السومريين.

سبق أن أشرنا إلى ورود كلمة «عرب» في المصادر القديمة بعدّة صيغ منها، ما ذكره العلامة طه باقر: Arbi, Aribi, Arubu, Urbi. ومنها ما ذكره الدكتور جواد علي: Arabi, Aribu, Arub. ومنها، أيضاً، ما ذكره الدكتور علي فهمي خشيم في كتابه «آلهة مصر العربية»: Arabi, Arabu, Matu-a-rabi، وكلمة matu الأكدية تعني: أرض أو بلاد، والأصل فيها mada السومرية، وهي ذاتها الصيغة العربية «مدى».

ويستخلص الدكتور خشيم من الصيغ أعلاه ثلاث نتائج مهمّة، هي:

(1) كلمة «العرب» باعتبارها مدلولاً قومياً وجنسياً لم تُعرف إلّا في وقت متأخر، وبفضل ظهور الإسلام خاصة.

(2) تعرّضت هذه الكلمة للتحريف، بالإضافة والحذف وإبدال الحروف بحسب اختلاف الشعوب وتباين الأمم.

(3) هذه الكلمة تعني البداوة والقفر والأرتباط بالصحراء في الغالب الأعم.

وضمن مشروع التأثيل السومري للألفاظ العربية الذي يتبنّاه الدكتور عبدالمنعم المحجوب؛ فإن كلمة «عرب» أو «العرب» تطوّرت عن المقطع السومري rib الذي يفيد دلالتين أساسيتين:

الأولى: علوّ المنزلة.

الثانية: الترحال والذهاب.

وتأثيل كلمة «عرب» سومرياً وفق المنهج الاسترجاعيّ، يمكن أن تساهم فيه المقاطع التالية:

(1) المقطع ri

ومثله المقاطع : er, e-re7, ir, ir10, ra, ri6, re7

ودلالة هذا المقطع، هي: البُعد، أو البعيد. ومن دلالات المقاطع الأخرى: يسوس، يرحل، يذهب، يبادل (يقايض)، يوطّن، يرعى.

ومن ذلك a-ri-a بمعنى: صحراء، قفر.

(2) المقطع ib

بمعنى: مكان منعزل، ركن، زاوية.

وبدمج المقطعين أعلاه ri-ib ينتج المقطع السومري rib الذي تحوّل في الأكادية إلى rabbu، ويعني: القدوم من مكان منعزل، أو الرعاة الأباعد. ومثله المقطع: ub وهو بالمعنى ذاته، ومنه an-ub-da بمعنى: حقل شاسع، إقليم ممتد.

(3) المقطع ba

بمعنى: قسم، جزء. ومنه ri-ba بمعنى: الأعلى (الرابي)، وهو الجذر العربي: رِبا. ومنه أيضاً men-ri-ba بمعنى: التاج العالي، فكلمة men أي: التاج، وقد تأتي بمعنى العمامة tiara؛ فيكون المعنى: المعمّمون (أصحاب العمائم) الأقوياء. ولعلّه وصف أُطلق على الأكديين القادمين من شبه الجزيرة. ولا شك أنّه وصف مظهري يتعلّق باللباس الصحراوي.

(4) المقطع bu

من معاني هذا المقطع: التدافُع. ويؤدي ائتلافه مع المقطع ri إلى تكوين لفظة rib-bu القريبة من الكلمة الأكدية rabbu؛ والعرب بهذا المعنى هم المندفعون، أو المتدافعون في ترحالهم.

وبالتالي، يمكن القول أن الصيغ الأكدية المختلفة لكلمة «عرب»، يمكن أن تكون مؤثّلة

سومرياً من المقاطع: rib, ri-ib, ri-

ba, ri-bu، ويمكن أن تفيد المعاني التالية مجتمعةً:

(1) الرُّحّل: من الجذر السومري rb ويعني البدو الرحّل.

(2) ذوو المنزلة الرفيعة: أو رؤوس القوم، الأرباب، من الجذر rb أيضاً.

(3) الرعاة: سائسو المواشي. من الجذر ri بمعنى: رعي.

(4) القادمون من بعيد: من الجذرين ri بمعنى: رعي، وbi بمعنى: بُعد.

(5) الكُثْر: لعددهم، مع مقارنة الكثرة ri-ba بالجذر العربي رِبا.

(6) الخُلطاء: للجهل بأرومتهم.

(7) المتوطّنون: تمييزاً لهم عمّن يقدم لفترة مؤقتة.

(8) المقايضون: المتاجرون مع المحلّيين بيعاً وشراءً.

فالعرب، إذن: رعاةٌ رُحّل، كُثْر، جاؤوا من بعيد، وهم خُلطاء أغراب، قايضوا سكّان وادي الرافدين المحلّيين بما يحملون، ثمّ توطّنوا المدن.

□□□

■ مراجع:

- أحمد سوسة؛ حضارة وادي الرافدين بين الساميين والسومريين. وزارة القفافة والإعلام، دار الرشيد، بغداد، 1980.
- إسرائيل ولفنسون؛ تاريخ اللغات السامية. لجنة التأليف والترجمة والنشر، مطبعة الاعتماد، القاهرة، 1929.
- جواد علي؛ المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج 3،ج. وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، 1993.
- طه باقر؛ مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ج.1: الوجيز في تاريخ حضارة وادي الرافدين. ج.2: حضارة وادي النيل وبعض الحضارات القديمة. دار الوراق، بغداد، 2009.
- عبدالمنعم المحجوب؛ ما قبل اللغة، الجذور السومرية للغة العربية واللغات الأفروآسيوية. دار تانيت، 2008.
- عبدالمنعم المحجوب؛ أصوات بابل. مقاربة جينالوجية في اللغة والحراك السوسيوثقافي الأفروآسيوي،

دار تانيت، 2014.
- علي فهمي خشيم؛ آلهة مصر العربية، مج. 1. الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع- طرابلس، دار الآفاق الجديدة- الدرا البيضاء، 1990.
- علي فهمي خشيم؛ الأكدية العربية. مركز الحضارة العربية، القاهرة، 2005.
- فوزي رشيد؛ قواعد اللغة السومرية. صفحات للدراسات والنشر، 2009.
- وليد الزريبي؛ السومرية اسم جامع لتشكّل اللغات الأفروآسيوية،حفريات جديدة تعيد ترتيب الذاكرة الإنسانية، القدس العربي، 7 نوفمبر 2008.
John A. Halloran; The Proto-Sumerian Language Invention Process. https://sumerian.org/prot-sum.htm

المهد العربي

تتبُّع آثار الميتوكوندريا في نشأة سلالات العالم القديم

إعداد:

فيرونيكا فرنانديز Vero´nica Fernandes[2،1]
فريدة الشمالي Farida Alshamali[3]
ماركو ألفيس Marco Alves[1]
مارتا د. كوستا Marta D. Costa[2، 1]
جوانا ب. بيريرا Joana B. Pereira[2، 1]
نونو م. سيلفا Nuno M. Silva[1]
لطفي الشارني Lotfi Cherni[5، 4]
نور الدين الحارش Nourdin Harich[6]
فيكتور سيرني Viktor Cerny[8، 7]
بيدرو سواريس Pedro Soares[1]
مارتن ريتشاردز Martin B. Richards[11، 9، 2]
لويزا بيريرا Luı´sa Pereira[11، 10، 1]

ترجمة: مأمون الزائدي

---

1. Instituto de Patologia e Imunologia Molecular da Universidade do Porto, Porto 4200-465, Portugal; 2. Faculty of Biological Sciences, Institute of Integrative and Comparative Biology, University of Leeds, Leeds LS2 9JT, UK; 3. General Department of Forensic Sciences and Criminology, Dubai Police General Headquarters, Dubai 1493, United Arab Emirates; 4. Laboratory of Genetics Immunology and Human Pathology, Faculty of Sciences of Tunis, Tunis 2092, Tunisia; 5. Higher Institute of Biotechnology of Monastir, Monastir 5000, Tunisia; 6. Laboratoired'Anthropoge´ne´tique, De´partment de Biologie, Universite´ Chouaı¨b Doukkali, El Jadida 24000, Morocco; 7. Department of Anthropology and Human Genetics, Faculty of Science, Charles University, Prague 128 43, Czech Republic; 8. for Advanced Study, Paris 75648, France; 9. School of Applied Sciences, University of Huddersfield, Queensgate, Huddersfield, HD1 3DH, UK; 10. Faculdade de Medicina da Universidade do Porto, Porto 4200-319, Portugal;

11. These authors contributed equally to this work.

(*) Correspondence: lpereira@ipatimup.pt

DOI 10.1016/j.ajhg.2011.12.010. 2012

تقديم

على نحو حصري قامت مجلة «آجال» بطلب الإذن بترجمة هذا البحث من مصدره المشار إليه أدناه، وقد تولى الاستاذ مأمون الزائدي هذه المهمة باقتدار.

أعدّ هذه الورقة العلمية التحليلية الفريدة اثنا عشر باحثاً من جامعات ومؤسسات علمية وأكاديمية من البرتغال وبريطانيا والإمارات وتونس والمغرب وجمهورية التشيك وفرنسا، ونُشرت في المجلة الأمريكية لعلم الوراثة البشرية، بعنوان:

The Arabian Cradle: Mitochondrial Relicts of the First Steps along the Southern Route out of Africa. (The American Journal of Human Genetics 90, 347–355, 2012).

وكان الباحثون قد بدؤوا عملهم بدعم من مؤسسة العلوم والتكنولوجيا البرتغالية (FCT)، وعدة مُنح شخصية وعامة، بالإضافة إلى جهود أخرى مكمّلة قدمها باحثون ومتخصصون من دول عديدة.

اعتمدت الورقة في الأساس على بيانات أولية من بنك المعلومات الجينية في الولايات المتحدة، ثم أجرى الباحثون تطبيقات حقلية كان عمادها مسح البيانات الخاصة بـ 32812 فرداً لتحليل الحمض النووي وتحديد المورثات الجينية.

إن الهدف الأساسي الذي يتجه إليه تركيزنا في هذه الورقة هو مدى توافق نتائجها في ما يتعلق بشمال أفريقيا والشرق الأدنى مع التوجّه البحثي في مجلة «آجال» ودعوتها الأساسية إلى إعادة قراءة التاريخ الأفروآسيوي العربي القديم) بوصفه حراكاً اجتماعياً ولغوياً متصلاً ودائماً بين الحوضين الآسيوي (شبه جزيرة العرب والهلال الخصيب) والأفريقي (شمال أفريقيا الكبرى) منذ انحسار العصر الجليدي الأخير.

ولعل أهم ما يمكن استخلاصه من هذه الورقة في هذا السياق، هو المسار العام التالي:

«أثبتت الورقة أن شبه الجزيرة العربية كانت مهداً سلالياً نمطياً، وأنها تشترك مع بلاد الشام وشمال أفريقيا وشرقها في نتائج تسلسل الحمض النووي للميتوكوندريا، وخلص الفحص إلى أن تسلسل الترددات والتنوعات الجينية متشابه بين هذه المناطق انطلاقاً من شبه الجزيرة العربية، وأن جنوب غرب شبه الجزيرة العربية كان ممراً للهجرات غرباً، أي إلى شمال أفريقيا. وبشكل عام فإن جنوب غرب آسيا كان بمثابة خزان للانتشار في أزمنة مختلفة نحو شمال إفريقيا عبر بلاد الشام وعبر البحر الأحمر».

عبدالمنعم يوسف اللموشي

***

هناك سؤال رئيسي لم تتم الإجابة عنه يخص توزّع وانتشار البشر المعاصرين حول العالم ويتعلق بالموقع الجغرافي لخطوات البشر الأولى خارج أفريقيا. يتوقّع نموذج «الطريق الساحلي الجنوبي» بأن المراحل المبكرة من الانتشار حدثت عندما عبر البشر البحر الأحمر إلى جنوب شبه الجزيرة العربية، لكن الأدلة الجينية بقيت ضعيفة حتى الآن. لقد تناولنا هذه المسألة من خلال تحليل المجموعات الفردانية [السلالية][2] الثلاث من غرب أوراسيا، N1 وN2 وX. وتتفرع هذه الخطوط السلالية مباشرة من أول عقدة مؤسس غير أفريقية، وهي جذر المجموعة الفردانية N، وتتّحد مع وقت أول انتقال ناجح قام به الإنسان الحديث خارج أفريقيا، منذ حوالي 60 ألف سنة. وقد قمنا بإجراء تسلسل جينومات الحمض النووي للميتوكوندريا الكاملة من 85 عينة من جنوب غرب آسيا تحمل هذه المجموعات الفردانية، وقارناها بقاعدة بيانات تضم 300 عينة أوروبية. أظهرت النتائج أن هذه المجموعات الفردانية لها توزيع بقايا يشير إلى وجود أصل قديم داخل شبه الجزيرة العربية، ومن المرجح أنها انتشرت من منطقة واحة الخليج نحو الشرق الأدنى وأوروبا خلال العصر المطير منذ 24-55 ألف سنة. يشير هذا النمط إلى أن شبه الجزيرة العربية كانت بالفعل أول نقطة انطلاق لانتشار البشر الحديثين حول العالم.

كان التركيز الجيني والأثري على شبه الجزيرة العربية في السنوات القليلة الماضية مدفوعاً بفرضية مفادها أن هذه المنطقة كانت على الأرجح نقطة انطلاق أولية للهجرة الناجحة الأولى للبشر الحديثين تشريحياً من إفريقيا.[1،3] تشير بيانات الحمض النووي للميتوكوندريا إلى أن الأشخاص الذين يحملون المجموعة الفرعية L3 هاجروا من القرن الإفريقي[4،5] وتشير الأدلة الحديثة من التسلسلات الكاملة وتقنيات التأريخ الجزيئي المحسنة إلى أصل L3 داخل إفريقيا منذ حوالي 60-70 ألف سنة.[6]

السؤال الرئيسي هو: أين تطورت L3 إلى مجموعتين فرديتين غير أفريقيتين N وM؟ تشمل N وM، معاً، كل التنوع العميق الجذور الذي لوحظ في بقية العالم.[4] المجموعة

2. المجموعة الفردانية أو المجموعة الفردية أو المجموعة العرقية أو الهابلوغروب (Haplogroup) النمط الفرداني هي مجموعة من الجينات في كائن حي يتم توارثها معاً من أب واحد. المترجم

الفردية N وفرعها الرئيسي، المجموعة الفرعية R، منتشرة في غير الأفارقة وبالتالي لابد أنها تطورت في وقت مبكر جداً من عملية الانتشار. من ناحية أخرى، توجد المجموعة الفرعية M بشكل أساسي في شبه القارة الهندية وأبعد من ذلك في الشرق ولديها فرع فردي واحد هو M1 الذي انتشر مرة أخرى إلى منطقة البحر الأبيض المتوسط وشرق إفريقيا خلال العصر البلستوسيني المتأخر.[7] وقد تم تقدير عمر مؤسس المجموعة الفرعية N في غرب أوراسيا بحوالي 50-65 ألف سنة،[8] وهو قريب جداً من عمر فرع L3 الأصلي في إفريقيا، مما يشير إلى أن عملية ديموغرافية واحدة مستمرة قد تفسر كلا من التنوع والتوسع الأولي للمجموعة L3 في شرق إفريقيا وخروج البشر الحديثين من إفريقيا.[6] ومن المرجح أن تكون هذه العملية مرتبطة بظروف مناخية محسّنة بعد حوالي 70 ألف سنة مضت في شرق إفريقيا، وتتناقض مع الاقتراح الأخير باستمرارية السكان في شرق شبه الجزيرة العربية منذ حوالي 120 ألف سنة.[9، 10]

بالمعنى الدقيق للكلمة، ربما نشأت المجموعتان الفرعيتان N وR في أي مكان في المنطقة الواقعة بين جنوب غرب آسيا وأستراليا؛ توجد فروع أساسية في هذه المنطقة اليوم.[1، 5] ومع ذلك، نظراً لنشأة L3 في شرق إفريقيا، فإن الموقع الأكثر اقتصاداً لأصلها يقع في محيط شبه الجزيرة العربية.[3، 5] وصل البشر الحديثون إلى الشرق الأدنى منذ حوالي 45-50 ألف سنة،[11] على الأرجح نتيجة لحاجز الصحراء حتى التحسن المناخي منذ حوالي 50 ألف سنة.[1، 3، 7، 12]

بصرف النظر عن المجموعة الفرعية R المنتشرة على نطاق واسع، فإن الفروع الأعمق في غرب أوراسيا هي الأعضاء في غير مجموعة R، والتي نشير إليها للتبسيط باسم N (xR)، للمجموعة الفرعية N. يتألف هؤلاء الأعضاء من ثلاث مجموعات أساسية، المجموعات الفرعية N1 وN2 وX. تشمل المجموعات الفرعية N (xR) الأخرى N5 في جنوب آسيا، وN9 وA في شرق آسيا،[13، 14] N21 وN22 في جنوب شرق آسيا،[1] وO وS في أستراليا.[15] من خلال فحص السكان الهنود والإيرانيين، خلص ميتسبالو وآخرون.[13] إلى أن الانقسام الأولي بين المجموعات الفردية الغربية والشرقية الأوراسية حدث بين وادي السند وجنوب غرب آسيا.

المجموعات الفردية N1 (بما في ذلك I) وN2 (بما في ذلك W) وX من غرب أوراسيا

نادرة للغاية، ولها توزيعات غير منتظمة عبر أوراسيا،[16] ولم تتم دراستها حتى الآن إلا بشكل ضئيل نسبياً. ولعل الاكتشاف الأكثر أهمية هو العثور على المجموعة الفردية N1a في كلا من الكثرة والتنوع العالي في الهياكل العظمية من العصر الحجري الحديث من أوروبا الوسطى.[17] يشير التسلسل الكامل للعينات الحديثة إلى أنه على الرغم من أن أصل هذه المجموعة هو جنوب غرب آسيا، إلا أن العديد من المصادر ربما ساهمت في تسلسلات العصر الحجري الحديث، بما في ذلك الشرق الأدنى وأوروبا الشرقية ومصدر محلي في أوروبا الوسطى.[18] كما أن المجموعة الفردية N1b نادرة جداً، ولكن هناك فرع فردي واحد، هو N1b2، شائع جداً بين اليهود، وقد تم اقتراح أصل شرقي وتأثير مؤسس في أسلاف الأشكناز.[19-21] انتشرت المجموعة الفردية X على نطاق واسع في وقت الذروة الجليدية الأخيرة (LGM)، ويظل وجودها بين الأمريكيين الأصليين محيراً لأن سلالات X السيبيرية القليلة التي تم تحديدها ليست أسلافاً معقولة للفرعيين الأمريكيين الأصليين X2a و X2g.[22، 23] مؤخرًا، اقترح شلوش وآخرون[24] أن المجموعة الفرعية X تعرض توزيعاً متبقياً عبر الشرق الأدنى، حيث تصل إلى تكرارات ملحوظة وتنوعات عالية. تشير هذه التوزيعات إلى أصل من الشرق الأدنى، والذي من شأنه أن يمثل ملجأً معاصراً أو خزاناً للتنوع القديم.

هنا، نصف تنوع 85 تسلسلاً كاملاً من الحمض النووي للميتوكوندريا من المثلث الذي يضم شرق إفريقيا والجزيرة العربية والشرق الأدنى في سياق 300 سلالة متاحة بشكل عام وهي أوروبية إلى حد كبير.[25] ونوضح أن المجموعات الفردية N1 وN2، بالإضافة إلى المجموعة الفردية X، هي بقايا قديمة لانتشار البشر المعاصرين من إفريقيا منذ حوالي 60 ألف سنة ويمكن أن توفر نظرة ثاقبة للمراحل الأولى من العملية.

لقد وصفنا سابقاً تنوع الحمض النووي للميتوكوندريا في السكان من شرق إفريقيا (102 من السودان، و77 من إثيوبيا، و148 من الصومال)،[6] وشبه الجزيرة العربية (185 من اليمن،[26] و65 من سقطرى،[27] و249 من دبي)،[28] وشمال إفريقيا (81 من المغرب[29] و304 من تونس)،[30] والشرق الأدنى والقوقاز.[16] قمنا بتسلسل الأجزاء شديدة التغير I و II (HVS-I و HVS-II) في عينات مختارة من هذه المجموعات من البيانات وقمنا بتعيينها إلى مجموعات فردية. ثم قمنا باختيار 85 نمطاً وراثياً تنتمي إلى المجموعة الفرعية N(xR)

في تسلسل الحمض النووي للميتوكوندريا الكامل، وقمنا بتسلسلها كما هو موضح سابقاً،[31] وسجلنا الطفرات نسبة إلى تسلسل كامبريدج المرجعي المنقح.[32] تمت الموافقة على العمل من قبل لجنة أخلاقيات كلية العلوم البيولوجية في جامعة ليدز ولجنة الأخلاقيات بجامعة بورتو (11/CEUP/2011).

بالنسبة إلى الحمض النووي للميتوكوندريا الكامل (الجدول S1)، استخدمنا ما مجموعه 385 تسلسلاً من N1 و N2 و X (85 جديداً و 300 منشوراً) في إعادة بناء الشجرة. وقد استخدمنا أيضاً تسلسلات HVS-I المنشورة وتسلسلات N1 وN2 وX الكاملة للمقارنة، على الرغم من الحاجة إلى توخي الحذر الشديد عند تفسير بيانات HVS-I بسبب المستوى المنخفض من المعلومات التي تحتوي عليها والتشابهات، والتي يمكن أن تحجب الأنماط الجغرافية.[24] لقد قمنا بتحليل ما مجموعه 2362 تسلسل HVS-I N(xR) من نتائج إجمالي 32812 فرداً تم مسح بياناتهم (الجدول S2) وصنفناهم بمساعدة PhyloTree.[33]

لإعادة بناء شجرة التطور، أدت تحليلات الشبكة المتوسطة المختصرة الأولية[34] إلى ترتيب تفرع مقترح للأشجار، هو والذي قمنا بعد ذلك ببنائه يدوياً بأقل قدر من التوفير، لتقدير الوقت المستغرق حتى ظهور أحدث سلف مشترك (TMRCA) لسلالات محددة في شجرة التطور، استخدمنا إحصاء ρ [35] وأقصى احتمال (ML) كما هو موضح سابقاً.[8] من أجل الكشف عن نمو السكان المرتبط بالسلالات N(xR)، حصلنا على مخططات أفق بايزية (BSPs)،[36، 37] من BEAST 1.4.6 [38] في إجمالي 363 تسلسلًا كاملاً (تركنا ممثلاً واحداً فقط لمجموعات الفردية الأمريكية الأصلية X2a1 وX2a2 لتجنب إشارة التوسع الأمريكي)، مع مؤقتة جزيئية حرّة كما هو موضح سابقاً.[6، 39] وقد أنشأنا مخططات أفق بايزية لكل من السلالات الفرعية والمناطق الفرعية الرئيسية وتصورنا المخططات باستخدام Tracer v1.3. كان لدينا هدفان في إجراء هاتين المجموعتين الفرعيتين من التحليلات. أولاً، كنا نهدف إلى التمييز بين المجموعات الفردية المسؤولة بشكل أساسي عن الزيادات في أحجام السكان الفعالة التي لوحظت في التحليل الإجمالي لـ N(xR)؛ ثانياً، كنا نهدف إلى ملاحظة ما إذا كانت منطقة معينة تحتوي على إشارة الى زيادة سكانية معينة في تسلسلات N(xR) الخاصة بها. تشير مثل هذه الإشارة إلى توسّع محتمل يشمل العديد

Table S2. Hypervariable region I (HVS-I) sequences used for comparison purposes. Numbers in columns for haplogroups are frequencies. Populations in red were only used in the phylogenetic reconstruction.

Code	Geographic region/ethnicity	Sub-region	Country/ethnicity	n	Haplogroup I	Haplogroup N1a	Haplogroup N1b	Haplogroup N1c	Haplogroup N2a	Haplogroup W	Haplogroup X	References
AEA	East Africa	East Africa	Ethiopia	347	0.0000	0.0029	0.0000	0.0000	0.0115	0.0029	0.0086	25; 26
AEA	East Africa	East Africa	Kenya	138	0.0000	0.0051	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	27; 28
AEA	East Africa	East Africa	Somalia	148	0.0068	0.0068	0.0068	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	28
AEA	East Africa	East Africa	Sudan	178	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	0.0056	0.0000	28; 29
AEA	East Africa	East Africa	Tanzania	100	0.0000	0.0100	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	30
ANA	Anatolia	Anatolia	Turkey	448	0.0156	0.0000	0.0194	0.0041	0.0000	0.0201	0.0335	31; 32; 33; 34; 35
ANA	Near East	Anatolia	Kurd (Turkey, Georgia)	149	0.0250	0.0000	0.0087	0.0121	0.0063	0.0300	0.0062	31; 36; 37
ANC	North Africa	Cyrenaica	Libya	398	0.0025	0.0031	0.0050	0.0031	0.0000	0.0000	0.0151	38; 39
ANE	North Africa	Northeast Africa	Egypt	594	0.024	0.0067	0.0256	0.0000	0.0000	0.0067	0.0255	4; 29; 40; 41; 42
ANW	North Africa	Northwest Africa	Algeria	47	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	43
ANW	North Africa	Northwest Africa	Morocco	1014	0.061	0.0000	0.0039	0.0000	0.0000	0.0079	0.02367	42; 43; 44; 45; 46; 47; 48
ANW	North Africa	Northwest Africa	Tunisia	511	0.0086	0.0000	0.0137	0.0000	0.0000	0.0036	0.0073	40; 46; 49; 50; 51
ANW	North Africa	Northwest Africa	Western Sahara	36	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	0.0557	45
ARC	Arabian Peninsula	Arabia Central	Saudi Arabia	535	0.009	0.004	0.012	0.0131	0.0000	0.0383	0.0120	52; 53
ARE	Arabian Peninsula	Arabia East	Dubai	349	0.0086	0.0317	0.0317	0.0000	0.0000	0.0308	0.0071	54
ARM	Arabian Peninsula	Mesopotamia	Kuwait	381	0.0157	0.0051	0.0157	0.0184	0.0000	0.0157	0.0262	55
ARS	Arabian Peninsula	Southwest Arabia	Yemen	412	0.0022	0.0388	0.0044	0.011	0.0000	0.0066	0.0031	25; 31; 56; 57; 58
CAN	North Caucasus	North Caucasus	Balkaria-Kabardia	81	0.0000	0.0189	0.0000	0.0000	0.0052	0.0566	0.0377	31; 35
CAN	North Caucasus	North Caucasus	Caucasus	160	0.0000	0.0000	0.0097	0.0000	0.0000	0.0097	0.0485	59
CAN	North Caucasus	North Caucasus	Karachay-Cherkessia – NW Caucasus – Adygei Russia – Cherkess Israel	71	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	0.0282	0.0141	3; 31; 33
CAN	North Caucasus	North Caucasus	North Ossetia	231	0.013	0.0000	0.013	0.0000	0.0000	0.0316	0.0478	31; 35; 59
CAS	South Caucasus	South Caucasus	Abkhazia (Georgia)	37	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	35
CAS	South Caucasus	South Caucasus	Armenia	191	0.0000	0.0191	0.0052	0.0309	0.0000	0.0305	0.0262	31
CAS	South Caucasus	South Caucasus	Azerbaijan	48	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	31
CAS	South Caucasus	South Caucasus	Georgia	45	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	37
EAL	Europe	Alpine	Austria	176	0.0134	0.0051	0.0000	0.0000	0.0000	0.0113	0.0134	31; 121
EAL	Europe	Alpine	Switzerland	133	0.0131	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	0.0225	0.0037	60
EBR	Europe	British Isles	Ireland	266	0.0225	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	0.0098	0.0085	31; 61
EBR	Europe	British Isles	UK	3907	0.0388	0.0010	0.0013	0.0000	0.0018	0.0138	0.0269	31; 62
EIC	Europe	Iceland	Iceland	910	0.0225	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	0.010	0.0148	31; 63; 64
EMC	Europe	Med Central	Italy	1712	0.0158	0.0006	0.0123	0.0018	0.0000	0.0098	0.0098	31; 48; 65; 66; 67; 68; 69; 70
EME	Europe	Med East	Albania	102	0.0098	0.0098	0.0294	0.0000	0.0000	0.0098	0.0065	71
EME	Europe	Med East	Croatia	204	0.0196	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	0.0294	0.0098	69; 72
EME	Europe	Med East	Cyprus	91	0.033	0.0000	0.011	0.0000	0.0000	0.033	0.001	73
EME	Europe	Med East	Greece	706	0.0184	0.0042	0.0071	0.0014	0.0014	0.0284	0.0182	31; 71; 73; 74; 75
EME	Europe	Med East	Macedonia	308	0.0097	0.0000	0.0065	0.0000	0.0000	0.0325	0.036	71; 76
EME	Europe	Med East	Slovenia	212	0.0502	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	0.0239	0.0172	77; 78
EMW	Europe	Med West	Portugal	1012	0.0217	0.0019	0.0097	0.0000	0.0000	0.0131	0.0205	79; 80; 81; 82; 83
EMW	Europe	Med West	Spain	2062	0.0131	0.0000	0.0013	0.0000	0.0000	0.0112	0.0039	31; 48; 62; 83; 84; 85; 86; 87; 88; 89; 90-91
ENC	Europe	North-Central	Czech Republic	175	0.0114	0.0057	0.0000	0.0000	0.0000	0.0114	0.0114	31; 91
ENC	Europe	North-Central	Denmark	200	0.0348	0.030	0.0000	0.0000	0.0000	0.0050	0.0100	91
ENC	Europe	North-Central	Germany	1658	0.0104	0.0004	0.0006	0.0012	0.0000	0.0147	0.0131	31; 61; 94; 91; 96; 97
ENC	Europe	North-Central	Poland	882	0.0190	0.0023	0.0045	0.0023	0.0000	0.0351	0.0100	31; 98; 99
ENC	Europe	North-Central	Slovakia	719	0.0250	0.0016	0.0028	0.0000	0.0000	0.0231	0.0098	100; 101; 102
ENE	Europe	North-East	Estonia	288	0.0313	0.0313	0.0000	0.0000	0.0000	0.0301	0.0075	31; 103
ENE	Europe	North-East	Finland	481	0.0348	0.0048	0.0000	0.0000	0.0000	0.0254	0.0016	31; 104; 105
ENE	Europe	North-East	Latvia	413	0.048	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	0.0755	0.0156	105; 106
ENE	Europe	North-East	Lithuania	343	0.0531	0.0087	0.0146	0.0000	0.0000	0.0585	0.0024	105; 107
ENE	Europe	North-East	Russia	278	0.0290	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	0.0334	0.0087	31; 98; 108
ENE	Europe	North-East	Russia - Chuvashia	49	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	11
ENE	Europe	North-East	Russia - Karelia	594	0.0202	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	0.0185	0.0084	31; 103
ENE	Europe	North-East	Russia - Novgorod Oblast	117	0.0190	0.0084	0.0084	0.0000	0.0000	0.0191	0.0084	98
ENE	Europe	North-East	Russia - Volga-Finns	34	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	31
ENE	Europe	North-East	Ukraine	18	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	108
ENW	Europe	North-East	France	1285	0.0190	0.0023	0.0039	0.0000	0.0000	0.0195	0.0088	31; 41; 109; 110; 111
ESC	Europe	Scandinavia	Norway	300	0.0184	0.0068	0.0068	0.0031	0.0000	0.0184	0.0068	31; 112
ESC	Europe	Scandinavia	Sweden	814	0.0284	0.0012	0.0000	0.0000	0.0000	0.013	0.0126	31; 161; 113
ESE	Europe	South-East	Bosnia	144	0.0278	0.0000	0.0069	0.0000	0.0000	0.0139	0.0139	77
ESE	Europe	South-East	Bulgaria	138	0.028	0.0000	0.0072	0.0000	0.0000	0.0072	0.0145	11
ESE	Europe	South-East	Hungary	311	0.0284	0.0000	0.0095	0.0000	0.0000	0.0237	0.0142	114
ESE	Europe	South-East	Romania	900	0.0080	0.0017	0.0150	0.0000	0.0000	0.0300	0.0238	31; 71; 121
ESE	Europe	South-East	Serbia	104	0.0192	0.0096	0.0096	0.0000	0.0000	0.0177	0.0182	115
NEI	Near East	Iran	Iran	738	0.0257	0.0054	0.0081	0.0081	0.0108	0.0278	0.0257	31; 34; 116; 117; 118
NEL	Near East	Levant	Druze	415	0.0277	0.0000	0.0251	0.0046	0.0000	0.0092	0.1247	3; 24; 53
NEL	Near East	Levant	Israel	218	0.0139	0.0000	0.0556	0.0091	0.0000	0.0093	0.0185	3; 31
NEL	Near East	Levant	Jordan	142	0.0141	0.0000	0.0141	0.0000	0.007	0.007	0.0141	119
NEL	Near East	Levant	Syria	138	0.0000	0.0000	0.0172	0.0000	0.0000	0.0345	0.0088	31; 74
NEM	Near East	Mesopotamia	Iraq	167	0.018	0.0000	0.012	0.0000	0.0000	0.0000	0.006	31; 120
SAS	South Asia		Pakistan	139	0.0159	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	0.0423	0.0053	34; 121; 122
BED	Near East	Levant	Bedouin	87	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	3; 21
JAE	Ashkenazi Jews		Austria-Hungary	23	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	123
			Belarus	8	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	123
			Czech Republic-Slovakia	17	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	123
			Estonia	1	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	123
			France	45	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	123
			Germany	32	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	123
			Hungary	175	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	124
			Latvia	8	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	123
			Lithuania	90	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	123
			Moldavia	1	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	123
			Netherlands	20	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	0.0000	123

جدول S2: تسلسلات المنطقة I شديدة التغير (HVS-I) استخدمت لغرض المقارنة أو إعادة بناء التسلسل.

من المجموعات الفرعية داخل تلك المنطقة. لتصور المنطقة الجغرافية، وتوزيع N(xR) ومجموعاتها الفرعية، قمنا بإنشاء خرائط استيفاء لبيانات HVS-I باستخدام تمديد المحلّل المكاني (Spatial Analyst Extension) من ArcView الإصدار 3.2 كما هو موضح من قبل.[6، 39]

كما قمنا بإعادة بناء شبكات HVS-I، كل مجموعة على حدة، بين مواضع النوكليوتيدات 16,051 و16,400 ([32]) ومن أجل اكتشاف الهجرات من جنوب غرب آسيا إلى أوروبا وشمال إفريقيا، استخدمنا تحليل المؤسس لتسلسلات N(xR) ومعيارين (f1 وf2) لتحديد تسلسلات المؤسس.[6، 16] قمنا بمسح توزيع أعمار المؤسسين لكل منطقة وحددنا فترات زمنية متساوية تبلغ 200 عام لكل هجرة من 0 إلى 100 ألف سنة مضت.

يقدم الشكل (1) مخططاً تفصيلياً لثلاث مجموعات الفردية أساسية غرب أوراسيا ضمن N(xR) ويشير إلى الفروع الأولية مع الأعمار المقاسة مقابل تقديرات الاحتمال الأقصى (ML). تتجمع الخطوط السلالية عند حوالي 60 ألف سنة مضت، وهو تقدير معقول للمراحل المبكرة من الهجرة خارج إفريقيا في غرب أوراسيا، مع الأخذ في الاعتبار أنه منذ ما لا يقل عن 50 ألف سنة، كان البشر الحديثون موجودين بالفعل في جنوب شرق آسيا.[40] يظهر علم النشوء والتطور الكامل في الشجرة S1 ويتضمن تقديرات العمر التي تم الحصول عليها من الجينوم الكامل (r وML) والساعات التزامنية (ρ).

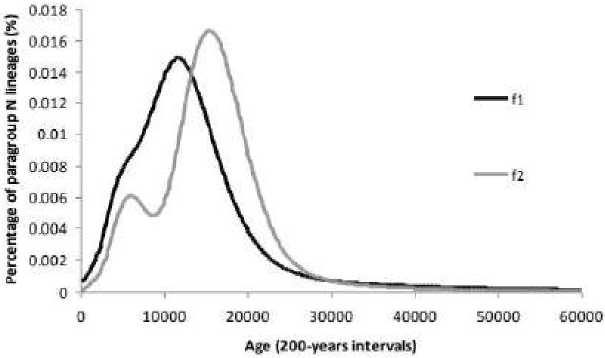
قبل التركيز بالتفصيل على تاريخ المجموعات الفرعية الثلاث، نلخص هنا النمط العام. بافتراض مصدر الشرق الأدنى والهجرات إلى أوروبا واستخدام قاعدة بيانات HVS-I الموسعة، حصلنا على النتائج التالية (الشكل S1):

(1) ذروة غير دقيقة منذ حوالي 12 ألف سنة مع معيار f1.

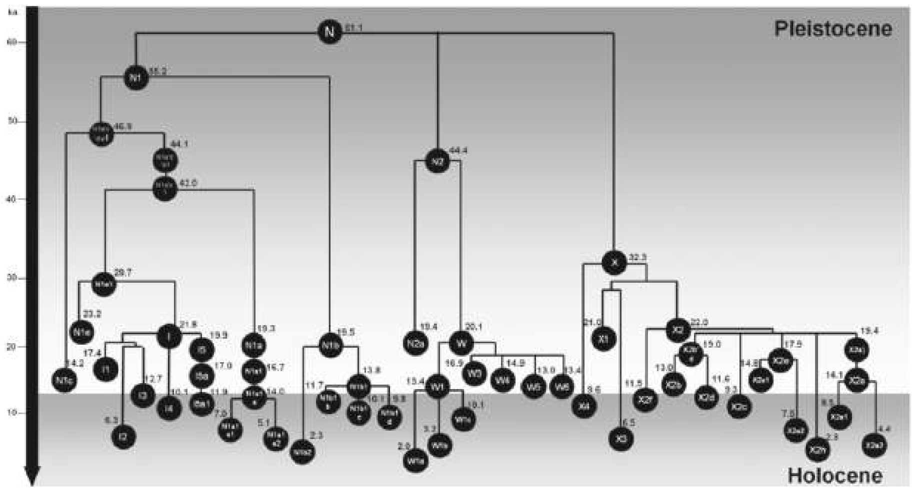
(2) ذروتين أخريين، واحدة صغيرة يرجع تاريخها إلى حوالي 6 آلاف سنة مضت وواحدة أكبر يرجع تاريخها إلى حوالي 15 ألف سنة مضت، مع معيار f2.

تشير هذه النتائج إلى أن المجموعات الثلاث مرتبطة في المقام الأول بالتوسعات الجليدية المتأخرة أو ما بعد الجليدية في أوروبا. كما أجرينا تحليلاً مؤسساً مشابهاً للمجموعات الثلاث من الشرق الأدنى إلى شمال إفريقيا، وحصلنا على ذروة واحدة، يرجع

تاريخها إلى 10.4 ألف سنة مضت وفقاً لمعيار f1 وإلى 13.8 ألف سنة مضت وفقاً لمعيار f2. تشير هذه القمم أيضاً إلى التوسع الجليدي المتأخر أو ما بعد الجليدي في المقام الأول في هذه المنطقة.



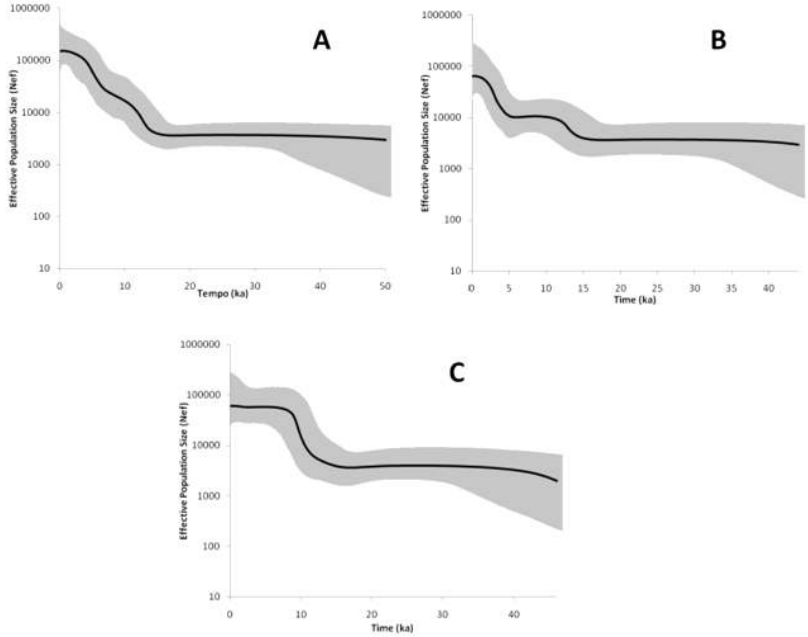
شكل S1: توزيع احتمالي لمجموعات المؤسسين في أوقات الهجرة التي تم مسحها على فترات 200 عام، من 0 إلى 60 ألف سنة، باستخدام معيار f1 (الخط الأسود) ومعيار f2 (الخط الرمادي) أثناء الهجرة من الشرق الأدنى إلى أوروبا.



الشكل 1: شجرة تخطيطية للمجموعة الفرعية N

الأزمنة المشار إليها هي التقديرات الأقصى احتمالاً التي أظهرها جينوم mtDNA الكامل (بالألف).

يظهر مخطط BSP الذي تم الحصول عليه من البيانات الإجمالية (الشكل S2A) زيادة مستمرة ومتدرجة قليلاً من ~15 ألف سنة مضت تقريباً إلى الوقت الحاضر (الجدول 1). يفصل مخطط BSP الذي يحتوي على البيانات الأوروبية فقط (الشكل S2B) بين خطوتين (حوالي 13 ألف سنة وحوالي 6 آلاف سنة مضت)، في حين يشير مخطط BSP لمجموعة الشرق الأدنى وشبه الجزيرة العربية (الشكل S2C) فقط إلى فترة زيادة، والتي كانت تدريجية في البداية، من حوالي 15 ألف سنة مضت.



شكل S2 : مخطط أفق بايزي الذي يشير إلى حجم السكان الفعلي الافتراضي عبر الزمن استناداً إلى البيانات من مجموعة إجمالي البيانات (A)، وأوروبا فقط (B)، والشرق الأدنى وشبه الجزيرة العربية والقوقاز (C).

إن المجموعة الوراثية النمطية N1، التي يبلغ عمرها حوالي 50-63 ألف سنة، هي أقدم سلف مشترك N(xR)، وربما نشأت في جنوب غرب آسيا وانقسمت في وقت مبكر إلى فرعين. الفرع الأول، N1a′c′d′e′I، يتألف من سلسلة من الفروع الفرعية (N1a، N1c،

N1d، N1e، I) التي يرجع تاريخها إلى 46-57 ألف سنة مضت، وقد عُثر عليها في جميع أنحاء جنوب غرب آسيا (بما في ذلك الشرق الأدنى وشبه الجزيرة العربية) وأوروبا، ولكن العديد من السلالات الأكثر بدائية داخل الفروع الفرعية كانت مقتصرة على جنوب غرب آسيا.

داخل N1a′c′d′e′I، توجد سلسلة من الانقسامات المتتالية. يمثل N1c الأقدم، حيث يبلغ عمره حوالي 47 ألف سنة، ويُرى بشكل أساسي في جنوب غرب آسيا، وخاصة في شبه الجزيرة العربية (الشكل 2د). ويتبعه N1d (لا تسمح العينة بالتأريخ)، والذي تم اكتشافه حتى الآن في الهند فقط. ثم انفصل N1a عن N1e′I منذ حوالي 42 ألف سنة مضت. يعود تاريخ N1a إلى حوالي 20 ألف سنة مضت، ومثله مثل N1c، فهو الأكثر شيوعاً في شبه الجزيرة العربية (الشكل 2ب). من المدهش أن هناك العديد من السلالات الإثيوبية والصومالية واليمنية ذات الجذور العميقة داخل N1a. إن الموضع في شجرة الطفرة عند الموضع 152 داخل N1a غامض؛ ومن المحتمل أن تنقسم هذه المجموعة الفرعية قبل المجموعة الرئيسية N1a، ولكن من المرجح (نظراً لتنوع المجموعة الفرعية، التي يرجع تاريخها إلى حوالي 15 ألف سنة مضت، مقارنة بعمر N1a الذي يبلغ حوالي 20 ألف سنة) أن تنقسم داخل N1a ويمكن الإشارة إليها باسم N1a2. على أية حال، تُظهر عينات N1a تنوعاً عميقاً داخل شرق إفريقيا والجزء الجنوبي من شبه الجزيرة العربية، وهما المكانان اللذان يكثر فيهما انتشار هذا الفرع، وربما يعكس تدفق الجينات القديمة (التي يرجع تاريخها على الأرجح إلى العصر الجليدي المتأخر) عبر البحر الأحمر.

تم العثور على المجموعة النمطية N1a1 بتكرار منخفض للغاية في جميع أنحاء أوروبا، حيث يعود تاريخها أيضًا إلى العصر الجليدي المتأخر (بين 16-20 ألف سنة مضت). تشير بيانات HVS-I أيضًا إلى دخول أوروبا في العصر الجليدي المتأخر (مع كل من معايير f1 وf2)، على الرغم من أن بعض السلالات (N1a1a1 وN1a1a2) ربما تكون قد توسعت محلياً في العصر الحجري الحديث، كما يتضح من وجود هذه السلالات بترددات عالية في مدافن العصر الحجري الحديث في أوروبا الوسطى.[17،18،41،42]

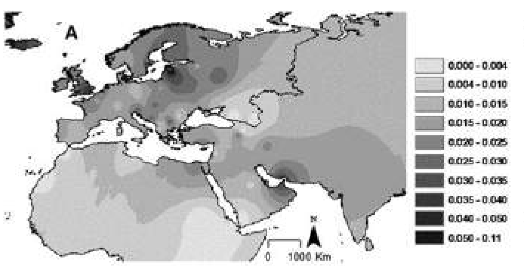
جدول 1: قمم معدل التغير في حجم السكان عبر الزمن كما تم الحصول عليها من خطط الإحصاء السكاني

البيانات	الذروة (ألف سنة)	المدى (ألف سنة)	الزيادات*
المنطقة			
الاجمالي	5.6; 12.63	1.78–14.67	42.49
الشرق الأدنى، القوقاز، شبه الجزيرة العربية	9.34	7.70–14.21	16.85
أوروبا	2.94	0.78–5.29	5.32
	12.80	11.18–14.72	2.71
المجموعة الفردية (النمطية)			
N1	3.60	1.51–6.06	20.05
	11.29	11.77–13.37	3.80
N2	6.29	3.15–10.11	19.99
N2**	7.81	4.59–11.22	3.70
X	6.36	4.49–8.30	5.71
	13.72	11.73–16.16	3.46

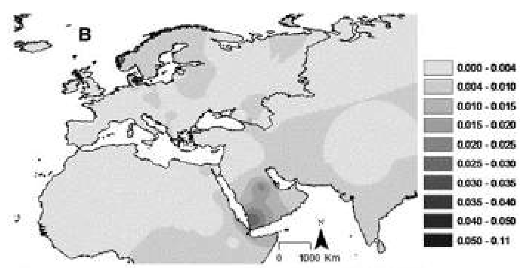
كان معدل زيادة حجم السكان فرداً واحداً على الأقل لكل 100 فرد في فترة 100 عام.

(*) يتوافق معدل الزيادة مع عدد المرات التي زاد فيها حجم السكان الفعلي خلال هذه الفترة

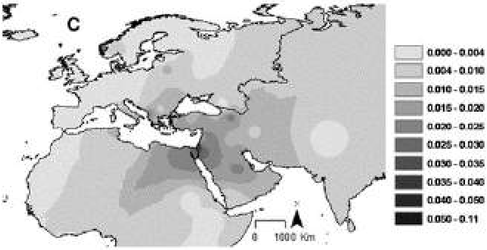
(**) بدون المجموعة النمطية W في فنلندا.



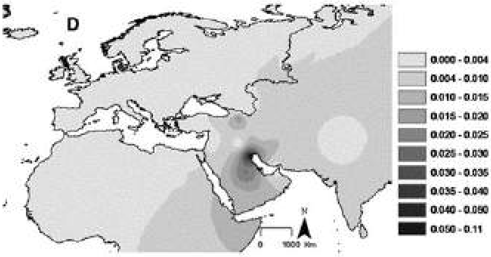
الشكل 2-أ: خرائط التكرار بناءً على بيانات HVS-I للمجموعة النمطية I.



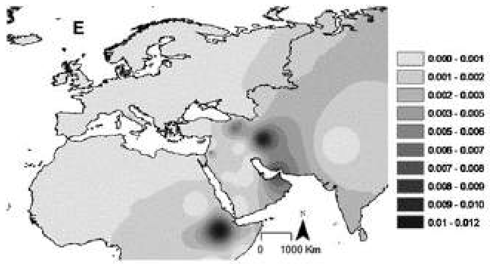
الشكل 2-ب خرائط التكرار بناءً على بيانات HVS-I للمجموعة النمطية N1a.



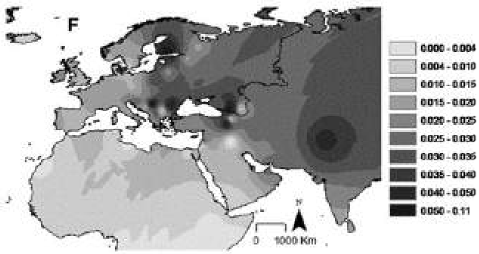
الشكل 2-ج: خرائط التكرار بناءً على بيانات HVS-I للمجموعة النمطية N1b.



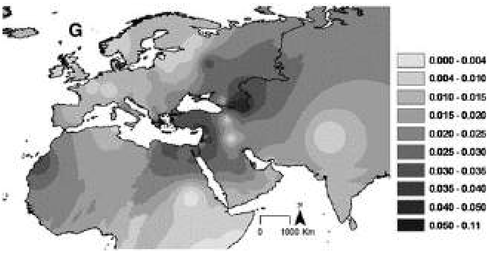
الشكل 2-د: خرائط التكرار بناءً على بيانات HVS-I للمجموعة النمطية N1c.



الشكل 2-هـ: خرائط التكرار بناءً على بيانات HVS-I للمجموعة النمطية N2a.



الشكل 2-و: خرائط التكرار بناءً على بيانات HVS-I للمجموعة النمطية W.



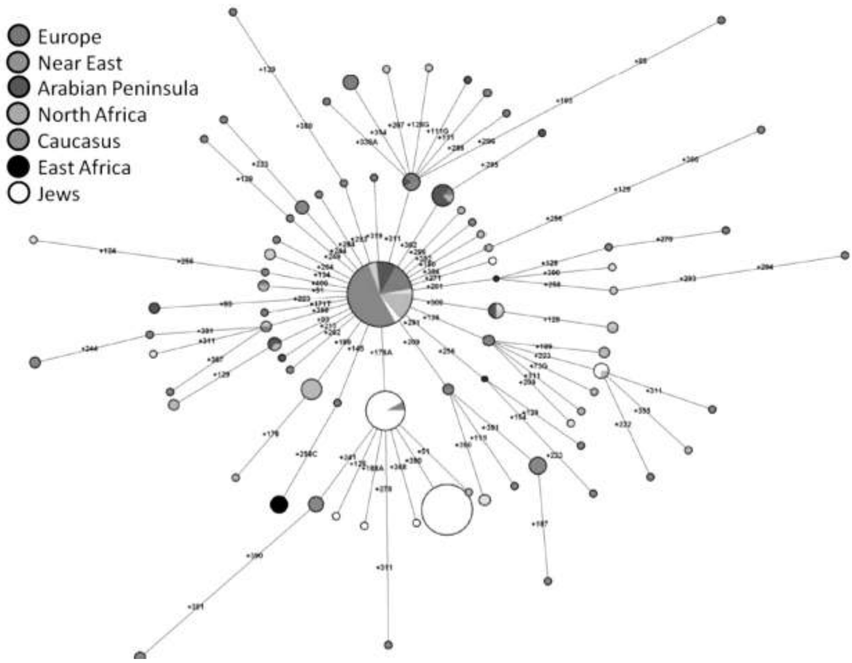
الشكل 2-ز: خرائط التكرار بناءً على بيانات HVS-I للمجموعة النمطية X.

وأخيراً، منذ حوالي 30 ألف سنة، انفصلت N1e عن المجموعة الفردية I. وتقع تسلسلات N1e الثلاثة في الشجرة في شبه الجزيرة العربية وروسيا. يعود تاريخ المجموعة الفرعية I، التي تعد إلى حد بعيد أكثر المجموعات تكراراً ضمن المجموعة N1، إلى حوالي 25 ألف سنة مضت وهي الأكثر تكراراً بشكل عام في أوروبا (الشكل 2أ)، لكن الحقائق التي تشير إلى أن لها ذروة تواتر في منطقة الخليج وأن أعلى قيم تنوع لها توجد في الخليج والأناضول وجنوب شرق أوروبا تشير إلى أن أصلها على الأرجح في الشرق الأدنى و/أو شبه الجزيرة العربية (الشكلان S4A وS5A). تُظهر المجموعة الفرعية I5a تأثير مؤسس ضيق حديثاً منذ حوالي ألفي سنة مضت على جزيرة سقطرى، وهي جزيرة تقع في خليج عدن واستوطنها البشر خلال العصر الهولوسيني.(27) يرجع تاريخ المجموعتين الفرعيتين I4 وI20I3، اللتين يرجع تاريخهما إلى 10-15 ألف سنة مضت، إلى أوروبا في الغالب. في تحليل المؤسس HVS-I، تشير المجموعة الفرعية I إلى توسع جليدي متأخر في المقام الأول، لكن المجموعة الفرعية I1a تبلغ ذروتها في العصر الحجري الحديث منذ حوالي 6 آلاف سنة مضت وفقاً لمعايير تحليل المؤسس. تم تأكيد هذا النمط من خلال شجرة التسلسل الكاملة ويشير مرة أخرى إلى التوسع من مصدر محتمل في الشرق الأدنى يعود تاريخه إلى حوالي 5 آلاف سنة مضت.

من ناحية أخرى، يعود تاريخ N1b إلى 19-25 ألف سنة مضت ويوجد بشكل أساسي في جنوب غرب آسيا. في الواقع، يعد N1b جزءاً من فرع أعمق، والذي نطلق عليه N1b′f، ويرجع تاريخه إلى 33-40 ألف سنة مضت. لقد وجدنا عينتين صوماليتين تشتركان في 8 من أصل 15 شكلاً متعدّداً مع N1b، مما يشير إلى انقسام أعمق بين N1b وهذه الخطوط السلالية في شرق إفريقيا، والتي وصفنا أنها تنتمي إلى N1f. ونظراً لتوزيع N1b، وN(xR) بشكل عام، فمن المحتمل أن N1f نتجت عن تدفق الجينات القديم بين شبه الجزيرة العربية والقرن الإفريقي.(43)

تحتوي N1b نفسها على ثلاثة فروع أساسية: N1b1 وN1b2 وفرع ثالث، وصفناه بـN1b3، وتمثله عينة واحدة من الأناضول. تم العثور على N1b2 بشكل أساسي في اليهود الأشكناز، ويشير عمره المقدر بحوالي ألفي سنة إلى تأثير مؤسس حديث بين أسلاف الأشكناز.(21) يعود تاريخ الفرع الفرعي الرئيسي، N1b1، إلى حوالي 13-14 ألف سنة مضت،

ويشمل العديد من الفروع من الشرق الأدنى وأوروبا (نادراً؛ بشكل أساسي في وسط وشرق أوروبا المتوسطية) والجزيرة العربية وشمال إفريقيا (الشكل 2ج). تشير أزمنة مؤسسي HVS-I في أوروبا إلى توسع في العصر الحجري الحديث في المقام الأول (حوالي 8 آلاف سنة مضت) وفقاً لمعيار f1 ولكنه توسع في العصر الجليدي المتأخر (حوالي 15 ألف سنة مضت) وفقاً لمعيار f2. ربما يكون هذا السيناريو الأخير أكثر معقولية نظراً لشبكة HVS-I (الشكل S3) ويشير إلى أن N1b2 تطور داخل أوروبا. كما تشير السلالات الفرعية الأوروبية في الغالب، والتي يرجع تاريخها إلى حوالي 10-13 ألف سنة مضت، إلى أن التوسع كان على الأرجح في فترة ما قبل العصر الحجري الحديث.



شكل S3: شبكة HVS-I للمجموعة النمطية N1b.

يظهر مخطط قاعدة البيانات الأساسي لـ N1 (الشكل S6A) زيادات كبيرة بين 1.5 و6.1 ألف سنة مضت وبين 8.8 و13.4 ألف سنة مضت (الجدول 1). تتوافق هذه الزيادات مع

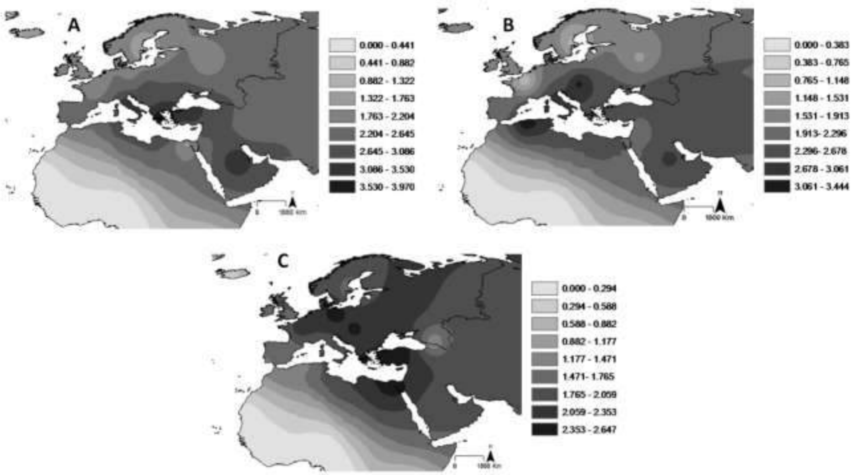
التوسعات المتسلسلة المستنتجة في العصر الحجري الحديث والعصر الجليدي المتأخر و/أو ما بعد الجليدية التي لوحظت في المجموعة الفرعية الأكثر شيوعاً I، ولكن أيضاً في N1a وN1b.

يعود تاريخ N2 إلى حوالي 44-50 ألف سنة مضت. أما التسلسلات الكاملة القليلة النادرة لـ N2a[44] فهي من أوروبا الشرقية والقوقاز، لكن قاعدة بيانات HVS-I تشير أيضاً إلى وجود طفيف في إيران والجزيرة العربية وإثيوبيا (الشكل 2-هـ). الفرع الفرعي الرئيسي من N2، المجموعة الفرعية W، أكثر تواتراً وانتشاراً من N2a (الشكل 2-و) ويصل إلى >10% تواتراً في بعض سكان شرق أوروبا (على سبيل المثال، يظهر تأثير مؤسس قوي في فنلندا منذ 2-3 آلاف سنة ولكن أيضاً في منطقة البحر الأسود)، لكنه أقل شيوعاً في الشرق الأدنى والجزيرة العربية. يعود تاريخ المجموعة الفرعية W إلى حوالي 20 ألف سنة مضت ولديها مؤشرات تنوع لـ HVS-I تبلغ ذروتها في جنوب شرق أوروبا وشمال غرب إفريقيا وشبه الجزيرة العربية (الشكلان S4B وS5B). تشير شبكة HVS-I إلى أن الأصل داخل أوروبا أمر معقول، نظراً لأن السلالات الشرق أوسطية تبدو متداخلة إلى حد كبير داخل فروع أوروبية في المقام الأول. تدعم شجرة التسلسل الكاملة هذا على نطاق واسع؛ هناك انقسام أولي بين W1، وهو أوروبي في الغالب ويعود تاريخه إلى حوالي 13 ألف سنة مضت، وفرع يضم W3-W6، وكلها ترجع إلى العصر الجليدي المتأخر. ولا يمكن التعرف على السلالات الرئيسية ضمن W على مستوى HVS-I، لذا نعتمد على شجرة التسلسل الكاملة لاستنتاجات جغرافية أكثر تفصيلاً.

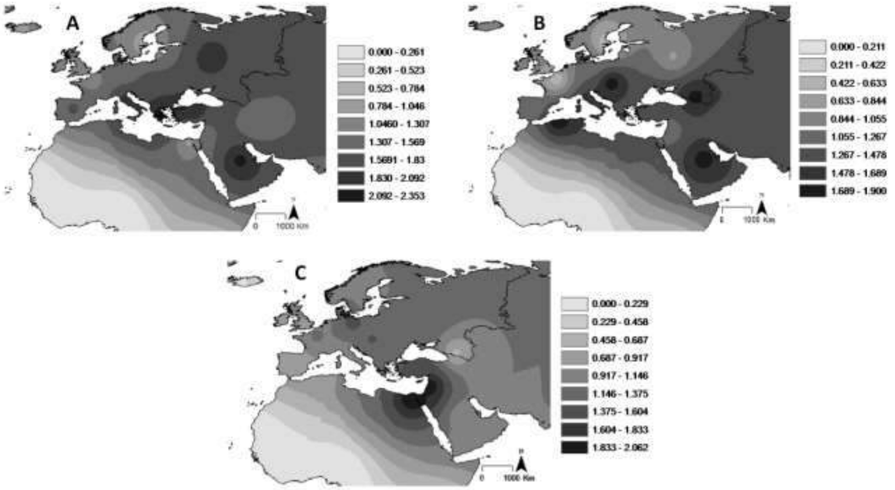
تتضمن السلالة الفرعية W306 التي يعود تاريخها إلى حوالي 20 ألف سنة مضت، بعض السلالات الاساسية من القوقاز والأناضول واليمن، مما يشير في هذه الحالة إلى مركز ثقل في الشرق الأدنى. تشير حقيقة أن السلالات الأساسية W3 وW4 وW6 في جنوب القوقاز والأناضول إلى هذه المناطق كمصدر للتنوع الأوروبي. المؤسسون المحتملون (في W4 وW6 وW3a وW3b) والسلالة الأوروبية يعود تاريخ مجموعة Pean W5 إلى حوالي 13 ألف سنة مضت، مما يشير إلى توسع العصر الجليدي المتأخر. تشير أعمار المؤسس لمجموعة W في مستوى HVS-I إلى ذروة عند 11.5 ألف سنة مضت مع معيار f1 وعند 14.8 ألف سنة مضت مع معيار f2.

يشير مخطط BSP لمجموعة N2 (الشكل S6C) إلى فترة توسع من 3 إلى 10 آلاف سنة مضت (الجدول 1). وبدون البيانات من المجموعة الفردية الفنلندية شديدة الانجراف W (الشكل S6D)، فإن ذروة التوسع تبلغ حوالي 8 آلاف سنة مضت (الجدول 1). تشير هذه الذروة إلى أنه على الرغم من أن المجموعة الفردية W بدأت توسعها خلال العصر الجليدي المتأخر، إلا أنها توسعت محلياً داخل أوروبا خلال العصر الحجري الحديث.

المجموعة الفردية X هي الأكثر شيوعاً في الشرق الأدنى (الشكل G2)، وتشير مؤشرات التنوع (الشكلان S4C وS5C) بوضوح أيضاً إلى الشرق الأدنى كنقطة أصلها. يرجع تاريخه إلى حوالي 30 ألف سنة مضت، ويتوافق TMRCA مع الانقسام بين X4 النادر جداً (عينتان فقط من الأناضول وأرمينيا) والفصائل المتبقية. يؤدي الانقسام الرئيسي الثاني إلى X1 وX3 وX2. يقتصر X1 إلى حد كبير على الشرق الأدنى وشمال شرق إفريقيا (من قاعدة بيانات HVS-I). لا يمكن التعرف على X3 على مستوى HVS-I، لكن شجرة التسلسل الكاملة تشير إلى توزيع متوسطي مماثل.



شكل S4 : خرائط التوزيع الخاصة بمقياس التنوع ρi استناداً إلى بيانات HVS-I للمجموعات النمطية I (A)، W (B)، X (C).



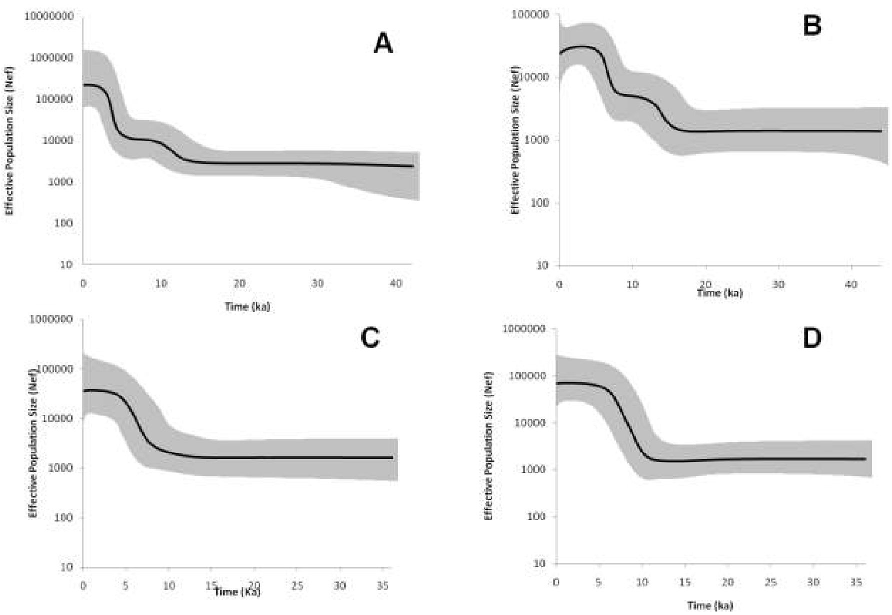
شكل S5: خرائط التوزيع الخاصة بمقياس التنوع ρ استناداً إلى بيانات HVS-I للمجموعات النمطية I (A)، W (B)، X (C).

إن المجموعة الفرعية X2 هي إلى حد بعيد أكثر الفروع انتشاراً وتكراراً. وتقتصر فروعها الأساسية (بما في ذلك X2f) إلى حد كبير على الشرق الأدنى والقوقاز وشمال إفريقيا، لكن الفرع الفرعي الرئيسي لـ X2، المحدد من خلال انتقال عند الموضع 225 في HVS-II، يشمل فروعاً فرعية خاصة بالشرق الأدنى وشمال إفريقيا وأوروبا، بالإضافة إلى الفرع الفرعي X2a، والذي يُعرف بأنه مقتصر على الأمريكيين الأصليين. ربما يكون جذر X2+225 هو التسلسل المؤسس الرئيسي لعمليات الانتشار التي تشمل المجموعة الفرعية X، وعمره الذي يبلغ حوالي 21 ألف سنة يوفر حدًا أعلى لوقت هذه التشتتات.(45) ومن السمات الغريبة للشجرة الارتباط المحتمل بين X2a والفرع الشمالي الأفريقي X2j من خلال طفرة في الموضع 12,397. ومع ذلك، قد تكون هذه الطفرة عوداً؛ ويبدو أن X2j حديثة للغاية. يشير X2g النادر، والذي يوجد أيضاً فقط في الأمريكيين الأصليين، إلى أن الانتشار من الشرق الأدنى نحو الأمريكتين ربما بدأ في وقت مبكر من ظهور الفرع X2+225، نظرًا لأنه ربما كان التسلسل المؤسس الوحيد.

من المرجح أن يكون أصل X2b0d وX2c أوروبيًا؛ يعود تاريخ الأول إلى حوالي 20 ألف سنة مضت والأخير إلى حوالي 9 آلاف سنة مضت (على الرغم من أن العمر الأدنى قد يشير

فقط إلى التوسع داخل أوروبا). إن التسلسل المؤسس بين الشرق الأدنى وأوروبا هو مرة أخرى جذر X2+225، مما يشير إلى احتمال أن توسع هذا الفرع إلى أوروبا ونحو أمريكا نشأ من نفس العملية الأولية في الشرق الأدنى. ومع ذلك، فإن X2e2، الذي يعود تاريخه إلى حوالي 7 آلاف سنة مضت، ربما انتشر إلى أوروبا خلال العصر الحجري الحديث.

في أوروبا، يبلغ عمر مؤسس HVS-I للمجموعة الفرعية X ذروته عند حوالي 15 ألف سنة مع معيار f1 وعند 16.5 ألف سنة مع معيار f2، مما يشير إلى أن X، وخاصة X2+225، في أوروبا هو في المقام الأول نتيجة للتوسعات الجليدية المتأخرة. يشير مخطط الجينوم البشري (الشكل S6B) إلى زيادة بدأت في هذا الوقت تقريباً (الجدول 1) وزيادة إضافية في العصر الحجري الحديث، كما يشير تحليل السلالتين X2c وX2e2.



شكل S6: مخطط أفق بايزي الذي يشير إلى الحجم السكاني الفعال الافتراضي عبر الزمن بناءً على بيانات من المجموعات الفردانية (A) N1، (b) X، (C) N2، N2 بدون المجموعة النمطية W في الفنلنديين (D).

ورغم ندرتها الشديدة وتوزيعها غير المنتظم اليوم عبر غرب أوراسيا، فإن المجموعات الفردية N1 وN2 وX، إلى جانب المجموعة الفردية R الأكثر شيوعاً وانتشاراً، كانت أول من تفرع من سلفها الفردي L3 عندما ظهر البشر الحديثون من شرق إفريقيا. ويقدر عمر سلفهم المشترك، جذر المجموعة الفردية N، بحوالي 55-65 ألف سنة - وهو قريب جداً من الحد الأعلى للهجرة خارج إفريقيا كما حدده أصل L3 في شرق إفريقيا قبل 60-70 ألف سنة.[6] وهذا يشير إلى أن المجموعة الفردية N لها أصل خارج إفريقيا مباشرة، على الأرجح في شبه الجزيرة العربية. ربما كانت هذه المنطقة أيضًا مهدًا للمجموعة الفرعية R، التي يرجع تاريخها إلى حوالي 59 ألف سنة مضت.[14] وفي جنوب آسيا، نشأ فرع واحد جديد فقط من N(xR)، وهو N5؛ ويعد N5 نادراً للغاية وقد تم وصفه مؤخراً أيضاً في إيران،[46] مما يثير احتمالية نشأة هذا السلالة أيضاً في جنوب غرب آسيا. يوجد عدد أكبر من فروع N(xR) في شرق آسيا وجنوب شرق آسيا وأستراليا، مما يدل على أن N(xR) عبر بالتأكيد إلى هذه المنطقة، جنباً إلى جنب مع السلالات داخل R.

ويُعتقد أن الظروف القاحلة لمرحلة النظائر البحرية الرابعة (MIS 4؛ 60-75 ألف سنة مضت)، جنباً إلى جنب مع صحراء الربع الخالي وجبال عسير كحواجز رئيسية، أغلقت الممرات من شبه جزير العرب إلى بلاد الشام حتى حوالي 50 ألف سنة مضت.[9، 12] وهذا يمكن أن يفسر الانتشار الأسرع نحو جنوب آسيا مقارنة بأوروبا.[7] ومع ذلك، حتى خلال أكثر المراحل جفافاً، كانت هناك العديد من الملاجئ التي وفرت الغذاء والمياه العذبة في شبه الجزيرة العربية: حوض البحر الأحمر ومرتفعات عسير اليمنية، ومنطقة الساحل العربي الجنوبي الغربي (بما في ذلك حضرموت في اليمن وجنوب عمان)، وواحة الخليج.[9] وقد استمرت الأخيرة من 7,4-8 ألف سنة مضت وشكلت جنوب شرق شبه الجزيرة العربية. رأس الهلال الخصيب، بما في ذلك الحوض المكشوف للخليج العربي الفارسي. وقد شهدت الواحة فترة من التراجعات في الحواف الساحلية خلال فترات انخفاض مستوى سطح البحر والجفاف و شهدت توسعات الجرف المكشوف إلى المناطق الداخلية خلال فترات الأمطار (من 55 إلى 24 ألف سنة مضت خلال العصر الحجري القديم الثالث ومرة أخرى من 12 إلى 6 آلاف سنة مضت، بعد العصر الجليدي الأخير).[9]

يُظهِر وجود المواقع الأثرية في حوض الخليج أثراً مطولاً للاستيطان البشري.[9] ومع ذلك، لم يكشف عن تأثيرات ثقافية مباشرة من بلاد الشام أو أي تأثير أفريقي في الصخور الحجرية من العصر الحجري القديم العلوي (أواخر العصر البلستوسيني) التي لوحظت في شرق شبه الجزيرة العربية، مما يشير إلى تطور محلي للتقنيات الثقافية.[9، 47] ومع ذلك، من الغريب حقيقة أن بعض الفروع المدروسة هنا تشمل سلالات عميقة في شرق إفريقيا (المجموعات الفردية I وN1a وN1f) تُظهر أن الهجرة إلى إفريقيا حدثت عدة مرات بين 15 و40 ألف سنة مضت.

ويبدو أن واحة الخليج المفترضة[9] هي المكان الأكثر ترجيحاً لأقدم تفرع للمجموعة الفرعية N، بما في ذلك المجموعات الفرعية الأساسية N(xR) الثلاث المتبقية التي تمت دراستها هنا، بالإضافة إلى المجموعة الفرعية الأوراسية الرئيسية R. غالباً ما تكون تقديرات الوقت والترددات والتنوعات الجينية المبلغ عنها هنا لهذه المجموعات الفرعية متشابهة بين بلاد الشام وشبه الجزيرة العربية، مما يتحدى فرضية العزلة طويلة الأمد بين هاتين المنطقتين. ربما كانت المحميتان الأخريان اللتان تم تحديدهما في جنوب وجنوب غرب شبه الجزيرة بمثابة ممر للهجرات غرباً، عائدة نحو شرق إفريقيا. وقد أشار تنوع الكروموسوم Y في شبه الجزيرة العربية إلى أن دبي وعمان تشتركان في تقارب وراثي مع سكان الشرق الأدنى الآخرين، في حين تظهر المملكة العربية السعودية واليمن علامات عزلة أكبر (على الرغم من أن هذه الاختلافات قد تعكس وقائع أحدث زمناً بالنسبة إلى الكروموسومات الدقيقة سريعة التطور).[48]

على الرغم من ظهور الفروع الرئيسية لشجرة المجموعة الفرعية N منذ ما بين 32 و55 ألف سنة أثناء مرحلة الأمطار في العصر الجليدي الثالث، إلا أن هذه الفترات القديمة قد طغت عليها إلى حد كبير إشارات أقوى للتوسع في نهاية العصر الجليدي الأخير. وقد أدت هذه التوسعات الجليدية المتأخرة وما بعد الجليدية إلى تشتت العديد من المجموعات الفرعية داخل هذه المجموعات عبر منطقة جغرافية أوسع بكثير. تُظهِر جميع المجموعات النمطية التي تم تحليلها هنا علامات تشير إلى أن جنوب غرب آسيا شهد توسعات سكانية محلية من الملاجئ، ولكن جنوب غرب آسيا كان أيضاً بمثابة خزان للانتشارات نحو إفريقيا (إلى شمال إفريقيا عبر بلاد الشام وإلى شرق إفريقيا عبر البحر

الأحمر؛ على سبيل المثال، السلالات العميقة داخل N1a) وأوروبا. تتطابق توسعات N(xR) هذه مع الإشارات من العديد من سلالات المجموعة النمطية R داخل شبه الجزيرة العربية[49] ونحو إفريقيا.[49، 50]

هناك استثناء محتمل هو المجموعة النمطية W، داخل N2. ربما وصلت المجموعة النمطية W إلى أوروبا قبل العصر الجليدي الأخير، ولكن حتى بالنسبة للمجموعة النمطية W، فإن الإشارات الأكثر بروزاً هي مرة أخرى التوسعات الجليدية المتأخرة وما بعد الجليدية (بما في ذلك العصر الحجري الحديث). في الواقع، يُظهِر عدد من هذه الخطوط السلالية أدلة على التوسعات في العصر الحجري الحديث، ولكن هذه التوسعات كانت غالبًا من سلالات كانت موجودة بالفعل في أوروبا منذ نهاية العصر الجليدي. في حالة المجموعة الفرعية W، هناك أيضاً إشارة قوية للتوسع داخل أوروبا، إلى الشمال الشرقي منذ حوالي 1.5-4 آلاف سنة. ويبدو أن فرعين داخل N1a (N1a1a1 وN1a1a2)، تم اكتشافهما بترددات عالية في مدافن الفخار الخطّي (LBK (Linearbandkeramik، قد شاركا أيضاً في التوسعات المحلية في العصر الحجري الحديث في أوروبا الوسطى ولكن يبدو أن تواترهما قد تضاءل بشكل كبير لاحقاً.[17، 18] ومن الواضح أن سلالات أخرى، مثل I1a وX2e2، دخلت أوروبا من الشرق الأدنى خلال العصر الحجري الحديث، مما يشير إلى أن السلالات التي توجد الآن بترددات منخفضة فقط شاركت في انتشارات العصر الحجري الحديث من الهلال الخصيب. إن إحدى الإشارات الأكثر إثارة للاهتمام والغموض هي هجرة المجموعة الفرعية الرئيسية X2 ليس فقط عبر أوروبا وآسيا الوسطى ولكن أيضاً إلى أمريكا الشمالية.

وبينما يمكن اكتشاف حلقات مميزة من الانتشار والتوسع داخل أوروبا (وأمريكا أيضاً)، فإن التوسع الديموغرافي في جنوب غرب آسيا يبدو ظاهرةً مستمرة من العصر الجليدي المتأخر إلى العصر الحجري الحديث. ويتوافق هذا الدليل الجيني مع التفسيرات الأثرية لتوسع القرى النطوفية المستقرة في بلاد الشام خلال المرحلة الرطبة بين 15 و13 ألف سنة مضت. وقد أدى هذا التوسع إلى تقنيات الزراعة والتدجين في ظل الظروف الأكثر قسوة في العصر الحجري الحديث، وفي نهاية المطاف إلى ثقافات العصر الحجري الحديث في أوائل العصر الهولوسيني.[51]

إن الأدلة على أن العصر الحجري الحديث جاء إلى شبه الجزيرة العربية من الهلال الخصيب تشير إلى «فرضية بلاد الشام»، والتي تنص على وجود انقطاع سكاني كبير بين أواخر العصر البلستوسيني وأوائل العصر الهولوسيني في شبه الجزيرة العربية، وأن شبه الجزيرة العربية قد أعيد استيطانها من قبل شعب بلاد الشام في العصر الحجري الحديث قبل الفخار منذ حوالي 9-8 آلاف سنة.[52] تشير بياناتنا إلى أنه حتى لو كانت هناك عمليات تشتت من الشرق الأدنى إلى شبه الجزيرة العربية خلال العصر الحجري الحديث، فإن بعض السلالات، مثل R0a، من أصل شرقي أدنى تسبق انتشار العصر الحجري الحديث في شبه الجزيرة العربية،[49] ولكن عدداً من السلالات الأقدم بكثير ضمن N(xR) نجت، وإن كانت بترددات منخفضة. هذه السلالات، التي تشمل N1a2 وN1f، وربما أيضاً N1c وN1d وN1e، يرجع تاريخها إلى 15-55 ألف سنة مضت وتتحد مع أقدم سلالات mtDNA غير الأفريقية منذ حوالي 60 ألف سنة مضت. وبالتالي، فمن المرجح أنها بقايا أول مستوطنة بشرية حديثة في شبه الجزيرة العربية خلال المرحلة الأولى من الانتشار الساحلي الجنوبي من القرن الأفريقي إلى بقية العالم.

**

■ موارد الويب

عناوين URL للبيانات المقدمة هنا هي كما يلي:

- ArcView version 3.2, http://www.esri.com/software/arcgis/ arcview/ index.html
- Calculator for converting r values and ML estimates to age estimates,http://www.fbs.leeds.ac.uk/staff/Richards/Soares_mtDNA-rate_calculator.xls
- mtDNA-GeneSyn, http://www.ipatimup.pt/downloads/mtDNAGeneSyn.zip
- Network 4, http://www.fluxus-engineering.com/sharenet.htm

■ أرقام الوصول

أرقام الوصول في بنك المعلومات الوراثية (GenBank) للتسلسلات المذكورة في هذه الورقة هي JQ245723–JQ245807.

■ المراجع:

1. Macaulay, V., Hill, C., Achilli, A., Rengo, C., Clarke, D., Meehan, W., Blackburn, J., Semino, O., Scozzari, R., Cruciani, F., et al. (2005). Single, rapid coastal settlement of Asia revealed by analysis of complete mitochondrial genomes. Science 308, 1034–1036.
2. Thangaraj, K., Chaubey, G., Kivisild, T., Reddy, A.G., Singh,V.K., Rasalkar, A.A., and Singh, L. (2005). Reconstructing the origin of Andaman Islanders. Science 308, 996.
3. Oppenheimer, S. (2003). Out of Eden: The peopling of theWorld (London: Robinson Publishing).
4. Torroni, A., Achilli, A., Macaulay, V., Richards, M., andBandelt, H.-J. (2006). Harvesting the fruit of the human mtDNA tree. Trends Genet. 22, 339–345.
5. Richards, M., Bandelt, H.J., Kivisild, T., and Oppenheimer, S.(2006). A model for the dispersal of modern humans out of Africa. In Mitochondrial DNA and the evolution of Homo sapiens, H.-J. Bandelt, V. Macaulay, and M. Richards, eds. (Berlin: Springer-Verlag), pp. 225–265.
6. Soares, P., Alshamali, F., Pereira, J.B., Fernandes, V., Silva, N.M.,Afonso, C., Costa, M.D., Musilova, E., Macaulay, V., Richards, M.B., et al. (2012). The expansion of mtDNA haplogroup L3 within and out of Africa. Mol. Biol. Evol. Published online November 16, 2011. 10.1093/molbev/msr245.
7. Olivieri, A., Achilli, A., Pala, M., Battaglia, V., Fornarino, S.,Al-Zahery, N., Scozzari, R., Cruciani, F., Behar, D.M., Dugoujon, J.-M., et al. (2006). The mtDNA legacy of the Levantine early Upper Palaeolithic in Africa. Science 314, 1767–1770.
8. Soares, P., Ermini, L., Thomson, N., Mormina, M., Rito, T.,Ro¨hl, A., Salas, A., Oppenheimer, S., Macaulay, V., and Richards, M.B. (2009). Correcting for purifying selection: An improved human mitochondrial molecular clock. Am. J. Hum. Genet. 84, 740–759.
9. Rose, J.I. (2010). New light on human prehistory in the AraboPersian Gulf Oasis. Curr. Anthropol. 51, 849–883.
10. Armitage, S.J., Jasim, S.A., Marks, A.E., Parker, A.G., Usik, V.I.,andUerpmann, H.P. (2011). The southern route “out of Africa”: Evidence for an early expansion of modern humans into Arabia. Science 331, 453–456.
11. Shea, J.J. (2008). Transitions or turnovers? Climatically-forcedextinctions of Homo sapiens and Neandertals in the East Mediterranean Levant. Quat. Sci. Rev. 27, 2253–2270.
12. van Andel, T.H., and Tzedakis, P.C. (1996). Palaeolithic landscapes of Europe and environs, 150,000-25,000 years ago: An overview. Quat. Sci. Rev. 15, 481–500.
13. Metspalu, M., Kivisild, T., Metspalu, E., Parik, J., Hudjashov, G., Kaldma, K., Serk, P., Karmin, M., Behar, D.M., Gilbert, M.T., et al. (2004). Most of the extant mtDNA boundaries in south and southwest Asia were likely shaped during the initial settlement of Eurasia by anatomically modern humans. BMC Genet. 5, 26.
14. Soares, P., Achilli, A., Semino, O., Davies, W., Macaulay, V.,Bandelt, H.J., Torroni, A., and Richards, M.B. (2010). The archaeogenetics of Europe. Curr. Biol. 20, R174–R183.

15. Hudjashov, G., Kivisild, T., Underhill, P.A., Endicott, P.,Sanchez, J.J., Lin, A.A., Shen, P., Oefner, P., Renfrew, C., Villems, R., and Forster, P. (2007). Revealing the prehistoric settlement of Australia by Y chromosome and mtDNA analysis. Proc. Natl. Acad. Sci. USA 104, 8726–8730.
16. Richards, M., Macaulay, V., Hickey, E., Vega, E., Sykes, B.,Guida, V., Rengo, C., Sellitto, D., Cruciani, F., Kivisild, T., et al. (2000). Tracing European founder lineages in the Near Eastern mtDNA pool. Am. J. Hum. Genet. 67, 1251–1276.
17. Haak, W., Forster, P., Bramanti, B., Matsumura, S., Brandt, G.,Ta¨nzer, M., Villems, R., Renfrew, C., Gronenborn, D., Alt, K.W., and Burger, J. (2005). Ancient DNA from the first European farmers in 7500-year-old Neolithic sites. Science 310, 1016–1018.
18. Palanichamy, M.G., Zhang, C.L., Mitra, B., Malyarchuk, B.,Derenko, M., Chaudhuri, T.K., and Zhang, Y.P. (2010). Mitochondrial haplogroup N1a phylogeography, with implication to the origin of European farmers. BMC Evol. Biol. 10, 304.
19. Kivisild, T., Reidla, M., Metspalu, E., Rosa, A., Brehm, A.,Pennarun, E., Parik, J., Geberhiwot, T., Usanga, E., and Villems, R. (2004). Ethiopian mitochondrial DNA heritage: Tracking gene flow across and around the gate of tears. Am. J. Hum. Genet. 75, 752–770.
20. Behar, D.M., Metspalu, E., Kivisild, T., Achilli, A., Hadid, Y.,Tzur, S., Pereira, L., Amorim, A., Quintana-Murci, L., Majamaa, K., et al. (2006). The matrilineal ancestry of Ashkenazi Jewry: Portrait of a recent founder event. Am. J. Hum. Genet. 78, 487–497.
21. Behar,D.M.,Metspalu,E.,Kivisild,T.,Rosset,S.,Tzur,S.,Hadid,Y., Yudkovsky, G., Rosengarten, D., Pereira, L., Amorim, A., et al. (2008). Counting the founders: The matrilineal genetic ancestry of the Jewish Diaspora. PLoS ONE 3, e2062.
22. Reidla, M., Kivisild, T., Metspalu, E., Kaldma, K., Tambets, K.,Tolk, H.V., Parik, J., Loogva¨li, E.L., Derenko, M., Malyarchuk, B., et al. (2003). Origin and diffusion of mtDNA haplogroup X. Am. J. Hum. Genet. 73, 1178–1190.
23. Perego, U.A., Achilli, A., Angerhofer, N., Accetturo, M., Pala,M., Olivieri, A., Kashani, B.H., Ritchie, K.H., Scozzari, R., Kong, Q.-P., et al. (2009). Distinctive Paleo-Indian migration routes from Beringia marked by two rare mtDNA haplogroups. Curr. Biol. 19, 1–8.
24. Shlush, L.I., Behar, D.M., Yudkovsky, G., Templeton, A.,Hadid, Y., Basis, F., Hammer, M., Itzkovitz, S., and Skorecki, K. (2008). The Druze: A population genetic refugium of the Near East. PLoS ONE 3, e2105.
25. Pereira, L., Freitas, F., Fernandes, V., Pereira, J.B., Costa, M.D.,Costa, S., Ma´ximo, V., Macaulay, V., Rocha, R., and Samuels, D.C. (2009). The diversity present in 5140 human mitochondrial genomes. Am. J. Hum. Genet. 84, 628–640.
26. Cerny´, V., Mulligan, C.J., Rı´dl, J., Zaloudkova´, M., Edens, C.M., Ha´jek, M., and Pereira, L. (2008). Regional differences in the distribution of the sub-Saharan, West Eurasian, and South Asian mtDNA lineages in Yemen. Am. J. Phys. Anthropol. 136, 128–137.
27. Cerny´, V., Pereira, L., Kujanova´, M., Vası´kova´, A., Ha´jek, M., Morris, M., and Mulligan, C.J. (2009). Out of Arabia-the settlement of island Soqotra as revealed by mitochondrial and Y chromosome genetic diversity. Am. J. Phys. Anthropol. 138, 439–447.

28. Alshamali, F., Brandsta¨tter, A., Zimmermann, B., and Parson, W. (2008). Mitochondrial DNA control region variation in Dubai, United Arab Emirates. Forensic Sci. Int. Genet. 2, e9–e10.
29. Harich, N., Costa, M.D., Fernandes, V., Kandil, M., Pereira, J.B.,Silva, N.M., and Pereira, L. (2010). The trans-Saharan slave trade - clues from interpolation analyses and high-resolution characterization of mitochondrial DNA lineages. BMC Evol. Biol. 10, 138.
30. Cherni, L., Fernandes, V., Pereira, J.B., Costa, M.D., Goios, A.,Frigi, S., Yacoubi-Loueslati, B., Amor, M.B., Slama, A., Amorim, A., et al. (2009). Post-last glacial maximum expansion from Iberia to North Africa revealed by fine characterization of mtDNA H haplogroup in Tunisia. Am. J. Phys. Anthropol. 139, 253–260.
31. Pereira, L., Gonc¸alves, J., Franco-Duarte, R., Silva, J., Rocha, T.,Arnold, C., Richards, M., and Macaulay, V. (2007). No evidence for an mtDNA role in sperm motility: Data from complete sequencing of asthenozoospermic males. Mol. Biol. Evol. 24, 868–874.
32. Andrews, R.M., Kubacka, I., Chinnery, P.F., Lightowlers, R.N.,Turnbull, D.M., and Howell, N. (1999). Reanalysis and revision of the Cambridge reference sequence for human mitochondrial DNA. Nat. Genet. 23, 147.
33. van Oven, M., and Kayser, M. (2009). Updated comprehensivephylogenetic tree of global human mitochondrial DNA variation. Hum. Mutat. 30, E386–E394.
34. Bandelt, H.-J., Forster, P., Sykes, B.C., and Richards, M.B.(1995). Mitochondrial portraits of human populations using median networks. Genetics 141, 743–753.
35. Forster, P., Harding, R., Torroni, A., and Bandelt, H.-J. (1996). Origin and evolution of Native American mtDNA variation: A reappraisal. Am. J. Hum. Genet. 59, 935–945.
36. Drummond, A.J., Rambaut, A., Shapiro, B., and Pybus, O.G.(2005). Bayesian coalescent inference of past population dynamics from molecular sequences. Mol. Biol. Evol. 22, 1185–1192.
37. Atkinson, Q.D., Gray, R.D., and Drummond, A.J. (2009). Bayesian coalescent inference of major human mitochondrial DNA haplogroup expansions in Africa. Proc. Biol. Sci. 276, 367–373.
38. Drummond, A.J., and Rambaut, A. (2007). BEAST: Bayesianevolutionary analysis by sampling trees. BMC Evol. Biol. 7, 214.
39. Pereira, L., Silva, N.M., Franco-Duarte, R., Fernandes, V.,Pereira, J.B., Costa, M.D., Martins, H., Soares, P., Behar, D.M., Richards, M.B., and Macaulay, V. (2010). Population expansion in the North African late Pleistocene signalled by mitochondrial DNA haplogroup U6. BMC Evol. Biol. 10, 390.
40. Barker, G., Barton, H., Bird, M., Daly, P., Datan, I., Dykes, A.,Farr, L., Gilbertson, D., Harrisson, B., Hunt, C., et al. (2007). The ‘human revolution’ in lowland tropical Southeast Asia: The antiquity and behavior of anatomically modern humans at Niah Cave (Sarawak, Borneo). J. Hum. Evol. 52, 243–261.
41. Haak, W., Balanovsky, O., Sanchez, J.J., Koshel, S., Zaporozhchenko, V., Adler, C.J., Der Sarkissian, C.S., Brandt, G., Schwarz, C., Nicklisch, N., et al; Members of the Genographic Consortium. (2010). Ancient DNA from European early neolithic farmers reveals their near eastern affinities. PLoS Biol. 8, e1000536.
42. Bramanti, B., Thomas, M.G., Haak, W., Unterlaender, M.,Jores, P., Tambets, K., Antanaitis-Jacobs, I., Haidle, M.N., Jankauskas, R., Kind, C.J., et al. (2009). Genetic

discontinuity between local hunter-gatherers and central Europe's first farmers. Science 326, 137–140.

43. Richards, M., Rengo, C., Cruciani, F., Gratrix, F., Wilson, J.F.,Scozzari, R., Macaulay, V., and Torroni, A. (2003). Extensive female-mediated gene flow from sub-Saharan Africa into near eastern Arab populations. Am. J. Hum. Genet. 72, 1058–1064.
44. Derbeneva, O.A., Starikovskaia, E.B., Volod'ko, N.V., Wallace,D.C., and Sukernik, R.I. (2002). Mitochondrial DNA variation in Kets and Nganasans and the early peoples of Northern Eurasia. Genetika38, 1554–1560.
45. Hooshiar Kashani, B., Perego, U.A., Olivieri, A., Angerhofer,N., Gandini, F., Carossa, V., Lancioni, H., Semino, O., Woodward, S.R., Achilli, A., et al. (2012). Mitochondrial haplogroup C4c: A rare lineage entering America through the ice-free corridor? Am. J. Phys. Anthropol. 147, 35–39. Published online October 24, 2011. 10.1002/ajpa.21614.
46. Ashrafian-Bonab, M., Lawson Handley, L.J., and Balloux, F.(2007). Is urbanization scrambling the genetic structure of human populations? A case study. Heredity (Edinb) 98, 151–156.
47. Maher, L.A. (2009). The Late Pleistocene of Arabia in relationto the Levant. In The Evolution of Human Populations in Arabia: Paleoenvironments, Prehistory, and Genetics, M.D. Petraglia and J.I. Rose, eds. (New York: Springer), pp. 187–202.
48. Alshamali, F., Pereira, L., Budowle, B., Poloni, E.S., and Currat,M. (2009). Local population structure in Arabian Peninsula revealed by Y-STR diversity. Hum. Hered. 68, 45–54.
49. Cerny´, V., Pereira, L., Musilova´, E., Kujanova´, M., Vası´kova´, A., Blasi, P., Garofalo, L., Soares, P., Diallo, I., Brdicka, R., and Novelletto, A. (2011). Genetic structure of pastoral and farmer populations in the African Sahel. Mol. Biol. Evol. 28, 2491– 2500.
50. Musilova´, E., Fernandes, V., Silva, N.M., Soares, P., Alshamali, F., Harich, N., Cherni, L., Gaaied, A.B., Al-Meeri, A., Pereira, L., and Cerny´, V. (2011). Population history of the Red Sea— genetic exchanges between the Arabian Peninsula and East Africa signaled in the mitochondrial DNA HV1 haplogroup. Am. J. Phys. Anthropol. 145, 592–598.
51. Bar-Yosef, O. (1998). The Natufian culture in the Levant,threshold to the origins of agriculture. Evol. Anthropol. 6, 159–177.
52. Uerpmann, H.P., Potts, D.T., and Uerpmann, M. (2009). Holocene (re-)occupation of Eastern Arabia. In The Evolution of Human Populations in Arabia: Paleoenvironments, Prehistory, and Genetics, M.D. Petraglia and J.I. Rose, eds. (New York: Springer), pp. 205–214.

أوهام الهوية بين العرب والبربر

بحث في تواريخ الهرطقة والخلاص

جيمس مكدوگل
ت: معاذ السايح

ملاحظات:

1. يرحل بنا الباحث البريطاني جيمس مكدوگل من العصور القديمة حتى الفترة الإسلامية المبكرة، ويلقي ضوءاً ساطعاً على الزمن الحالي، مع تركيزه على فترات انتقالية وسيطة أخذت فيه المصطلحات المتداولة في أكثر من لغة دلالات معينة، ثم تحوّرت تدريجياً، ثم أنتجت مصطلحاتنا الحالية. الأمر يتعلّق تحديداً بفئة دقيقة من المفردات تدور حول محور الهوية في شمال أفريقيا، مثل: «عرب»، «بربر»، «إسلام».

2. إنه لمن قبيل التخلّف والرجعية أن تتمسّك مكونات شعب ما، في دولة ما، بسلسلة من التصنيفات الإثنية والجينالوجية باعتبارها أساس بناء المجتمع والدولة، وأن تهمل أهم عامل يُعتدّ به في هذا السياق وهو «مفهوم المواطنة» الذي يقود بدوره إلى سلسلة إجرائية من القوانين والتشريعات التي لا تعترف بفوارق عرقية أو جنسانية أو عقيديّة أو غير ذلك من مظاهر التمييز، وهذا على وجه العموم ما يخلص إليه مكدوگل في بحثه الذي لا أعتقد أنه سينال رضى جميع الأطراف، سواء كانوا من العرب، أو من البربر، أو من الغربيين أو ذوي الميول الغربية (الفرنكفونيين خاصةً)، إنه بحث «ضد الجميع»، ولكنه بحث جدير حقاً بالقراءة والتفكّر، وإعادة ترتيب المعطيات، واستخلاص النتائج بعيداً عن الآراء المسبقة التي لم تثبت شيئاً حتى الآن أكثر من التزمّت والتعصّب والأوهام.

2. يفرق المؤلف بوضوح بين البربر Berber والأمازيغ Amazigh وقد جرى الالتزام حرفياً بمصطلحاته دون الخلط بينهما. كما إن Maghrib وما يتصل بها من مفردات هي في الغالب «البلدان المغاربية»، أما Morocco فهي «المغرب» أو «المغرب الأقصى». مع ضرورة الإشارة إلى خلط المؤلف بين مفهومي الوطنية والقومية، لأنه يختزلهما في كلمة واحدة هي nationality.

المترجم

ربما لا يكون هذا التاريخ سوى مبحث في دراسة الهرطقة. [...] حقاً، لقد صُنّف الناس دائماً على امتداد تاريخ شمال إفريقيا، من حيث هم «متزمّتون» أو «مهرطقون»، تماماً كما صُنّفوا على أنهم «بدو» أو «فلاحون»، أو حتى «عرب» أو «بربر».

جاك بيرك[1]

«العرب» و«البربر»، من الناحيتين المنطقية والزمنية فئتان [جماعتان] سابقتان في معظم سرديات التاريخ المغاربي. إنهم يتقدّمون التاريخ، وهم حاضرون في مستهلّ [حدوثه]، ويتحركون عبره؛ فهم أشبه بالأساس الذي تتأكّد به السلطة والمطالبة بالحقوق؛ وهم عامل ثابت وآلية تفسيرية للبنية الاجتماعية والصراع.

غالباً ما يُنظر إلى التنافر بين العرب والبربر على أنه إحدى الآليات الثنائية العديدة - المتراكبة أو المرتبطة بآليات أخرى[2] من المفترض أنها أنتجت التقلبات، أو الركود الدوري، في التاريخ المغاربي. وهكذا، اتجه الانتماء الإثني إلى أن يُكتب في التاريخ المغاربي من حيث هو فئة تأسيسية وسببيّة، سواء على أساس «العرق» البيولوجي (كما يقال علمياً)، أو نمط الحياة والسكن، أو اللغة والممارسة الثقافية، أو على أساس رابطة الدم، أو الأصل أو العرف أو الموطن (كما يُفترض سياسياً). وقد أصبح الباحث الفرنسي دي سلان de Slane نموذجاً مبكراً ومؤثراً في هذه الممارسة، عندما اختار في منتصف القرن التاسع عشر «تاريخ البربر» L’Histoire des Berbères عنواناً وسم به ترجمته لقسم من «كتاب العبر» الذي وضعه ابن خلدون وأراد به دمج سكان شمال أفريقيا الذين قابلهم العرب في تاريخ أكثر عمومية ضمن شعوب الأرض.[3]

في أوائل سبعينيات القرن العشرين، فعل گيلنر Gellner وميكود Micaud الشيء نفسه تقريباً عندما وثّقا ما اعتقدا أنه انتقال «من القبيلة إلى الأمة في شمال إفريقيا» بوصف هذا الانتقال سرديةً أثبتها تحديث تشكيل الدولة في مواجهة الروابط والصراعات البدائية بين العرب والبربر.[4]

إن تواريخ النزوع القومي التي كُتبت منذ عشرينيات القرن العشرين حتى السبعينيات (بوصفها تمثّل استعادة السيادة والذاتية العربية الإسلامية، وتمثل سرديات النهضة الأمازيغية التي شوهدت في الثمانينيات والتسعينيات بوصفها حركة أقلية إثنية تستعيد مكانتها الأصلية في التاريخ)، هي تواريخ تعمل أيضاً بالمعايير نفسها.

إن ممارسات التصنيف الإثني (تصنيف المجموعات الاجتماعية إلى فئات وفق ما يوجد من قواسم ثقافية ولغوية، قد تكن مشتركة أو مختلفة) هي ممارسات لها تاريخها الخاص، والفئات التي تنتجها مثل هذه الممارسات تُضفَى عليها صفة التطبيع في الوعي الذاتي لدى الأفراد وفي تعريف المجتمع لذاته، فتكتسب تلك الممارسات بالتالي قوة تنظيم اجتماعي وإمكانات سياسية خاصة بها، لكن لا يمكن اعتبارها ثوابت عبر تاريخية.

إن تاريخ الانتماء الإثني في شمال أفريقيا منظوراً إليه على أنه علاقة موجودة مسبقاً بين العرب والبربر، سواء على شكل صدام أو تعاون، أو انغماس أحدهما في الآخر، يطرح أسئلة خاطئة. فهو ليس مفيداً بعدُ لاستخدامه أداةً تفسّر التغيير أو الاستمرارية التاريخية، بأكثر مما تفيد ثنائيات أخرى دائمة، مثل «فلاحون وبدو»، أو «متزمتون وهراطقة». قد يفيدنا بشكل أفضل أن نرى «الانتماء الإثني» لا بوصفه «بدئياً»، أو جرى التعبير عنه عرضياً عند حدود علائقية بين المجموعات، كما اقترح فريدريك بارث F. Barth،[5] بل بوصفه يتموضع تاريخياً في خطابات وممارسات متغيرة ينتجها السرد الذاتي والتسمية النسبية التي تحدث في التنافس الاجتماعي، والنضال من أجل نيل الاعتراف والوجاهة، والمطالبة بالسيادة المشروعة.[6]

يتمحور النقاش في هذه الورقة على أننا أثناء إعادة النظر في مصطلحي «عرب» و«بربر» بوصفهما من المصطلحات التحليلية والتسميات الذاتية، يتعين علينا أن نسعى إلى فهم التاريخ المغاربي على نحو أكثر دقة مما أتاحه لنا بشكل عام التوظيف الآلي لهذه المصطلحات باعتبارها ثنائية إثنية دائمة. لا ينبغي أن يعني هذا ببساطة «إعادة تأهيل» الهوية البربرية التي أُضفي عليها طابع جوهري والتي قمعتها منذ استقلال الدول المغاربية «هوياتٌ وطنيّة» عربية إسلامية بشكل رسمي، حيث صار النزوع البربري نوعاً من الطائفية المهرطقة والمتخلفة. إن إضفاء الطابع الرسمي، والتدوين والرعاية، على الثقافة واللغة الأمازيغيتين في كل من الجزائر والمغرب[7] لا يعني خلاص الهوية البربرية نهائياً، مهما تأخر

الاعتراف بها كجزء شرعي من الواقع الاجتماعي والثقافي المغاربي. إنه فضلاً عن ذلك إعادة ترتيب جديدة (وإشكالية في كثير من النواحي) تنظّم العلاقة بين التعريف الثقافي الذاتي وصيغ المجتمع السياسي، ومطالب الدولة؛ وكما ستشير هذه الورقة، فإن هذه العلاقة هي التي يجب أن تكون محور البحث في حد ذاتها.

إن تاريخ الكيفية التي نظّمت سلوك «العرب» و«البربر» في التنظيم الاجتماعي، من حيث التسميات الذاتية أو [التعبير عن] الاختلاف، يجب أن يُنظر إليه في ضوء أكثر دقة. ويمكن -بعبارات عامة تستدعيها الضرورة- تلخيص هذا التاريخ على النحو التالي: كل من «العرب» و«البربر» هما اختراعان إثنوغرافيان من العصور القديمة المتأخرة، حيث جرى في العصور الوسطى وأوائل العصر الحديث توظيف كلا المصطلحين في ممارسات التسمية التي كانت فيها التوراث أو تعريف الذات الإثني-اللغوي متقاطعاً مع اهتمامات أخرى ومنعكساً فيها.

ما كان يهم حقاً هو التنافس على الشرعية الاجتماعية-الثقافية والسياسية التي لم يكن أفقها المرجعي الأساسي هو «الإنتماء الإثني» في حدّ ذاته، بل مفاهيم القيمة والسلطة والانتماء التي قنّنها الإسلام، واكتسبت بها تسميات كثيرة، مثل «عرب» و«بربر»، دلالتها الفعلية. عندما أطلق مراقبون خارجيون من هذه الفترة تسميات إثنية على سكان البلدان المغاربية، في محاولة لتمييز «العرب» عن «البربر» (وغيرهم)، كانوا يحاولون تقنين حدود لم يفهموها هم أنفسهم، كما لا يمكن افتراض أنها كانت موجودة أصلاً في أذهان أو ممارسات الأشخاص الذين وصفوهم، وقد تغيّر هذا الوضع عندما أُعيد اختراع معنيي «عربي» و«بربري» سياسياً، وجرى تقنينهما في علوم التصنيف الإثنوغرافي ومسوّغات الحُكم في القرن التاسع عشر. ثم أُعيد إنتاج كلا المصطلحين في المجتمعات المغاربية بمعاني جديدة، خاصة منذ منتصف أربعينيات القرن العشرين فصاعداً:

أولاً: في خدمة التعبئة القومية من أجل التحرّر والانتظام، بشكل متزامن؛ ثم من أجل الثقافة الرسمية المؤسسيّة في الدول المغاربية بعد تحررها من الاستعمار؛ ثم كرد فعل على ممارسات تلك الدول المتمثلة في الهيمنة والاختيار والإقصاء؛ ومؤخراً، في محاولة تلك الدول استقطاب وتحييد «النزعة البربرية» كقوة معارضة.

أركّز في ما يلي على جزء واحد من هذه النقاش؛ وهو تحديداً حول دور الإسلام بوصفه مفهوماً للتاريخ العالمي، وقانوناً اجتماعياً معيارياً في خلق المجتمع الثقافي والسيادة السياسية في البلدان المغاربية. ضمن هذه العلاقة بين التاريخ العالمي، والقيمة الأخلاقية، وتعريف المجتمع والسيادة، جرى على نحو أساسي تحديد الممارسات الدلالية التي تسم الانتماء الإثني، والمعاني التي تتضمنها. لكن هذا ليس نقاشاً -يجب التشديد على هذه النقطة- يسعى إلى تمييز «الدين» عن «الانتماء الإثني»، أو إلى تفضيل الأول على الثاني، كما لو كان كل ما في هذا «المجتمع المسلم» يجب أن يكون مفهوماً من خلال فهم «الإسلام».[8] النقطة المهمة، كما يقول ديفيد كروفورد D. Crawford عن المجتمع البربري المعاصر في الأطلس الكبير، تكمن بالأحرى في أن «الممارسات الأساسية لكون المرء مسلماً متأصلة في الحياة اليومية لدرجة أنها لا تشكل فئة منفصلة عن تجربته».[9]

لا يمكن بشكل كافٍ فهم تاريخ الإنتماء الإثني المغاربي الذي يميز «العرب» و«البربر» دون هذا المصطلح الثالث الذي كان في واقع الأمر أساسياً بشكل عام، وغير قابل للعزل، و«غير مفكّر فيه بوصفه [عاملاً] ثابتاً»[10] في تاريخ الممارسات الدلالية في البلدان المغاربية.

على المستوى الاجتماعي اليومي، حدّدت المعرفة المحلية في شمال أفريقيا الأفراد والجماعات بشكل أساسي عن طريق تقييم مكانتهم الأخلاقية. وقامت هذه الجماعات في الخطاب العام والممارسة السياسية، بتعريف نفسها وبعضها بعضاً عن طريق مزاعم تتعلق بالسيادة الشرعية. أما من الناحية التاريخية، على مستوى تكوين المجتمع والدولة، فقد ظهرت بين الشعوب المغاربية تسمية ذاتية وتصنيف نسبي يتمثلان في «عرب» و«بربر»، وقد أخذت هاتان التسميتان معناهما الفعلي بمرجعية إسلامية منذ أواخر القرن السابع.

مما يثير الدهشة أنه لا يوجد في المصادر الإغريقية واللاتينية القديمة مصطلح إثنوغرافي واحد يمكن مقارنته بتلك التي تطلق على شعوب كبيرة من الأعداء في الشمال (مثل غالي Galli وجرماني Germani) أُستخدم للإشارة إلى شعوب شمال إفريقيا.[11] هناك ليبيون Libyans، نوميديون Numidians، غايتولي Gaetulians، جرمنت Garamantes، ماسيلي Massyli وماسيسيلي Masaesyli، مازيسيس Mazices، موري Mauri، بربر

Barbaroi؛ إنه مزيج متنوع من المجموعات والممالك، وهي متآلفة مع السياسات الإقليمية الرومانية والهللينية في البحر الأبيض المتوسط ومندمجة في أعمالهم التجارية منذ أواخر القرن الثالث ق. م. على الأقل. أما عندما قام العرب المجهزون حديثاً بوعي ذاتي يميّز شعباً كلّفه الله بمهمة تاريخية ورسالة أبدية، بإزالة آثار بيزنطة من شمال إفريقيا، فإنهم –على عكس الرومان– واجهوا قوماً شكلوا عقبة كأداء أمام تقدمهم وسعيهم إلى الظهور كوحدة متميزة وإشكالية، وهم البربر al-barbar.* إن المصطلح العربي، المستعار بشكل شبه مؤكد من الإغريقية واللاتينية، أي barbaroi أو barbari، ويعني: المتحدثون بلغة غير مفهومة، هو بالتالي أول إسناد [لغوي] يعمّم اسماً إثنياً على السكان الأصليين في شمال إفريقيا. ومنذ أقدم سجلات الغزو («فتوح مصر» لابن عبد الحكم، المتوفى عام 871) وحتى تدوين الاسم في الملخص التاريخي الكبير الذي وضعه ابن خلدون بعد خمسة قرون، يكون العرب في الواقع هم من «اخترعوا» البربر بوصفهم مجموعة «إثنية» فردية يمكن تعريفها على هذا النحو. لكن تسميات الاختلاف الثقافي والهوية العرقية بين «شعوب العالم» في الإثنوغرافيا والتاريخ العربيين في العصور الوسطى لا تفسر شيئاً في حد ذاتها. إنها تعود إلى فهم الهويات والأفعال البشرية من حيث حملها لمعنى [محدّد]، ومن حيث هي عرضة للحكم، على أساس مكانتها في تاريخ الخلاص العالمي. الشخصيات المؤسطرة: الكاهنة وكسيلة، قائدا المقاومة المحلية من البربر اللذان رفضا الفتوحات الإسلامية، وربما ينبغي النظر إليهما على أنهما كانا يدافعان عن استمرارية النظام في أفريقيا البيزنطية خلال التوغل العربي المبكر والمؤقت وغير المستمر، يجدان مكانهما في الأرخنة الأسطورية المتقنة والبطولية التي رأت الفتح بوصفه نصراً إسلامياً مقدّراً. لقد تم آنذاك دمج البربر في السجلات [التاريخية] العربية المبكرة في التاريخ العالمي للإسلام مع جعل انتصاره [أي الإسلام] أمراً كان متوقعاً مسبقاً في مفهوم الآخر

(*) لا يمكن بالطبع تبسيط هذا الحدث التاريخي على النحو الذي ذكره الباحث، فظاهرة التآلف والاندماج بين السكان الأصليين والرومان أو الهللينيين لم تكن سلسة كما يزعم، وفي تاريخ شمال أفريقيا القديم عشرات من الأمثلة القوية والمؤكدة التي تتلخّص في رفض وجود الرومان والثورة عليهم والتمرد ضدهم، أما لتآلف أو الاندماج فهي كلمات عبر بها الباحث عن الخضوع والانصياع للاحتلال والسيطرة العسكرية ومصادرة الأراضي وتوزيعها على الرومان والتفريغ الديموغرافي وإعادة التوطين. المترجم

الديني البربري، ومقبولاً وفق نبؤات الكاهنة.[12]

من الواضح أن تطور الوضع والتصنيف الاجتماعيين في القرن الأول بعد الفتوحات كان عملية تفاوض معقدة، بل أكثر تعقيداً مما يمكن للمصادر المتبقية أن تعترف به صراحةً. ينبغي القبام بإجراء تفسيري دقيق للمعاني المتطورة في مفاهيم الإسلام (التسليم)، والمسلم (الشخص الذي يُبدي تسليمه)، والمؤمن (ذو العقيدة)، في مجتمع ما بعد الفتح الناشئ وفي النظام الديني الأيديولوجي الذي بدأ لتوه في إضفاء صوغ فئاته المفاهيمية وتنظيمها في تسلسلات هرمية. علينا أن نستخلص روابط الشرعية الدينية بعلاقات الولاية والاتباع، والانزياحات والتبادلات بين هويات المجموعات غير المستقرة والدينية وتلك التي أضفي عليها طابع عرقي.[13] لقد جرى تسطيح هذه العملية وتبسيطها في تدوين التأريخ والسياسات الثقافية التي انتهجتها النزعة القومية، وهي تعيد تصوّر القرن السابع من خلال صراعات القرن العشرين.

لقد تم إلغاء الطابع الإسلامي بـ[عمليات] التعريب، مما أدى إلى إزاحة «البربرية» كلياً من حيث هي فئة مشروعة. وكما قال الناشط الإصلاحي الإسلامي وعضو الإخوان المسلمين الجزائري والقبايلي فضيل الورتلاني، عندما كتب في الصحافة السورية واللبنانية في ذروة أزمة خمسينيات القرن العشرين مقالاً بعنوان: «ليس هناك بربر في المغرب العربي»، فإن «البربر (الذين على كل حال، «كما يخبرنا بعض المؤرخين، كانوا من أصل عربي») قد استعربوا جميعاً بعد الهجرات العربية المتعاقبة إلى أراضيهم، ولم يبق اليوم في أرض المغرب العربي من يقول: «أنا بربري»، أو من يقبل أن يصفه أحد بهذه الطريقة».[14] بعد نصف قرن من ذلك تقريباً، وضع الرئيس الجزائري عبد العزيز بوتفليقة المسألة نفسها في منعرج مختلف خلال زيارته الرسمية الأولى بوصفه رئيساً للدولة إلى مدينة تيزي وزو بمنطقة القبايل، وواجهه متظاهرون عدوانيون يهتفون «امازيغن، امازيغن!»، فأجاب: «كلنا بربر؛ الأمازيغ عربهم الإسلام!».[15]

ربما يكون الإصرار الشديد على هذا التوجّه مؤشراً على هشاشة مصداقيته، فتعريب متحدثي البربرية الذين عاشوا في المغرب في القرنين السابع والثامن لم يكن بواسطة الإسلام طبعاً، إذ لم يحدث التعريب اللغوي المهم إلا في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، وعندما حدث ذلك (ربما كان في المغرب مع أواخر القرن العشرين)، فإن تعريب

الأغلبية كان بناء على عوامل ديموغرافية وسياسية، أكثر مما كان بسبب الدين الإسلامي أو بسبب التعليم الذي كان متجذراً لعدة قرون في الريف الذي يتحدث البربرية، كما لم يكن بسبب العرب الذين كانوا، وفق رأي مقابل عبّر عنه الروائي والشاعر الجزائري الكبير كاتب ياسين في نهاية حياته: «أقلية صغيرة بيننا [[أي الأغلبية البربرية]] تهيمن علينا عن طريق الدين»، ليعكس بذلك توازن المنطقة الثقافي الطبيعي، ويجعل البربر «أقلية معزولة داخل الشعب العربي».[16] وكما أشار عبد الله العروي فإن «الأسلمة [في شمال أفريقيا] كانت من عمل البربر أنفسهم».[17]

تاريخياً، لم يكن الإسلام يعني الفئة المصنّفة «عرباً» كما إنه لم يمحُ الفئة المصنّفة «بربراً»، مثلما زعمت مؤخراً وجهتا النظر القومية العربية الرسمية والأمازيغية العلمانية المنشقة. إن إدغام الإسلام والعرب (والمسلم والعربي)، ومعارضة البربر لكليهما، هو «اختراع» حديث للغاية. فقبل أن يجلب القرنان التاسع عشر والعشرين، عِلماً استعمارياً للبربر، ثم عقيدة قومية للعرب الإسلامويين Arabo-Islamism، كانت شعوب شمال إفريقيا، سواء الناطقة بالعربية أو البربرية، مع ما كان يميزها من درجات «توسّط» بينهما،[18] قد انخرطت في ما يقرب من ألف عام من التغيير التاريخي الذي جرى تجسيده وتخيله في المقام الأول عن طريق التاريخ العالمي للإسلام. وكانت «إثنيات» العرب والبربر «مصنّفةً معاً» subsumed في هذا التاريخ العالمي بوصفها لغات وثقافات وأنماط حياة متميزة. (أو لنقل كان «الكل» بالأحرى، إذا لم تكن كلمة «عرب» أو «بربر» تعني لغة واحدة، أو ثقافة واحدة، أو شعباً واحداً في البلدان المغاربية ما قبل الحديثة). وضمن ذلك، عبّرت كل إثنية عن خصائصها المميزة، وعرّفت نفسها إما إلى جانب بلأخرين او ضدهم.

ولا يعني هذا وضع أنشودة رعوية إسلامية متناغمة تتغنى بما قبل غزو الغرب، فقد أعلنت الصراعات المحلية، والانقسام إلى طبقات عرقية واجتماعية، والعداءات والإشادة بالخصوصيات، عن نفسها أيضاً. فعلى جانب المسلمين كان هناك الشيعة والسنة، والمالكية والإباضية، والمسلمون «السيئون»، والمسلمون «الصالحون»، والمسلمون «الأكثر صلاحاً»، والمسلمون «الحديثون» (السود ومتحدثو البربرية)، والمسلمون «الأصليون» (المهاجرون من شبه الجزيرة العربية وأولئك الذين يدعون أصولاً عربية) وسلالة النبي. كانت الأشكال المحدّدة التي تم بها تبنّي المعايير الإسلامية في البلدان

المغاربية مجرد متغيرات محلية من توجهات أكثر انتشاراً داخل الإسلام: وساطة الأولياء، والشيعة والخوارج، واستخدام لغة محلية في النصوص الدينية، واستمرار الطقوس الثقافية والاجتماعية المحلية، وإدراجها ضمن نظرة عالمية تُحسب الآن «إسلاميةً». ومع ذلك، فقد وفرت مثل هذه الممارسات تمييزاً ذاتياً لـ«الأرثوذوكس» (القِوام)، والحضر، والمالكية، و«العرب» المتعلمين أصحاب التصانيف، بغض النظر عمّن كان أسلافهم فعلاً، مع مجموعة من «الإدانات» التي يمكن استخدامه لوصف «البربر» بأنهم وثنيون، ومنشقون، وزنادقة، ومرتدون متسلسلون.

ولكن في الوقت نفسه، فإن تبنّي اللغة العربية بوصفها اللغة الأساسية للثقافة النصيّة (بوصفها النص script الوحيد، بما في ذلك الكتابات باللغات البربرية باستثناء التارقية)، إلى جانب فرضيات النّسب العربي والتماهي مع تاريخ الخلاص الإسلامي، قد عبّر عن مطالب البربر بالشرعية الثقافية والسياسية. ومثل هذه المطالب لم تنف، بل توخّت، تجاوز أو إبطال الاختلاف الإثني-اللغوي العربي-البربري داخل «الأمة» (Umma) (أي جماعة المؤمنين). وقد استخدم الإسلام في القرون التي تلت الفتح مجموعة متنوعة من المصطلحات للتعبير عن الحركات التي حشدت المجموعات الناطقة بالبربرية في نطاق الأمة الواسع، وليس ضدها. وكثيراً ما طالبت هذه الحركات حقاً بقيادة الأمة نفسها شرعياً. فالثورة الفاطمية الشيعية بدأت بين شعب كتامة في منطقة القبايل السفلى في نهاية القرن التاسع، وأخرجت سلالة الأغالبة من إفريقية (تونس الحالية) عام 909 في مطالبة لا تتعلق بالسيادة على شمال إفريقيا ضد الخلافة في الشرق الأوسط، أو بفورة من عداء «البربر» للعرب، فحسب، ولكن بالتطلّع إلى حكم شرعي عالمي وبناء الدولة باسم الله. في المذهب الخارجي الذي ترسخ في المغرب في القرن الثامن، وحركة المرابطين في القرن الحادي عشر وحركة الموحدين في القرن الثاني عشر، لم تكن «إثنية» البربر في مقابل الهوية العربية ذات علاقة واضحة بذلك أو تعدّ سبباً، فقد ادّعى الخوارج والفاطميون والمرابطون والموحدون، من حيث هم مسلمون، السيادةَ على مسلمين آخرين، وكانت ثوراتهم، بمصطلحهم الخاص، ثورات «مسلمين صالحين» ضد «مسلمين سيئين»، سواء كانوا من البربر أو من العرب أو من غيرهم.

إن الحِجاج الدائري الذي يقرأ كل خصوصية دينية بين الناطقين بالبربرية، بوصفها

مظهراً من مظاهر مقاومة بربرية واعية ذاتياً (تقاوم العرب عن طريق إسلام طائفي مثلما قاومت الرومان في السابق عن طريق مسيحية طائفية)،[19] إنما هي نتاج من نتاجات التطبيع المعاصر الذي يسم الفئات الإثنية، وليس حقيقة تاريخية. ويمكن توضيح هذه النقطة إذا قمنا بتفحّص أشهر هرطقات «البربر»، ألا وهي حركة برغواطة بين القرنين التاسع والحادي عشر.

استمرت الدولة والدين اللذان أنشأهما الشعب البرغواطي الناطق بالبربرية بمنطقة تامسنا في المغرب الأوسط في منتصف القرن التاسع لمدة قرنين. لقد نجوا من الظهور الأولي للمرابطين الذين قُتل مؤسسهم عبد الله بن ياسين في معركة ضدهم عام 1059، مما أخّر توسع المرابطين مدة أحد عشر عاماً حتى تدمير المملكة على يد يوسف بن تاشفين، الذي خلف عبد الله بن ياسين، في اجتياحه الشمال الذي كلّل بالنصر، انطلاقاً من مراكش.

غالباً ما يُنظر إلى مسألة برغواطة على أنها النقطة التي تكون فيها جدل الابتكار الديني تعبيراً عن الخصوصية الإثنية وهي في أقوى مراحلها. وقد وصف المفكر الإسلامي التونسي الكبير المعني بالتاريخ الوسيط محمد الطالبي، الهرطقةَ بأنها مثال على «التثاقف في خدمة القومية البربرية القديمة التي لا تزال حية»، و«نوع من التخلّص من الاستعمار في العصور الوسطى»، و«تثاقف دفاعي يأخذ من ترسانة العدو وسائل التحرر الوطني الكامل».[20] في رواية الطالبي البارعة التي تخبرنا عن السياق الفكري في سبعينيات القرن العشرين بقدر ما تخبرنا عن هذا السياق منذ القرن التاسع إلى القرن الحادي عشر، فإن البربر في غرب المغرب الأقصى «طهّروا أنفسهم من عُقَدهم» المتعلقة بالفاتحين العرب عن طريق «تبنّي الهرطقة واتخاذها محفزاً للتطلعات الوطنية» في «إنشاء دين مستقل حقاً [...] لإنقاذ روحهم الوطنية المهانة والمهدّدة».[21] وهكذا فإن هرطقة برغواطة بالنسبة إلى الطالبي حركة قومية مناهضة للاستعمار، خرجت من التثاقف النسبي مع الإسلام (العربي)، ولكنها تعبر عن «شخصية أمازيغية» أساسية ومتمرّدة:

«... إن البربر الذين تمرّدوا باسم البرغواطية كانوا متأثرين دون أن يعلموا بثقافة عميقة متصلة بالقيم الحضارية الوافدة من الشرق. وقد كان هذا التثاقف على كل حال قوياً بالقدر الذي يفرض النماذج الثقافية التي كانت بمثابة الأساس لتطوير نظام

أيديولوجي واجتماعي، تحت اسم البرغواطية، وكان مقدراً له أن يستعيد شخصيتهم ويعيد تأكيدها ضد تهميش الهيمنة الروحية [الذي مارسه] الأجنبي. هل من الضروري التشديد على أنه يمكن رؤية ظاهرة مماثلة في بعض عمليات إنهاء الاستعمار في عصرنا؟».[22]

ومن الواضح أن السياسات المتبعة في سبعينيات القرن العشرين، وليس سنة 840، هي التي أنتجت هذا التفسير.[23] يقول هـ.ت. نوريس H.T. Norris، وهو باحث كبير آخر في المجتمعات البربرية والأدب العربي والأعراف الإسلامية، مقتفياً بذلك أثر الطالبي، أن هدف مؤسس الحركة، يونس بن إلياس، «كان أن يبربر Berberize الإسلام جذرياً في شكل محلي ومستقل تماماً».[24] ويبدو أن يونس ابتكر مذهبه الطائفي أثناء أو بعد عودته من الحج إلى الحجاز، وفرضه على الدولة التي ورثها عن جده صالح بن طريف. وصالح هذا هو الذي يُنظر إليه في الروايات العربية على أنه منشئ الهرطقة، وأنه اختفى في المشرق واعداً بأن يعود بصفته المهدي، وعرّف نفسه بـ«صالح المؤمنين» المذكور في القرآن (سورة 66، آية 4).(*) ويعدّ صالح بن طريف بالنسبة إلى الطالبي ونوريس، مسلماً صالحاً و«وطنياً بربرياً» يُعزى إليه أصل الحركة الجديدة في التاريخ الأسطوري الذي اخترعه حفيده. وعند تفسير تصرفات يونس، مخترع مذهب برغواطة، وربما مؤلف «القرآن البربري» بفصوله الثمانين[25]، يذهب نوريس وهو يعيد صياغة فكرة الطالبي، إلى أقصى حدود التفسير، ويشير إلى أنه «إما بسبب غيرة دينية منحرفة أو بسبب اختلال عقلي أو بسبب بعض الكراهية التي انتابت قلبه أثناء وجوده في الشرق» فإنه «استمدّ من ترسانة «العدو» مثل هذه الأسلحة التي تمكّنه من تحقيق تحرّر البربر ثقافياً بعد أن نالوا حريتهم السياسية على يد الخوارج».[26]

إن كل هذا موضوع إشكاليّ تماماً.

أولاً: لأنه ينسب إلى محتوى الحركة الفعلي مجرّد إنجاز أداتي لا يمكن تبريره إلا بمفاهيم حديثة من الأيديولوجية السياسية التي لا تنتمي إلى ذلك الزمن.

(*) سورة التحريم، الآية الرابعة: "إن تتوبا إلى الله فقد صَغَت قلوبكما وإن تظاهَرَا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهيرٌ".

ثانياً: لأنه ليس من الواضح على الإطلاق أن الحركة قد نُظر إليها من حيث هي خروج عن الإسلام وتمرد عليه، أي الإسلام الذي جرى تحديده على أنه «أجنبي» يعبّر عن «هيمنة روحية تهميشية». إن «اسم البرغواطية» الذي أسّس أهل تامسنا بمقتضاه مملكتهم هو الاختصار الذي قدّمه الطالبي لدين لا اسم له في المصادر، وإذا بدا من غير المرجح أن يسميه أتباعه ببساطة «إسلامهم» (كما يفعل معظم «الزنادقة» من غير السنّة، من الشيعة إلى الأحمدية)، فإنه يبقى مع ذلك مذهب إسلامي بكل تأكيد. فالبرغواطيين أدّوا الصلوات المضافة [النوافل] (خمس في النهار وخمس في الليل) وغير ذلك من دلائل المزايدة الحماسية (صيام يوم في الأسبوع، وقواعد غذائية إضافية، وأخلاق اجتماعية صارمة بما في ذلك حظر التسرّي، والرجم بسبب الزنا، وإعدام اللصوص، ونفي الكاذبين). ومع ذلك ذهبت عقيدة الإخفاء (التقية taqiyya) والعودة المهدي الموعودة (أي: صالح المؤمنين) في عهد الملك السابع من الأسرة، إلى جانب جبريل والملائكة، وهم الذين سيصلي خلفهم عيسى بن مريم. إن تصوّر الإسلام هذا شديد الصرامة، وهو مستوحى من المذهب الشيعي ومذهب الخوارج، وربما عن طريق مفاهيم وُجدت مسبقاً تتمحور حول المَلكية النبوية prophetic kingship وممارسات أخرى مرتبطة محلياً باليهودية. إن «قرآن صالح» (أو يونس)، مهما كان محتواه أصلياً، يبدو مستنسخاً calqued بسبب شكله ومشروعيته من وحي «قرآن محمد». قد يكون القرآن نفسه معروفاً أو غير معروف جيداً لأهل تامسنا، لكن لا بد أن وجوده وبعض موضوعاته وشخصياته كان أمراً مألوفاً.[27] فـ«الوحي» الذي جاء إلى برغواطة يتبع النموذج القرآني الموحى به إلى المرسلين المبعوثين إلى أماكن مختلفة لدعوة شعوبهم إلى الله، ولا يبدو من غير المناسب على الإطلاق اعتباره مماثلاً في الأساس لحركات تنبّؤية أو مسيحانية محلية أخرى ميّزت التاريخ الإسلامي منذ بدايته حتى القرن التاسع عشر، عن طريق إعادة تفعيل الديناميكية التأسيسية التي تسم الإيمان في أوقات الأزمات.

هذه القصة توجد في التاريخ الإسلامي، ربما على هامشه، ولكنها ليست خارجه.[28] وقد كان كل من بريت Brett وفنتريس Fentress محقّيْن في التعليق على «إسلام برغواطة الزائف»، فهو «محاكاة» محلية لنموذج الفاتح الذي رآه الناس منتصراً حولهم، لكنه لم يكن «زائفاً» إلا لأنه فشل في البقاء بوصفه بديلاً طائفياً قابلاً للحياة.[29]

الأهم من ذلك، أن هذه القصة -إلى الحد الذي يمكن فيه تفسير مصادرها بأمان-[30] لا تتعلق بإنهاء الاستعمار أو التحرر الثقافي. فحماسة الحركة التبشيرية في ذبح زملائها من الناطقين بالبربرية أثناء إرسال السفارات إلى الخلفاء الأمويين في قرطبة من الصعب قراءتها على أنها توكيد «إثني» أو نزعة قومية بدئية. لقد كانت حركة بناء دولة، ويُنظر إليها بشكل أفضل على أنها تعبير محلي (متميز عن الخصوصية «الإثنية») يمثل نظاماً دينياً معيارياً منخرطاً في صراعات محلية من أجل اكتساب السلطة وتماسك المجتمع. وبريت Brett محقّ مرة أخرى عندما يقول بأن أهمية برغواطة تكمن في حقيقة أنهم «أشاروا إلى إمكانية قيام ثورة إسلامية جديدة».[31] ذلك إن خطابهم المهدوي mahdist المعبّر عن السلطة، ووعدهم الألفي millenarian بالعدالة، مستعاران –بتطرّف أكثر- من ثورة الخوارج التي حدثت في 740، ومهّدت لظهور الفاطميين.

إن القلق بشأن المكانة في العقود الأولى من الفتح (حيث كان المسلمون والعرب والبربر يحدّدون مواقفهم في نظام اجتماعي متضامن ومتآلف حديثاً)، سرعان ما أفسح المجال أثناء تفتّت الخلافة المبكرة، أمام عدد متنوع من التعريفات الذاتية، الاجتماعية والثقافية، التي تشكّلت فيها المصطلحات الإسلامية، وأُعدّت، ثم استُخدمت في الصراعات المحلية من أجل اكتساب السلطة والشرعية. إن بورغواطة [في هذا السياق] هي الأكثر ابتكاراً لا غير، وهي حالة محدودة من اتجاه أكثر عمومية. فالتشيّع والإباضية، ومكانة الشرفاء (Shurafa) (سلالة النبي) والأولياء، كل هذا جزء من القصة نفسها، ويتم سردها أيضاً من حيث الخطوط السلالية الجماعية وروايات الأصل. لقد أرسى المشهد السياسي الديناميكي والمجتمعات المتنقلة mobile في القرن التاسع حتى القرن الثالث عشر مخزوناً غنياً من أساطير الأصل وقصص الهجرة وتقاليد الأنساب التي من شأنها أن تغذي التاريخ المحلي في الفترة الحديثة.[32] وكل ذلك وُجد على نحو فضفاض، ولكنه مرتبط ببعضه بعضاً بطريقة حاسمة من خلال لغة الإسلام الرمزية المشتركة، كما إنه متنوّع ومختلف فيه على المستوى المحلي. إن مسائل رفعة الشأن والتسلسل الهرمي، والمساواة أو التبعية، والقيمة الاجتماعية المحلية والشرعية داخل الأمة سوف يقع إحلالها في الحركات الدينية، من حروب برغواطة ضد جيرانهم العرب والبربر [على السواء] في القرن التاسع إلى ثورة الدرقاوة ضد الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر.

لقد جرى تأكيد الغرض نفسه عن طريق سلسلة الأنساب الملتوية التي ذكرها ابن خلدون، وهي التي حاولت إضفاء الوضوح والنظام على واقع الفوضى الكبيرة في عصره، وعلى التصنيف اليومي لـ«الذات» و«الآخر» من خلال حكايات ساخرة، و«أحاديث» (Hadiths) مكذوبة، و«مفاخر البربر» و«سيرة بني هلال».[33]

إنها -مرة أخرى- تعبيرات عن الهوية الاجتماعية التي يتم فيها التعبير عن القيمة الأخلاقية وعن الشرعية الاجتماعية التي تسم شخصيات الأفراد والجماعات باستخدام لغة الإسلام.

بحلول القرن السادس عشر، شهدت البلدان المغاربية تفتّت سلسلة من الدول ثم إعادة تشكيلها، وانتشار أشكال من السلطة والممارسة الدينية التي خلفتها، وجاءت مع ذلك هجرة السكان وإعادة توطينهم؛ متحدثو البربرية في جرجرة ومتحدثو العربية في الصحراء الغربية، والتجار واللاجئون من الأندلس في فاس وتلمسان، والجنود والمغامرون من الشرق العثماني في الجزائر وطرابلس. وهكذا واجه المراقبون المعاصرون الأوائل مجتمعاً متنوعاً ومتعدّد اللغات. ومنهم حسن الوزّان، وهو لاجئ من غرناطة نشأ في فاس، ثم كتب مؤلَّفه (وصف أفريقيا) في إيطاليا في منتصف القرن السادس عشر، متخذاً اسم ليو الأفريقي، وفيه يصف بلاده للقراء الأوروبيين، وكان خبيراً بالضرورة في طمس القواسم الفاصلة المنتظمة. فميّز البربر (الموريين) عن العرب في وصفه لسكان أفريقيا، بل افترض أيضاً وجود مستوى من الوحدة اللغوية بين البربر:

> «ينقسم المور السُّمر tawnie Moores إلى خمسة شعوب أو قبائل، ولفهم ذلك فإن القبائل تدعى: صنهاجي، ومصمودي، وزناتي، وهواري، وغماري [...] العائلات الخمس المذكورة منقسمة إلى مئات السلالات، وعدد لا حصر له من المواطن. وتستخدم مع ذلك نوعاً واحداً من اللغة، يسمونه Aquel Amarigh [أي أوال أمازيغ، اللغة الأمازيغية]، ويعني اللغة النبيلة noble toong، أما العرب الذين يسكنون أفريقيا فيسمّونها اللغة البربرية barbarous toong؛

وهذه هي لغة الأفارقة الحقيقية والطبيعية».(34) [*]

ولكن هذا ليس سوى المستوى الأول من الوصف، فبعد ذلك بقليل، نعلم كيف يتم تخفيف هذا التمييز لغوياً، وبأي معنى يُفهم الانتماء الجماعي حقاً:

«بدأ العرب يسكنون أفريقيا، ويوزّعون أنفسهم بين الأفارقة الذين [...] اعتادوا أن يتحدثوا لغتهم، ومن هنا، فإن اللغة الطبيعية، لغة العرب الأم، وهي ذات قرابة عظيمة باللغة الأفريقية، نمت شيئاً فشيئاً حتى ردُؤَت، ولذا فإنهم يذكرون أن هاتين الأمتين قد وحّدتا نفسيهما في أمة واحدة. لكن العرب عادة ما يعظّمون نسبهم في الأغاني اليومية التافهة، وهي عادةٌ ما تزال شائعة عندنا [أي الأندلسيين]، وعند أهل البربر أيضاً».(35) [*]

نعود هنا من خريطة إثنية-لغوية ثنائية كما يبدو إلى روايات «النَّسب»، والاندماج، والتبنّي، والتنافس الذي يشكّل تاريخ ليو الأفريقي ورؤيته لتكوين الهوية بشكل عام، وهي رؤية متجذرة كما هي في أساطير الأصل في الأنساب وتاريخ الخلاص، وهو ما ورثه (وقبله ابن خلدون) من التصانيف السابقة في العصور الوسطى. وهكذا، في إعادة صياغة لسلسلة من قصص الهجرة في العصور الوسطى. وهكذا، في إعادة صوغ سلسلة من قصص الهجرة في العصور الوسطى:

(*) نص هذه الفقرة كما وردت لدى ليون الأفريقي:

‘The tawnie Moores are divided into five severall people or tribes: to wit, the tribes called Zanhagi, Musmudi, Zeneti, Hacari, and Gumeri […] The foresaid five families or people, being divided into hundreds of progenies, and having innumerable habitations, doe notwithstanding use all one kinde of language, called by them *Aquel Amarigh* [i.e., *awal amazigh*, the Amazigh language], that is, the noble toong : the Arabians which inhabite Africa, call it a barbarous toong ; and this is the true and naturall language of the Africans.’

(*) نص هذه الفقرة كما وردت لدى ليون الأفريقي:

‘The Arabians began to inhabit Africa, and to disperse themselves among the Africans, who […] used to speake their language: and hence it is, that the naturall and mother-toong of the Arabians, which hath great affinitie with the African toong, grewe by little and little to be corrupted: and so they report that these two nations at length conioined themselves in one. Howbeit the Arabians usually doe blaze their pedigree in daily and triviall songs; which custome as yet is common both to us [i.e., Andalusis], and to the people of Barbarie also.’

«أتى الأصليون من الشعب الأسمر tawnie، أي النوميديون والبربر Barbarians إلى شمال إفريقيا «غير المأهول تماماً» من جنوب شبه الجزيرة العربية، ومن آسيا عبر اليونان، أو من فلسطين. و[كلمة] «بربر» إما من الاشتقاق المعتاد الذي يعني «رطن»، لأن اللسان الأفريقي لا يقع في آذان العرب إلا على هيئة «صوت الوحوش»، أو (عل نحو أقل شيوعاً في قصة شائعة)، لأن الملك اليمني القديم أفريقش وقد رأى نفسه مضطهداً من أعدائه ولم يكن يعرف ما سيحدث له ولأتباعه، سأل قومه عن سبيل الفرار، فأجابوه بر-بر، أي: إلى الصحراء، إلى الصحراء[...]».(36) [*]

توضح مصطلحات إثنوغرافيا ليو الأفريقي معجماً غير مستقر كان مستخدماً في تلك الفترة. «المور» Moors مشتق من كلمة ماوري Mauri القديمة، وهو مصطلح أشبه بمصطلح «الترك» الذي يعني ببساطة في بعض الأحيان «مسلم» (كما هو الحال بالنسبة إلى الإسبان الذين يطلقون على مسلمي الفلبين اسم «موروس» moros). وترادف هذه الكلمات هنا «أفارقة» (=مسلمين)، سواء كانوا من السود أو البيض، ولكن جميعهم كانوا من الناطقين بالبربرية وهم ريفيون rural أساساً.(37) وفي أغلب الأحيان، خاصة في اللغة الإنجليزية، يكون «المور» من الحضريين ذوي المهارة، أحفاد اللاجئين الأندلسيين إلى شمال إفريقيا. مثل ليو الأفريقي نفسه.

منذ القرن السادس عشر وحتى العقود الأولى من القرن التاسع عشر، أُنفقت طاقة لا حدّ لها على تصنيف السكان الذين يتملّصون باستمرار من إمكانية تصنيفهم إلى فئات. نرى في إحدى الروايات الدقيقة، كيف جرى إثبات أن «الشلوح» في جنوب المغرب يتحدثون لغة منفصلة تماماً عن لغة «بربر» الأطلس الأوسط والريف في الشمال.(38) من ناحية أخرى جُمع أول قاموس وأجرومية بربرية-أوروبية بين 1788- 1790 في باريس والجزائر، وفيهما إصرار على أن السكان من سوس إلى جربة، وهم «البربر» (الذين يعيشون في خيام على السهول، مثل العرب)، و«الشلوح» و«القبائل» (سكان الجبال) يتحدثون «اللغة نفسها»، و«ماهم في كل مكان سوى شعب واحد... وأنهم بقايا القرطاجيين والرومان واليونانيين والوندال».(39) أما بالنسبة لـ«القبايل» فإن المصطلح يظهر بشكل عام ليعني ببساطة «القبائل» (من اللغة العربية)، وأنهم على الأرجح يتحدثون البربرية، ولكن لم

يُصنَّفوا على هذا النحو. أولئك الذين وجدهم بوتين، وهو جاسوس أرسله نابليون، بين «الأتراك واليهود والزنوج واليونانيين والأرمن والموريين (أو الجزائريين) والمزابيين» في الجزائر عام 1808، كانوا بالنسبة له «عرب الجبال الذين يطلق عليهم اسم القبايل».[40] وانسحب هذا المصطلح على سكان الأطلس والظهرة جنوب وغرب الجزائر، وكذلك على سكان [جبال] جرجرة والبابور شرقاً، وفي عام 1830، كان أول إعلان أصدره الجيش الفرنسي يبدأ بـ«إلى سكان مدينة الجزائر وأهل القبائل(the people of the tribes)»، ويعني بذلك جميع السكان القرويين على العموم.

في أوائل أربعينيات القرن التاسع عشر، كان رحالة إنجليزي لا يزال يصف الجزائر بأنها أرض «المور، والقبايل، والعرب، والأتراك، واليهود، والزنوج، والكولوغليين [kuluğlari، أبناء الأتراك من أمهات شمال-أفريقيات] وغيرهم من السكان».[41]

إذا كانت الطبيعة غير الدقيقة لهذه الخريطة «الإثنية»، مرئيةً من خارجها، توضّح في حد ذاتها ممارسات التصنيف التي شعرت مصادرنا بأهميتها، فإنها توضّح أيضاً إلى أي مدى كانت جميع هذه المصادر محاولات خارجية تسعى إل تصنيف واقع اجتماعي لم يقع استيعابه تماماً. إن ما قد تعنيه أو لا تعنيه مفردات تلك المصادر بالنسبة إلى أولئك الذين تصنّفهم، وكيف يمكن أن يصنفوا أنفسهم، أبعد ما يكون عن الوضوح. السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: ما مدى فائدة البحث في تلك المصادر عن الفروق الإثنية بالنسبة إلى المعرفة السوسيولوجية المألوفة لدينا، وما مدى فائدة تلك المعرفة لفهم الاختلافات الثقافية في العالم الذي تصفه؟ هناك في هذه السرديات بطبيعة الحال عرب وبربر، بمعنى ما، من حيث هم مجتمعات لغة وتوراث. لكن هذا التمييز ليس واضحاً على الإطلاق، فضلاً عن أنه لا يمكن افتراض أنه ينقل على نحو صائب ما يوجد من تعريفات ذاتية، أو يمكّن من فهم الاختلاف الثقافي بين الأشخاص المعنيين.[42]

إن تصنيفات المراقبين الخارجيين تحمل -مع ذلك- قوة تطبيع خاصة بها، عندما تقترن تحديداً بأنواع معينة من ممارسة التصنيف التي تسنها الدولة الحديثة. إن «الخطأ» السوسيولوجي في نهاية المطاف هو أيضاً وسيلة من وسائل صنع التاريخ، وهو قادر تماماً على إنتاج شروط تحقّقه وصدقيّته. منذ منتصف القرن التاسع عشر فصاعداً، جسّدت تدابير اجتماعية وسياسية جديدة مبنية على ملاحظات الممارسة اللغوية والقانونية

تصنيفاً فئوياً بين «العرب» و«البربر« بطرق أكثر «انتظاماً»، ولكنه كان أقل دقة بكثير. لم يكن الأمر أن الإثنوغرافيا الفرنسية، للمرة الأولى منذ القرن الرابع عشر، كانت بمثابة «إعادة اكتشاف البربر كأنها أمة قائمة بذاتها» من خلال اكتشاف ابن خلدون ونشر «تاريخه».[43] بل اكتشاف ابن خلدون وقراءة تصنيفاته الفئوية –«الأمم العظيمة» في العالم- من خلال انشغالات القرن التاسع عشر بالنزعة الرومانسية والعصور القديمة، وكذلك بالحكم الإمبراطوري والعرقية racism العلمية، التي شكّلت «البربر» بوصفهم «أمة» و/أو «عرقاً» منفرداً، يمكن تحديده بشكل مستقل، أو بالأحرى، في أعين من نصبوا أنفسهم مكتشفين جُدد. وكما لاحظ بريت Brett وفنتريس Fentress: «تماماً كما إن العرب قد جرى اختراعهم من قبل العرب لغرض الفتح العربي وبناء الإمبراطورية العربية، فقد قام الفرنسيون الآن بإحيائهم أخيراً بوصفهم عرقاً خاضعاً ويجب إبقاؤهم منفصلين عن جيرانهم العرب لصالح الهيمنة الفرنسية»، ولمصلحة تقدمهم «الحضاري».[44] لقد صوّرت الأساطير الاستعمارية الفرنسية «أرض البربر» Barbary، أو شمال أفريقيا البربري، على أنها «أرض غزو» أبدية مقدّرٌ لها أن تكون مجالاً للإمبراطورية الغربية.

يعتقد الكتّاب الذين يأسرهم هذا التصوّر أنهم يجدون في «البربر» عرقاً مقداماً ومغامراً وعسكرياً من أصل غير مؤكد، وهو عرق متميز بوضوح عن «العرب»، وينتمي بشكل طبيعي إلى مجال البحر الأبيض المتوسط المتجدّد تحت تأثير الغرب. رداً على ذلك، ظهرت القومية الثقافية العربية[45] -الإسلامية في منتصف القرن العشرين خالقةً عقيدة الأمم المغاربية المتجذّرة في أوطانها الإثنية والروحية في الشرق. فالبربر، مثل بني كنعان الذين هاجروا من الشرق الأوسط منذ أعماق فجر التاريخ، كانوا «عرباً» في سجاياهم ونَسَب أسلافهم، وهم مسلمون بالإنتماء والمصير. لقد ردّ الإنتماء القومي على سرديّة إمبراطورية التحضّر والخلاص لإنقاذ البلدان المغاربية من «الفوضى» و«الطغيان» بمهمة تحضّر أخرى خاصة به، متجذرة في الماضي البعيد لشعب مستقل وُعِد بخلاصه النهائي من «الخرافات» المحلية وكذلك من القمع الأجنبي.[46]

ثمة ثلاثة عوامل متقاربة أعادت ترتيب المشهد الإثني-الثقافي في شمال أفريقيا بين ثمانينيات القرن التاسع عشر ومنتصف أربعينيات القرن العشرين، وكلها نتاج تطور مترابط ومتصل بين النزعتين الاستعمارية والقومية.

أولاً: ظهر تعريف قانوني canonical جديد ومنتشر تمثله العقيدة الإسلامية دعت إليه الحركة الإصلاحية السلفية.(47)

ثانياً: تماهي العرب والعربية حصرياً مع الإسلام، سواء من قبل المراقبين الاستعماريين المهووسين بمخاطر التخريب «العربي» و«التعصّب»، أو من قبل المتحدثين باسم القومية الثقافية المفتونين بالتجديدات الفكرية والسياسية التي يمثلها «الإسلام» و«العرب» كما تجلّت في مصر وسوريا.

ثالثاً: إعادة تصوّر «البربر» بوصفهم «شيئاً» آخر غير المسلمين الأُوَل. حتى عندما تبنى الناشطون القوميون [من البربر] «هوية أمازيغية» (تعني: حرّة أو نبيلة) في خدمة النضال ضد الاستعمار، كان الأيديولوجيون القوميون العرب يعيدون تعريف «البربر» بوصفهم أسلافاً أُوَل مقدّر لهم أن يختفوا في تاريخِ خلاصٍ مقدّس جرى تصوّره على أنه الأمة العربية-الإسلامية. وذلك يعني بالنسبة إلى الكتّاب الاستعماريين أنهم سوف «يختفون» حقاً ما لم تتمكّن السياسة الاستعمارية الحكيمة من «إنقاذهم».

بحلول أزمة إنهاء الاستعمار في خمسينيات القرن العشرين، تبلورت الحركات القومية على هيئة قوى من التنظيم الاجتماعي مع مجموعة جديدة من المؤسسات المهيمنة، مع إعادة تعريف «العرب» و«البربر» والإسلام التي أنتجت إطاراً مرجعياً مهيمناً حديثاً. وفُرض الانقسام «العربي-البربري» فرضاً باعتباره عداءً إثنياً أساسياً على ما كان من الناحية التاريخية تعبيراً أكثر دقة عن العلاقات الاجتماعية. وهكذا فإن المعرفة الاستعمارية التي أعادت القومية تشكيلها، أدغمت elided الإسلام في [مفهوم] «العرب» و«العربية»، وأنتجت ذواتاً متميزة بشكل حاد، «عربية» (= مسلمة) وأخرى «بربرية/أمازيغية»، بوصفها فئات سياسية فاعلة، حيث كانت الفئة الأولى تعني الخلاص، وتعني الثانية الهرطقة. وكانت القوة الفعالة في هذا التصنيف الفئوي هي أنه سيتم استبعاد اللغة والثقافة البربريتين قسراً، لمدة نصف قرن، من التصورات والتعبيرات المشروعة في المجتمع والأمة، ولكن بدلاً من ذلك فإن اللغة والثقافة البربريتين بعد إقصائهما من مكانهما في الأمة، صارا تعبيراً عن «أقلية» ذات هوية سياسية معارضة، خاصة في الجزائر.

لم يكن هذا أمراً يتعذّر اجتنابه، ففي فترة الاستقلال المغاربي، كان سكان الأطلس

الكبير، وسوس، والريف، والمزاب، والقبايلية والأوراس، والهقار وتاسيلي، وجربة، وجبل نفوسة، يرون أنفسهم بوصفهم مسلمين، ينتمون إلى عائلات مباشرة وممتدة، ومرتبطون بأماكن ومعالم جغرافية محددة، أما في الآونة الأخيرة فبوصفهم مغاربة أو جزائريين أو تونسيين أو ليبيين يتحدثون لغة ويمارسون ثقافة «مغربية» أو «جزائرية»، ... إلخ، دون أن يكونوا عرباً. لم يعتبروا أنفسهم عموماً من «البربر»، أو «أمازيغن» (قبل منتصف الأربعينيات على الأقل وخارج أجزاء معينة من المغرب)، وهذا الاصطلاح بوصفه اسماً إثنياً ذاتيّ النّسبة self-ascribed ومتعارفاً عليه بشكل عام بين المجموعات الناطقة بالبربرية، كان ظهوره نتاج تاريخ حديث من التشكّل الإثني، بدءاً بعام 1945 تقريباً.[48] وإذا كان تّبني القومية العربية [ذات المرجعية] المشرقية على نحو دوغمائي لم يؤثر بقوة على المذاهب الثقافية لحركات الاستقلال في شمال إفريقيا، فإن الناطقين بالعربية في البلدان المغاربية (ولعل كان أجداد العديد منهم كانوا يتحدثون لهجة بربرية) ربما تجنبوا الاختزال الإثني مع تعريف مجتمعهم الثقافي بديهياً على أنه «عربي». حتى الخمسينيات من القرن العشرين، كان لا يزال من الممكن التعبير عن الثقافة والهوية المغاربيتين بإدغام الاختلاف العربي-البربري، والتطلّع إلى مجتمع وطني يكون «عربياً-بربرياً-مسلماً» دون أن يسود «مفهوم الآخر»، أو يكون هناك أي إكراه أو اغتراب في أي من تلك الاصطلاحات. أحد الدعاة الفصحاء الذين عبروا عن وجهة النظر هذه كان الشاعر القبايلي قاسي اوديفلة نايت سيدي براهام، المولود عام 1898، وقد كتب بين عام 1936 ووفاته عام 1950.[49] وكان الخلاص المؤقت والأبدي بالنسبة إليه يكمن في الإسلام، وفي تاريخ الخلاص الذي يشترك فيه «العرب» و«البربر»، بلغاتهم وثقافاتهم المتميزة والمتساوية.[50]

هذه هي كلمات القبايلي	*Wa yenna-t id Weqbayli*
ما زال يتكلم	*Mazal yessuli*
كل يوم يقول المزيد	*Kullas irennu-d kra*
يحبّ ما هو خير	*Yethibb' ayen n lεali*
ليس وليّاً	*Mačči d lwali*
يرغب في ترك علامات واضحة	*Yebγ' a-ṭ-idd-yeğğ d ccira [...]*
سطع القمر المضيء	*Yeffeγ-ed waggur n tziri*
ليضيء الجزائر	*Tedwa Laljiri*

أيها القارئ العارف افهم قولي	*Ya lqari fhem lhedra [...]*
وصل علم العصر	*Yusa-d lɛilm aɛsri*
يفتح أعين الرجال	*Yeld' i-medden izri*
الذين يبحثون عن أصولهم	*Feqden madden ccağara*
عن تاريخ الأنصار	*S-ttarix l'ansari*
اسأل العارفين	*Seqsit lqari*
وعن تاريخ الهجرة	*γed zzman n lhijra*

كان الوعد بالقومية بالنسبة إلى قاسي لا يزال وعداً تحررياً، سواء في منطقة القبايل أو الأطلس أو الأوراس، و«لم تكن هناك حاجة للتحدث بالعربية لكي تكون مسلماً صالحاً».(51) وكان بإمكان الشاعر أن يخبر مستمعيه في منطقة القبائل بأن «يبحثوا عن أصولهم» في «تاريخ الأنصار» وفي «زمن الهجرة»، ولم يكن ذلك يعني التخلي عن «الهوية البربرية» أمام «دين عربي». لكن تعبئة مجتمع أخلاقي إسلامي منضبط وسلطوي كأساس للانتماء السياسي القومي منعت التعددية الثقافية، إلى جانب كل «الانقسامات» و«الانحرافات» الأخرى، ثم تم التعامل مع محاولات تأكيد الرؤى الأكثر شمولاً وتعقيداً تاريخياً في «الأمة» على أنها بدع وهرطقات يجب كبحها.

إن التعريفات الذاتية المشروعة رسمياً في شمال إفريقيا المستقلة من شأنها أن تحيل اللغات والثقافات الأمازيغية إلى دلالة على التخلف والجهل –ريفيون، أميون، جاهليّون– وتترك اللغة العربية باعتبارها اللغة الشرعية الوحيدة في الدولة الوطنية والثقافة الوطنية.

لم يكن من الممكن هنا على نحو كاف متابعة تاريخ بناء وإعادة بناء معاني الاختلاف الإثني في السجل المكتوب في التاريخ المغاربي، من العصور القديمة وحتى الفترة الإسلامية المبكرة، إلى روايات الرحلات الحديثة المبكرة، والإثنوغرافيا الاستعمارية، والسياسات القومية والصراعات الاجتماعية المعاصرة. بل يكون من الأصعب بناء سردية تاريخية مُرضية تعرض ممارسات الدلالة الاجتماعية «من الداخل»، أو من «أسفل»، وراء تلك الممارسات التي المحت إليها المصادر الوثائقية. لقد حاولت ببساطة أن أوضح، من خلال أمثلة قليلة فقط تختزل فترة زمنية طويلة، كيف تم بناء الهوية الاجتماعية في البلدان المغاربية بشكل أولي من خلال الاصطلاح الإسلامي العام، وكيف تجاوزت ادعاءات

[مطالب] المكانة داخل الإسلام معنيي «عرب» و«بربر». وقد تحولت هذه العمليات بدورها بشكل أساسي إلى توسيع أو تقليص سلطة الدولة وإعادة تشكيل الوضع الاجتماعي المحلي وتماسك المجتمع. إن تشكيل الدولة وممارسة السيادة، والاندماج في الدولة أو الخروج عليها، وفئاتها الشرعية وغير الشرعية، والولاء أو الإقصاء، أو –بمصطلح ديني– الهرطقة والخلاص، كل ذلك كان حاسماً في صياغة وإعادة صياغة معجم الذاتية الاجتماعية. إن الرعاية و«إضفاء الطابع القومي» اللذان يُعرَضان الآن على الثقافات الأمازيغية في أكبر دولتين مغاربيتين (دون الإشارة إلى قطيعة جذرية مع التاريخ السابق)، يقدّمان ببساطة حلقة أخرى من حلقات هذا التاريخ. ويبقى أن نرى ما إذا كانت إعادة ترتيب العلاقة هذه بين تكوين المجتمع، والدولة، والشعوب العربية/البربرية المترابطة بشكل لا ينفصم في المنطقة، يمكنها أن تساهم في وضع تعريف جديد للعرب والبربر، لا لمجرّد اعتبارهم متساوين في خضوعهم للدولة، ولا كأمازيغ طوباويين («رجال أحرار»)، ولكن بوصفهم مواطنين يقرّرون مصيرهم في دول تكون سيادتها تعبيراً عن سيادتهم.

***

■ العنوان الأصلي:

James McDougall; Histories of Heresy and Salvation: Arabs/Berbers, Community and the State. In K.E. Hoffman and S. Gilson Miller (eds), *Berbers and Others: Beyond Tribe and Nation in North Africa*. Indiana University Press, 2010

■ هوامش ومراجع:

1. Qu'est-ce qu'une "tribu" nord-africaine?' in *Maghreb, histoire et sociétés* (Algiers: SNED, 1974).

2. انظر:

Kamel Chachoua, 'Cité arabe/cité berbère: archéologie d'une di-vision', in *Hélène Claudot-Hawad, ed., Berbères ou Arabes? Le tango des spécialistes* (Aix-en-Provence: Edisud, 2006)

حول توظيف التقسيم «عرب-بربر» الذي يتعلق بمفاهيم الاستقرار والريف والحضر في علم الاجتماع الفرنسي في القرن التاسع عشر، تعرض الدراسات الأخرى في المجلد نفسه إعادة فحص نقدي متعدد الأوجه لتاريخ دراسة المجتمعات البربرية بشكل عام.

3. *Histoire des Berbères*, 4 vols., (Paris : Geuther, 1927) [2 vols., Algiers : Imprimerie du gouvernement,1847].
4. Ernest Gellner and Charles Micaud, eds., *Arabs and Berbers: From Tribe to Nation in North Africa* (London: Duckworth, 1973).
5. In the introductory essay to Barth, ed., *Ethnic Groups and Boundaries: The Social*

Organization of Culture Difference (Boston: Little, Brown, 1969).

6. أتفق هنا مع تحليل أنتوني كوهين A. Cohen لبناء الهوية الجماعية والفردية باعتباره «وعياً ذاتياً»، وليس علائقياً بحتاً، على الرغم من أنني أفضّل تشديد بول ريكور على البناء السردي للهوية مقارنة بـ«الذات الجوهرية» core self لكوهين.

Anthony P. Cohen, *Self Consciousness: An Alternative Anthropology of Identity* (London:Routledge, 1994).

Ricoeur, "Narrative identity", Chap. 11 in David Wood, ed., *On Paul Ricoeur. Narrative and Interpretation* (London: Routledge, 1991).

للاطلاع على تكوين الجماعة الموجودة في سياق صراع اجتماعي ومنافسة سياسية، انظر:

Pierre Bourdieu, "The social space and the genesis of groups," *Social Science Information* 24, 2 (1985): 195-220.

للاطلاع على السرديات الذاتية الأمازيغية/البربرية الحالية التي تحشد الخطابات المحلية حول السكان الأصليين والخطابات النتقالية حول حقوق الإنسان، انظر:

Susan Slyomovics, "Self-determination as selfdefinition: the case of Morocco," Chap. 6 in Hurst Hannum and Eileen Babbit, eds., *Negotiating Self-Determination* (Lanham MD: Lexington, 2006).

7. تأسست اللجنة العليا للأمازيغية (HCA) في الجزائر عام 1995، وتأسس المعهد الملكي للغة والثقافة الأمازيغية (IRCAM) في المغرب عام 2001، وكلاهما يتولى مسؤولية خاصة عن برامج تنفيذ تدريس اللغة البربرية/الأمازيغية في المدارس.

8 للاطلاع على نقد وجهة النظر هذه، انظر:

Sami Zubaida, "Is there a Muslim society? Ernest Gellner's sociology of Islam," *Economy and Society* 24, 2 (May 1995):151-188.

9. David Crawford, *Moroccan Households in the World Economy. Labor and Inequality in a Berber Village* (Baton Rouge: LSU press, 2008):21.

10. Fanny Colonna, "The nation's "unknowing other': Three intellectuals and the culture(s) of being Algerian," in James McDougall, ed., *Nation, Society and Culture in North Africa* (London: Routledge, 2003), pp. 155-170.

11. أدين بهذه النقطة لسالم شاكر.

12 الكاهنة، ملكة متنبّة أيقونية بربرية شهيرة، تنبأت بانتصار العرب وأتاحت لأبنائها الانضمام إليهم بعد هزيمتها.

حول تأريخ الكاهنة، انظر:

Abdelmajid Hannoum, *Colonial Histories, Postcolonial Memories: The Legend of the Kahina, a North African Heroine* (Portsmouth: Heinemann, 2001).

13. للاطلاع على نظرة عامة، خاصة في ما يتعلق بالاستعباد والتبعية، انظر:

Michael Brett, "The Arab conquest and the rise of Islam in North Africa," Chap. 8 in J.D. Fage, ed., *The Cambridge History of Africa*, Vol. II (Cambridge, U.K.: Cambridge University Press, 1978) ,501-6.

وحول التعريفات العربية الكلاسيكية للأصل العرقي البربري، انظر: عزيز العظمة، «العرب والبرابرة»، رياض الريس للكتب والنشر، لندن، 1991، 55، 83.

14. الورتلاني، «ليس في المغرب العربي بربر»، في كتابه «الجزائر الثائرة»، دار الكتاب العربي، بيروت، 1956، الاقتباسات في الصفحتين 49، 51.

15. حظيت الحادثة بتغطية واسعة في الصحافة الجزائرية. انظر:

Liberté, El Watan, 20 September 2005.

وبعد بضعة أيام، في قسنطينة، أعلن الرئيس أنه في حين تم إعلان الأمازيغية «لغة وطنية» إلى جانب اللغة العربية، فإن اللغة العربية يجب أن تظل اللغة «الرسمية» الوحيدة في البلاد (Liberté, 24 September 2005).

16. في مقدمة كتبها عمار وردان:
La Question berbère dans le mouvement national algérien, 1926-1980 (Quebec: Septentrion, 1990)

مقتبس في:
Maya Shatzmiller, *The Berbers and the Islamic State* (Princeton: Markus Wiener, 2000), xi.

17. Laroui, *The History of the Maghreb: An Interpretive Essay* (Princeton: Princeton University Press, 1977), 87.

18. في ما يتعلق بـ«المور السّمر» the tawny Moores (البربر) لاحظ ليو الأفريقي في القرن السادس عشر أن «الذين يسكنون بالقرب من العرب، ويمارسون معهم الكثير من التجارة، يستخدمون لغتهم في الغالب». انظر:
Geographical Historie of Africa, English trans. and ed. of *Descrittione dell'Africa*, by John Pory. (Amsterdam, 1969, facsimile of London, 1600 edition), 8.

19. في ما يسمّى «الدوناتيّة»، أزمة القرن الرابع/الخامس في المسيحية الأفريقية التي ينظر إليها كتاب الكنيسة اللاتينية الغربية على أنها هرطقة (بدعة) طائفية. صُوّر جنودها المشاة، «الجوّالون»، على أنهم طائفة انتحارية عنيفة ومختلّة. أما في التدوين التأريخي الحديث، فقد أصبحوا حركة اجتماعية ثورية، ومتمردين بربر، لكن مصطلح «الجوّالين» ربما لم يكن يعني في الأصل أكثر من الإشارة إلى عمّال فلاحيين موسميين، غير إن «الدوناتيّين» لم يشيروا إلى أنفسهم على هذا النحو قط. لمناقشة هذا الأمر، أنا ممتن جداً لبرنت شو Brent Shaw. انظر كتابه:
"Who were the Circumcellions?" Chap. 11 in A.H. Merrills, ed., *Vandals, Romans and Berbers. New Perspectives on Late Antique North Africa* (London: Ashgate, 2004), and "African Christianity: disputes, definitions and 'Donatists' ", Chap. 10 in Shaw, Rulers, *Nomads and Christians in Roman North Africa* (London: Ashgate, 1995).

20. "Hérésie, acculturation et nationalisme des Berbères bargawāta," in *Proceedings of the first congress of Mediterranean studies of Arabo-Berber influence* (Algiers: OPU, 1973), 217-33. Quotes at 217, 220, 228.

يشير الطالبي إلى أن الطائفة كانت موجودة حتى عام 1148، واستسلمت في النهاية أمام الخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي، في حين أن المصدر الرئيسي، البكري (انظر الحاشية 31 أدناه)، يفهم خطأً أنهم قد أُبيدوا عام 1029.

21. المرجع نفسه، 228، 221، 225.

22 المرجع نفسه، 225. ناحوم سلوش Nahum Slousch مؤكداً وجود عناصر يهودية في الحركة، أشار بمفارقة تاريخية مماثلة إلى برغواطة بوصفها «أكثر الديانات قومية وإفريقية». انظر:
"L'empire des Berghouata," *Revue du monde musulman* 10, 3 (1910): 396, quoted in H.T. Norris, *The Berbers in Arabic Literature* (London: Longman, 1982), 95.

23. تجدر الإشارة هنا إلى أن المصدر النقدي الذي اعتمده الطالبي ومكّنه من إعادة وضع التسلسل الزمني لأصول الحركة، يعد نموذجياً ويظل مهماً لفهم الروايات العربية. لكن نزعة الحاضر presentism في تفسيره هي التي تبدو إشكاليةً.

24. Norris, *Berbers in Arabic Literature*, 94.

25. لم يبق إلا جزء من «وحي برغواطة»، محفوظ في البكري. وعلى الرغم من استعارة بعض الشخصيات والموضوعات القرآنية، إلا أنه كان على ما يبدو تأليفاً جديداً ولا ينبغي الخلط بينه وبين نسخ القرآن نفسها التي كُتبت بالأمازيغية في فترة العصور الوسطى أو في زمن أحدث.

26. Norris, *Berbers in Arabic Literature*, 94.

27. يعتقد نوريس (المرجع نفسه، 248 رقم 14) مستشهداً بالبكري، أن صالح زمور بن موسى، سفير برغواطة إلى قرطبة، كان «عليماً بالقرآن كما يبدو واضحاً»، لكن هذا غير واضح من نص البكري نفسه. وبحسب ما ورد فإن زمور كان يعتمد على مترجم للتحدث مع الأندلسيين باللغة العربية. ويشير إلى الآية ذات الصلة في «قرآن محمد» للدعوة إلى نبي برغواطة وتمكينه، ولكن لا يمكننا أن نستنتج من هذا معرفة شاملة بالنص بأكمله. يستنتج نوريس أن بربر تامسنا كانوا يعرفون المصحف القرآني جيداً «للاستفادة منه في تأليف [...] نصوص طقسية تمثل بدعتهم»، ومن المؤكد أن هذا يفترض وجود «تأليف» ذرائعي واعٍ. لكن على العكس من ذلك، قد يبدو من الأرجح أنه لو كان القرآن منتشراً على نطاق واسع وكانت أشكال السلطة الأكثر شرعية راسخة بالفعل، لكان من الصعب ترويج «وحي» مبتكر مثل ذلك الذي جاء به يونس. إن الالمام الغامض بالقرآن، والشعور بقوته وبعض صوره ومصطلحاته، وفكرة أن مثل هذا الوحي كان بلا أساس تبدو أكثر ترجيحاً لفهم خلفية الحركة.

28. القياس الحديث المناسب، من حيث الابتكار والموقع الجغرافي «على الهامش» هو «أمة الإسلام» التي أسسها و. د. فارد W.D. Fard وإيليا محمد Elijah Muhammad وظهرت في الولايات المتحدة في ثلاثينيات القرن العشرين، مع فارق حاسم يتمثل في أن عقيدة بورغواطة لا تبدو أنها تضمنت رسالة إثنية أو عرقية.

29. Michael Brett and Elizabeth Fentress, The Berbers (Oxford: Blackwell, 1996), 102, 92.

30 هناك مصدران رئيسيان: ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب.

Ibn Idhari, *Al-bayan al-mughrib fi akhbar al-andalus wa'l-maghrib*, G.S. Colin and E. Lévi-Provençal, eds., (2 vols, Leiden: Brill, 1948), I, 56-7.

والبكري، كتاب المسالك والممالك.

al-Bakri, *Kitab al-masalik wa'l-mamalik*, excerpt with trans. by de Slane as Description de l'Afrique septentrionale, rev. ed., (Paris: Maisonneuve, 1965), 134-41 in the Arabic text, 259-71 in the French.

ونقل عن البكري مؤلفون لاحقون أبرزهم ابن خلدون، في كتاب العبر، (7 مجلدات، بولاق، دار الطباعة الخديوية، 1284 [1867-1868])، الجزء الثاني، 207- 210 (والجزء الثاني، 125-133 في ترجمة دي سلان).

إن رواية البكري عن برغواطة وملوكهم هي إثنوغرافيا غريبة. فيونس وخليفته أبو غُفَير يحمد بن معد، غازيان ملطخان بالدماء؛ الأول يخرب 387 بلدة تقاومه، ويذبح 7770 من المعارضين. ويستغرق الأخير أسبوعاً (من الخميس إلى الخميس) منهمكاً في ذبح سكان بلدة واحدة. كما أثبت أبو غفير براعته بزواجه من 44 امرأة، كل واحدة منهن أنجبت له ولداً. أما خليفته عبد الله أبو الأنصار، والد سيد زمور، فهو من ناحية أخرى نموذج للتقوى والعدل والحكم السلمي والرأفة. هذا معرض من أنواع خيالية متصوّرة، ومهما كان أساسها من المعلومات التاريخية، فإن رواية البكري عن برغواطة تطرح مشاكل واضحة في التفسير.

31. Brett, "Arab conquest," 555.

32. انظر، على سبيل المثال، جاك بيرك، التركيبات الاجتماعية في الأطلس الكبير (باريس: PUF، 1955) الفصل 5. عن شيشاوة.

Jacques Berque, *Structures sociales du Haut Atlas* (Paris: PUF, 1955) Chap.5.

وعن الأوراس، انظر:

Fanny Colonna, “Discours sur le nom: identité, altérité,” *Peuples méditerranéens* 18 (Jan.-March 1982): 59-65.

وعن بني هلال وبني سليم، انظر:

Michael Brett, *Ibn Khaldun and the Medieval Maghreb* (Aldershot, UK: Ashgate, 1999), Chap. 9. 33.

وانظر نص كتاب «مفاخر البربر»، وهو مديح إسلامي يشيد بشعب شمال أفريقيا، في:

Muhammad Yala, *Tres Textos árabes sobre Beréberes en el Occidente islámico* (Madrid: CSIC, 1996), 125-272.

وحول رحلة بني هلال، وفق الرواية الجزائرية في القرن العشرين، وهي ملحمة رومانسية عن تاريخ الهجرات العربية في القرن الحادي عشر إلى شمال إفريقيا، انظر:

Youssef Nacib, *Une geste en fragments* (Paris:Publisud, 1994).

ووفق الرواية التونسية، انظر:

Lucienne Saada, *La geste hilalienne* (Paris: Gallimard, 1985)

ووفق لرواية المصرية، انظر:

Susan Slyomovics, *The Merchant of Art* (Berkeley and Los Angeles: University of California Press, 1987).

34. Leo Africanus, *Geographical Historie*, 7.
35. Ibid., 10.
36. Ibid., 5-6.

37. فهِمَ جون بوري John Pory، وهو باحث في جامعة كامبريدج، ترجم وحرّر ليو الأفريقي إلى الإنجليزية، أن أفريقيا مأهولة «بخمس أمم رئيسية، أي الشعب الذي يطلق عليه كافري Cafri أو كافاتيس Cafates [الكفّار]، أي الخارجين عن الشريعة، والأحباش [الإثيوبيون]، والمصريون، والعرب، والأفارقة أو المور، كما يطلق عليهم بشكل صحيح؛ و[الأمة] الأخيرة من نوعين، وهما المور البيض أو السمر، والمور السود أو الزنوج». المرجع نفسه، المقدمة، 6.38.

J.G. Jackson, *An Account of the Empire of Marocco, and the District of Suse and Tafilelt* (London, 1811).

39. Jean-Michel Venture de Paradis, *Grammaire et dictionnaire abrégés de la langue berbère* (publ. Paris: Imprimerie royale, 1844, from Venture’s manuscript of 1790).

كان مصدره مغنيان مغربيان ناطقان بالبربرية يعملان في باريس، وطالبان من مدرسة جزائرية من إيفليسن في منطقة القبائل.

40. V-Y Boutin, *Reconnaissance des villes*, forts, et batteries d’Alger (G. Esquer: Paris, Champion, 1927).

إن موقع الإباضيين المتميز من المزابيين الناطقين بالبربرية في هذه التصنيفات الإثنية يستحق دراسة خاصة به.

41. J.H. Blofeld, *Algeria, Past and Present* (London, 1844).

لا يزال فهم بلوفيلد لجغرافيا شمال إفريقيا وإنتمائه الإثني، وهما مترابطان، محافظاً على ما صنفه بطليموس وبليني وسترابو. انظر أيضاً، على سبيل المثال:

Louis de Chénier, *Recherches historiques sur les maures*, 3 vols., (Paris, 1787; English trans, *The Present State of the Empire of Morocco*, London, 1788)
Joseph Morgan, *Complete History of Algiers* (London, 1731)
Thomas Shaw, *Travels or Observations Relating to Several Parts of Barbary and the*

Levant (London, 1738).

42. تحاول شانتال دي لا فيرون C. de la Veronne بناء قضية لإنجاز تمييز واضح في المصادر الأوروبية بين «البربر» و«العرب» في أواخر القرن الخامس عشر، وهو تمييز يختفي «مع فقدان البربر لنفوذهم» في القرن السادس عشر.

"Distinction entre Arabes et Berbères dans les documents d'archives européennes des XVIème et XVIIème siècles, concernant le Maghreb," in *Proceedings of the first congress of Mediterranean studies of Arabo-Berber influe /nce* (Algiers, OPU, 1973), 261-65).

ومع ذلك، فإن الأدلة التي قدّمت في الاستخدامات المتعددة والمتداخلة بشكل واضح لشرح موروس mouros، مورُس moros، برباروس barbaros، ألارڤس alarves، إلخ، لا تدعم هذا التقسيم الدقيق، حتى مع افتراض أن واحداً منها «يجب» أن يوجد. لقد حُدّد الموطن ونمط الحياة واللغة والدين في هذه المصادر بأسماء إثنية غير دقيقة لا تعكس واقعاً «إثنياً» قاراً. فضلاً عن أنه لا يمكن افتراض أن هذه التسميات تتوافق مع فهم-الذات بالنسبة إلى الجماعات المعنية

43. Brett and Fentress, *The Berbers*, 184.

44. Ibid., 190.

45. انظر:

René Basset and Charles Pellat in the *Encyclopaedia of Islam*, 2nd ed., 1960, s.v. "Berbers: Literature and art," (I, 1185)

«بقدر ما يمكن للمرء أن يذهب إلى الماضي، لم تمتلك أرض البربر Barbary (أرض الفتح)، أي لغة حضارية أخرى غير لغة الفاتحين [الأجانب]»؛ انظر أيضا:

G.-H. Bousquet, *Les Berbères* (Paris: PUF, 1957)

حيث «تاريخ شمال أفريقيا »ليس سوى« تاريخ هيمنة [أجنبية] » (ص 28-29).

46. للاطلاع على قراءة قومية لمكانة البربر في التاريخ، راجع كتابي:

"Myth and countermyth: 'the Berber' as national signifier in Algerian historiographies", *Radical History Review* 86 (Spring 2003): 66-88.

47. انظر:

"Salafiyya" in *Encyclopaedia of Islam* II.

Jamil Abu-Nasr, "The salafiyya movement in Morocco: the religious bases of the Moroccan nationalist movement." St Antony's Papers 16 (1963), 90-105.

Ali Merad, *Le réformisme musulman en Algérie, 1925 - 1940. Essai d'histoire sociale et religieuse* (Paris and the Hague : Mouton, 1967).

48. كان المتحدثون باللغة الأمازيغية في المغرب الأوسط في السابق يستخدمون هذا المصطلح كتسمية ذاتية جماعية، على الرغم من وجود كلمات مشتركة في الصحراء، مثل إموهاغ وإماجيغن. انظر ملاحظة جين غودمان J. Goodman عن الندرة النسبية للمصطلح كوصف ذاتي بين مصادرها من القبايليين:

Berber Culture on a World Stage: From Village to Video, (Bloomington: Indiana University Press, 2005): 11.

وكذلك:

Salem Chaker, "Amazig (Amazigh), 'le/un Berbère,'" , *Encyclopédie berbère* (26 vols., in progress, Aix-enProvence: Edisud, 1984-): IV, 562-568.

إن إضفاء الطابع المؤسسي على هذا المصطلح مؤخراً في النصوص العربية والفرنسية التي أنشأت مؤسسات الأمازيغية في المغرب والجزائر هو شهادة على نجاحه الملحوظ تماماً.

49. Tassadit Yacine, *Poésie berbère et identité* (Paris : Maison des sciences de l'homme,

1987).

50. المرجع نفسه، القصيدة 11 (ص 198-9). الترجمة الإنجليزية مقتبسة من نسخة ياسين الفرنسية. (الأنصار هم الذين ناصروا النبي في تأسيس أول نظام اجتماعي إسلامي في المدينة بعد هجرته من مكة).

51. Mohand Khellil, *La Kabylie ou l'ancêtre sacrifié* (Paris: 'Harmattan, 1984) quoted in Gabriele Kratochwil, *Die Berber in der historischen Entwicklung Algeriens von 1949 bis1990* (Berlin: Klaus Schwartz Verlag, 1996), 146.

وعن المسألة نفسها بالنسبة إلى المغرب، انظر:

Kratochwil, *Die Berberbewegung in Marokko. Zur Geschichte der Konstruktion einer ethnischen Identität* (Berlin: Klaus Schwartz Verlag, 2002), 392.

***

بعض المصطلحات وفق ترجمتها في هذا البحث

آخرية، مفهوم الآخر	Otherness	توراث	Heredity
إثني-لغوي	Ethnolinguistic	ذاتية	Selfhood
أداتية	Instrumentality	ثنائية إثنية	Ethnic dualism
أرخنة أسطورية	Mythography	رعاية، ولاية	Patronage
اسم إثني	Ethnonym	سجلات تاريخية	Chronicles
إضفاء طابع رسمي	Officialization	عبر-تاريخية	Trans-historical
إضفاء طابع عرقي	Racialization	عرق	Race
إضفاء طابع قومي	Nationalization	متحدثو البربرية	Berberophones
إعادة تأهيل	Rehabilitation	مسيحاني	Messianic
أقلية إثنية	Ethnic minority	مهدوي	Mahdist
إنتماء إثني، إثنية	Ethnicity	نزعة طائفية	Sectarianism
بدئي	Primordial	نزعة قومية	Nationalism
تأريخ مدوّن	Historiography	نزعة قومية بدئية	Proto-nationalism
تسمية ذاتية	Self-designation	نزعة، نزوع بربري	Berberism
تسمية نسبية	Ascriptive naming	نصيّ (كتابي)	Scriptural
تصنيف إثني	Ethnic classification	فئة مسبقة	Prior category
تصنيف نسبي	Ascriptive labelling	هرطقة، بدعة	Heresy
تطبيع	Naturalization	هوية عرقية	Racial identity

«ديا»، الملكة المنسية

عناصر السيرة ومعالم الأسطورة

جمال لخلوفي*

تقديم

الكتابة التاريخية ترجمة؛ والترجمة خيانة، كما يقول المثل الإيطالي الشهير. من أجل ذلك، لا بدّ أن تدرك كل محاولة للقبض على الوقائع التاريخية حدودها، ويتعيّن عليها أن تحدّد، منذ البداية، الرؤية التي تنهل منها، والمنهج الذي تستخدمه. وهكذا، ينفتح التاريخ أمام مخيلة الباحث؛ فيصير ممكناً الدفاعُ عن كتابة يغدو معها القبض على الأحداث مسعًى لإعادة إحيائها، أو بلغة المسرح والسينما إعادة تمثيلها. وفي هذا يتداخل الخيالي والواقعي، الذاتي والموضوعي، التفسير والفهم ثم التأويل. وهو بذلك تصوّر للمعرفة ي يمرّ عبر المفارقات، غير أن الكلمات الحقيقية دائماً ما تكون منطوية على هذه المفارقات، ولا يمكن لأي شكل من أشكال التعليم أن يحل محلّها، كما يقول الحكيم الصيني لاوتسه.(7)

وقد قرّرنا وضع مقدمات لإعادة كتابة أسطورة «ديا» الملقبة في كتب المؤرخين بـ«الكاهنة»، وفق رؤية تعي أسسها؛ فاختارت المرور عبر المسالك الوعرة بين الواقع والأسطورة، باعتبار أنّه لا وجود لكتابة تاريخية منفصلة عن هذين البعدين، مهما حاولت أن تخفي العناصر الأسطورية الثاوية فيها. وبهذا، ينقسم البحث إلى عنصرين؛ نتتبّع في الأول العناصر الأساسية المشكلة لحياة وسيرة «ديا» كما احتفظت بها المصادر والمراجع

(*) الكلية المتعددة التخصصات بسلوان.

7. لاوتسه تشانغ تس، نقلاً عن إريك فروم، 2007، ص. 72.

التاريخية. وفي الجزء الثاني، نحاول تحديد المعالم التي ساهمت في صناعة أسطورتها.

1. الملكة ديا: عناصر السيرة

تنتسب ديا إلى قبيلة جروة زناتة Jrāwa Zenata [8] وقد اتّفقت المصادر على لقبها الذي هو «الكاهنة»، لكنّها اختلفت في اسمها، فكانت توسم بالكاهنة، إلى غاية ابن خلدون الذي عرّفها على أنّها «دهيا»، وقدم سلسلة نسبها[9] ويذهب بعض المؤرخين إلى أن اسمها «ديا» Diya[10] وبعض آخر إلى «داميا» Damya،[11] في حين يؤكد شارل إمانويل دوفورك Charle-Emmanuel Dufurcq أن أصل الاسم لاتيني «داميانا» Damiana.[12] ويمتد هذا التباين حول الاسم إلى معناه ومصدر اشتقاقه؛ فقيل اسمها «دهيا تدموت» Dyhia Tadmut ومعناه الغزال الجميل. وقيل داميا Damya ويحيل إلى معرفة المستقبل وقراءة الأفكار. أما في اليونانية، فيشتق من Karina وتعني الكائن الصافي أو النقي، ويقترب في العبرية من Cohen بمعنى الراهب. ومعنى اسمها مرتبط كما يقول جون دوجو Jean Dejeux بالتنبّؤ والاطّلاع على المستقبل، والسحر.[13] وتنقل بعض القصص والأساطير حكايات عن قدراتها التنبؤئية في كشف الجواسيس.[14] وحتّى اللّقب، الذي قلنا أنّه موضع اتّفاق، أُختُلف في معناه، انطلاقاً من الاشتقاق والأصل الذي أُخِذ منه (عربي أو عبري «كهين»).

كما تحيط ظلال من عدم اليقين بالكثير من جوانب شخصية **ديا**، من جهة أصولها

8. Naylor, 2009, p. 65.
9. Elle aurait été «fille de Tabeta (ou Mâtiya), fils de Tifan (ou Nîcan), fils de Baoura, fils de Mes-Kesri, fils d'Afred, fils d'Ousîla, fils de Guerao » (trad. De Slane, t. III, p. 193). Cette famille aurait dirigé les Djeraoua, tribu alors à la tête des Botr, deux ethnonymes jusque-là jamais mis en relation avec la résistance berbère.» Y. Modérann, 2005 [En ligne], mis en ligne le 01 juin 2011, consulté le 02 février 2017. URL : http://encyclopedieberbere.revues.org/1306.
10. وقد فضلنا استخدام هذا الاسم بالنظر لسهولته، كما يمكن أن يكون اختصاراً لأي اسم من الأسماء التي أوردها المؤرخون.
11. Zéraoui, 2007, p. 10.
12. Cité par Dejeux, 1987, p. 79.
13. Ibid, 78.
14. Gaid, 1990, p. 204.

وديانتها؛[15] فالعديد من القبائل البربرية كانت قبل الإسلام تعتنق اليهودية، حسب ابن خلدون. وقد أدى هذا الرأي إلى توجيه الكثير من الكتابات حول معتقداتها. غير أن هناك رأيا يقول بمسيحيتها، لتيمّنها -حسب بعض الروايات- بنصب يجسّد المسيح أو العذراء. وهناك من قال أنّها إحيائية animiste ، بينما ذهب آخرون إلى الدفاع عن وثنيتها.[16] والحقيقة أنه يصعب الحسم في المسألة بالنظر إلى قلة المعطيات. لكنّنا نعتقد أن النقاش يمكن أن يتطور، إذا أخذنا بعين الاعتبار التفاعلات التي يمكن أن تكون قد حدثت بين هذه المعتقدات، وذلك بالاعتماد على الشواهد الأنثروبولوجية من المنطقة، والتي نجد فيها الكثير من عناصر الديانات المختلفة، بما يمنح للتدين طابعاً خاصاً ومميّزاً.[17]

وقد دخلت **ديا** التاريخ بعد مقتل كسيلة؛[18] فقد طلب حسان بن قيس المنتصر معرفة أكبر تهديد ينتظره فأخبروه عنها،[19] حيث كانت السيطرة على شمال إفريقية متوقفة على إنهاء مقاومتها؛[20] إذ استطاعت قيادة تحالف قبليّ واسع، وعلى خلاف كسيلة الذي استند إلى الرومان، واستفاد من غفلة عقبة بن نافع، استندت **ديا** إلى عناصر القوة المحلية، وكانت مواجهتها مباشرة مع جيش المسلمين، وأدارت المعركة التي انتهت بانتصارها،[21] وبتعقّبها لقائد المسلمين إلى غاية المنطقة المعروفة إلى اليوم بـ«قصور

---

15. Cité par Dejeux, Ibid., p. 724.
16. Modérann, op. cit.
17. يمكن الرجوع إلى كتابنا: الإسلام المغربي: محاولة في التركيب، مكتبة القبس، 2017حيث نتوقف مع التغيرات التي لحقت الإسلام والمعتقدات الدينية المحلية حين تفاعلا مع بعضهما.
18. Koceila mort, ce fut une femme qui releva le drapeau de l'indépendance africaine. Dihia ou Damia, qui gouvernait la tribu zénatienne des Djeraoua, fut mise à la tête de la confédération berbère.» Fallot, 1887, p. 130.
19. Piquet, 1917, pp. 65-66.
20. «لما دخل حسان القيروان، أراح بها أياماً. ثم سأل أهلها عمّن بقي من أعظم ملوك إفريقية، ليسير إليه، فيبيده أو يسلم؛ فدلّوه على امرأة، بجبل أوراس، يقال لها الكاهنة؛ وجميع من بإفريقية من الروم منها خائفون، وجميع البربر لها مطيعون، فإن قتلتها، دان لك المغرب كله، ولم يبق لك مضاد ولا معاند». ابن عذاري المراكشي، 1993، ص. 35.
21. «ولما قتل زهير بن قيس ببرقة، استعمل عبد الملك بن مروان حسان بن النعمان الغساني على إفريقية، فخرج إليها في المحرم سنة ثمانية وستين، فلقي عساكر الكاهنة بأرض قابس، وعلى مقدمتها القائد الذي كان مع كسيلة بن لمزم، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فقتل صاحب خيل حسان بن النعمان، وانهزم حسان وأصحابه إلى المنهل =

حسان».[22] فحققت السيادة على المنطقة الممتدة من جبال الأوراس شرق الأطلس إلى غاديس الواحة الموجودة في ليبيا، في الفترة الممتدة بين 695 و700م (على خلاف بين الباحثين).

لكن **ديا** أدركت أنّها مسألة وقت قبل استئناف الحملات العسكرية. وقد رأت أنّ السبيل الوحيد لعرقلتها هو حرمانها من تحقيق أهدافها بجعلها دون غنائم متوقّعة؛ فلجأت إلى «سياسة الأرض المحروقة».[23] ورغم أنّنا نعتقد أنّ المبالغات قد أحاطت بالأخبار التي رافقت هذه الاجراءات،[24] إلا أنّها مع ذلك قد تسبّبت بضرر بالغ في العلاقات والتحالفات القبلية التي شكّلت عمق قوة **ديا** العسكرية في مواجهتها الأولى مع المسلمين، وهو ما تسبّب في انفراط عقد تحالفها، بل وتذكر المصادر أنّ العديد من قبائل هذا التحالف قد بدأت بالتواصل مع المسلمين قبل انطلاق حملتهم.[25]

وهكذا، أحست **ديا** بقرب النهاية، وأعتقد أنّها لم تكن بحاجة إلى القدرات الخارقة، التي تُنسب لها، كي تدرك القدر المحتوم؛ فبمجرد انفراط التحالف القبلي، لا شك أنّها أدركت أن الأمر مسألة وقت. فأرسلت أبناءها الثلاثة إلى قائد جيش المسلمين، وخاضت معركتها النهائية بشجاعة، رافضة دعوات الهرب والاختباء بين التضاريس الوعرة. وبعدما هزمها حسّان، قطع رأسها وأرسله إلى المشرق، وأسرف في القتل كي يخمد كلّ محاولات المقاومة

المعروف بقصور حسان بطريق مصر، وقتل مع أصحابه عدد كثير، وأسر منهم نحو ثمانين رجلاً، فأحسنت الكاهنة إليهم، وأطلقتهم غير واحد، هو يزيد بن خالد القيسي، فوصلوا إلى حسان، وأخبروه بخبر يزيد، فسر بذلك حسان **وكتب** إلى عبد الملك يعلمه بما نزل به من الكاهنة، ويسأله أن يمده بالجيوش، فكتب إليه عبد الملك أن يقيم مكانه (...)». أبو عبيد البكري، ص. 7-8.

22. Gautier, 1964, pp. 256-257.

23. «وملكت الكاهنة المغرب كله بعد حسان خمس سنين. فلما رأت إبطاء العرب عنها، قالت للبربر: إن العرب إنما يطلبون من إفريقية المدائن والذهب والفضة؛ ونحن إنما نريد منها المزارع والمراعي! فلا نرى لكم فيها إلا خراب بلاد إفريقية كلها، حتى ييأس منها العرب؛ فلا يكون لهم رجوع إليها إلى آخر الدهر». ابن عذاري المراكشي، ص. 36.

24. «فوجهت قومها إلى كل ناحية، يقطعون الشجر، ويهدمون الحصون؛ فذكروا أن إفريقية كانت ظلا واحدا من طرابلس إلى طنجة، وقرى متصلة، ومدائن منظمة، حتى لم يكن في أقاليم الدنيا أكثر خيرات، ولا أوصل بركات، ولا أكثر مدائن وحصونا من إقليم إفريقية والمغرب، مسيرة ألفي ميل في مثله. فخربت الكاهنة ذلك كله». م. ن. ص. 36.

25. بن خلدون، ص. 1607.

المستقبلية. كما قام بضم اثني عشر ألف محارب من القبائل المهزومة إلى جيشه،[26] وجعل أبناء الكاهنة على رأس هذه الجيوش.[27]

2. معالم صناعة الأسطورة

يكاد المرء يندهش من حجم حضور الأسطورة في التاريخ الإنساني، وهو ما قد يشرّع إمكانية تعريف الإنسان بكونه كائناً أسطورياً. غير إن المعنى الذي نمنحه للأسطورة هنا هو ذاك المرتبط بالجذر اللاتيني legend لا المعاني التي يحيل إليها لفظ mythe.

وهكذا، نحاول في هذا العنصر البحث في الأسس التي ساهمت في صناعة أسطورة «دهيا». مع التأكيد أن هذه العناصر يجب أن ينظر إليها في ترابطاتها، وفي علاقاتها المتشابكة؛ فالترتيب الذي نقترحه منهجيّ فقط.

وأول عنصر نقف معه هو قلّة المعلومات التاريخية التي نقلتها المصادر؛ فلا تكاد تشغل الصفحة أو الصفحتين؛ فاتجه كثير من الدارسين إلى بناء فرضيات يقيمون عليها الاستنتاجات، وهذه الفرضيات غالباً ما تواجه بأخرى تؤدّي إلى استنتاجات مقابلة. كما تشكو الأخبار التي وصلتنا، في الكثير من الأحيان، من عدم دقّتها؛ فحتى الاسم، وهو أول عنصر في التعريف، يعاني من إشكالات؛ فهي ديا، وداميا، ودهيا، وداميانا. والأمر نفسه لاحظناه مع دينها؛ فهي يهودية، ولادينية، ووثنية، ومسيحية، ولها معتقدات محلية. بل وحتى المنطقة التي تنتسب إليها، وأماكن المعارك التي خاضتها، والفترة الزمنية التي حكمت فيها، كلّ ذلك لم يسلم من تعدّد الروايات.[28] وقد عمّق من حدّة الإشكالات السابقة تشكيك بعض المؤرخين المعاصرين في المكانة الاعتبارية لروايات ابن خلدون مقارنة مع غيرها، خاصة بعدما أقلقتهم بعض التفاصيل الأسطورية والملحمية.[29] إن هذا

---

[26]. Fallot, Op. Cit., p. 133.

[27]. مع تحفظنا على مثل هذه الأخبار، باعتبار أنها قد تكون ناتجة عن فترات لاحقة في إطار الصراعات القبلية ومحاولة إثبات التفوق والمكانة داخل الإسلام، خاصة بوجود روايات تاريخية تؤكد مقتل أبناء الكاهنة معها، وهو ما يدعمه اختفاء أخبارهم بعدها.

[28]. Modérann, op. cit.

[29]. Ibid.

النقص في المعطيات يجب أن يُنظَر إليه في ضوء السعي المتواتر لدى الإنسان في ملء الفراغات بما يفتح المجال أمام الخيال كي يؤدّي دوراً في هذه العمليات. وقد تم ذلك من خلال ما يمكن أن نطلق عليه، ثقافة الأذن؛ فإذا كان عبدالسلام بن عبد العالي يرى في الأذن وحاسة السمع دافعة إلى السمع والطاعة، والتقليد والاتباع، فإنّنا نرى فيها أيضاً، مجالاً للإبداع والخيال؛ فالصورة كبح للواقع وضبط له، بينما الصوت فتح وتوسيع له.[30]

والعنصر الثاني المساهم في صناعة الأسطورة هو الحضور القوي للمبالغات، والتي نجدها في الكثير من الأخبار التي تروى عن «الكاهنة» وعن معاركها؛ لنقف مع هذا النص كمثال: «فدخل بجيوشه إليها. **فبلغ** الكاهنة خبره؛ فرحلت من الجبل، **في عدد لا يحصى، ولا يُبلغ بالاستقصاء. فتقاتلوا قتالاً لم يُسمع بمثله؛ وصبر الفريقان صبراً لم ينته أحد إليه، إلى** أن انهزم حسان بن النعمان، ومن معه من المسلمين. **وقتلت الكاهنة العرب قتلاً ذريعاً**، (...) فكتب حسان إلى أمير المؤمنين عبدالملك يخبره بذلك، وأن أمم المغرب **ليس لها غاية، ولا يقف أحد منها على نهاية، كلما بادت أمة خلفتها أمم؛ وهي من الجهل والكثرة كسائمة النعم**».[31] فكما أسلفنا، كانت النصوص تعوزها التفاصيل، ويظهر في هذا المقطع مجموعة من الفراغات؛ فمثلا لا نعرف كيف بلغ ديا خبر النعمان وتحركاته، وهي مسألة مضطردة في العديد من المواضع. لكن السياق يوحي كأن «الكاهنة» عرفت هذه الأمور من خلال قواها الخارقة، لا عبر «المعلومات الاستخباراتية» التي ربّما حصلت عليها. وتبدو عبارات المبالغة في نقل الأحداث في كثير من المواطن من قبيل : «**في عدد لا يُحصَى، ولا يُبلَغ بالاستقصاء**»، وأيضاً: «**فتقاتلوا قتالاً لم يسمع بمثله؛ وصبر الفريقان صبراً لم ينته أحد إليه**»؛ ونعتقد أن الغرض من ذلك هو محاولة تفسير هزيمة المسلمين، الذين اعتادوا أن يكون النصر بجانبهم، خاصة وأنهم كانوا كثيراً ما يربطون ذلك بأمور عقدية. ونجد صدى ذلك في رسالة حسان إلى السلطان: «**وأن أمم المغرب ليس لها غاية، ولا يقف أحد منها على نهاية، كلما بادت أمة خلفتها أمم؛ وهي من الجهل والكثرة كسائمة النعم**». وهكذا، يغدو

---

30. بن عبد العالي، 2008، ص. 7-8.

31. ابن عذاري المراكشي، م. س.، ص. 35. (تم تشديد بعض الكلمات والجمل من عندنا، كي نشير إلى بعض الإيحاءات التي نتناولها بالشرح لاحقاً).

مفهوماً التركيز على القدرات الماورائية لديا بدل البحث في الاستراتيجيات العسكرية التي اعتمدتها.[32]

ونجد المبالغات، أيضا، في تقدير إمكانيات «دهيا» التنبؤية والخارقة. ونحن لا نريد استبعاد هذا الجزء من تاريخها، إلا أننا نرى أن الكثير من هذه الأخبار ربّما يعود إلى أسباب مرتبطة لدى المؤرخين؛[33] فانتسابهم إلى ثقافة «شرقية»، ربّما صعّب تفهّم أنّى لامرأة أن تواجه وتهزم جيوش المسلمين التي أسقطت أعتى الامبراطوريات. لهذا، ربما كان قريباً من ثقافتهم تفسير هذه الأمور بمسائل غيبية وقدرات عجيبة وماورائية؛ ونجد ما يدعم هذا الموقف في أن ابن خلدون لا ينكر القدرات العجيبة للسحرة والكهنة.

أما عن الجانب القصصي بوصفه عنصراً أساسياً في صناعة الأسطورة؛ فقد تضمنّت الروايات الكثير من الحبكات والبناءات الدرامية والتراجيدية، والتي يمكن رصدها في الكثير من الأخبار من قبيل: «فلم يغب عن خالد بن يزيد إلا يسيراً حتى خرجت الكاهنة **ناشرة شعرها، تضرب صدرها**»،[34] وهو وصف يتكرّر، أيضاً، قُبيل معركتها النهائية. كما يظهر البعد الدرامي في الكيفية التي بعث بها خالد، وهو ابنها بالتبني، الرسالةَ إلى قائد جيش المسلمين بدسّها في الخبز. وهنا يمكن ملاحظة الخلل الذي يعتري الرواية؛ فالأخبار التي نقلها المؤرخون، تتحدث عن أن **ديا** أدركت المسألة بقواها الخارقة، وخرجت تخبر قومها أن ملكهم قد ذهب «في ما يأكله الناس». لكن، لماذا لم يتعرّض الخائن مرسل الرسالة إلى العقاب؟ بل وحتى الرسالة، يتبيّن لاحقاً أنها لم تؤثّر في سير الأحداث، باعتبار أنها قد تعرضت للتلف؛ فلماذا جعلت الكاهنة نهاية ملك البربر مرتبطاً بالخبز الذي احتوى على الرسالة؟ نعتقد أن هذه الوقائع تأخذ أهمية أكبر عندما تجعل البطلة **ديا** تتعرّض للخيانة من مقرّب كانت قد أحسنت إليه؛ فالتعرّض للخيانة، قد يكون من مقومات صناعة الأسطورة، وهو الجانب التراجيدي الذي يتعزّز بقطع رأسها وإرسالها الى المشرق.

---

32. الحقيقة أن هذا مضطرد مع المسلمين، حيث لم تحض انتصارات المسلمين بدراسات عسكرية معمقة لكيفية الانتصار في المعارك، باعتبار أن القول بالمدد الإلهي غطى على التحاليل العسكرية الممكنة إلا في القليل من المعارك والأخبار.

33. Modérann, op. cit.

34. ابن عذاري المراكشي، م. س.، ص. 35.

والعنصر الرابع المؤسس لأسطورتها هو الجانب البطولي، حيث آلت إليها قيادة جيش كوّنته من خلال نجاحها في بناء تحالف يوحّد القبائل،[35] وهو الأمر النادر في تاريخ المنطقة، خاصة وأنها امرأة؛ لكن ما نجهله هو كيف تمكّنت من ذلك؟ كما تكمن الصعوبات، أيضاً، في عدم التوفّر على معطيات دقيقة حول طبيعة الخطاب الموجّه نحو هذه القبائل، حتى نكوّن تصوراً عمّا إذا كانت «الكاهنة» تجسّد فعلاً عناصر حركة قومية، وهو ما لا يمكن تأكيده دون الوصول الى معطيات عن خلفيات دهيا الإيديولوجية، والخطاب المستخدم في استنهاض همّة القبائل.

ومن جوانب البطولة، أيضاً، بعض المبادئ الأخلاقية، مثل إحسانها إلى الأسرى والعفو عنهم[36] واتّخاذها من أحدهم ابناً لها.[37] كما تخبرنا الروايات عن شجاعتها في المعارك، وحسن بلائها في القتال الشديد، رغم أن الحروب كانت، في أغلبها عبر التاريخ، مرتبطة بالرجال. والجانب الأهم من بطولتها هو موقفها في مواجهة الموت، ورفضها الهروب بعدما علمت النهاية التي تنتظرها. وقد تم التأسيس لهذه المبادئ ولأسطورتها عبر قصص البدايات (أساطير النشأة)؛ إذ تروي أنّها كانت حسناء بين بنات قومها، فأعلنت زواجاً شكليّاً من شاب كي تقضي على حاكم ظالم يرغم الفتيات المتزوجات على ما كان يعرف في العصر الوسيط «بحق السيد»، فقتلته قبل أن يتمكن منها؛ فكان لها تحرير قبيلتها من عدوان سيّد ظالم. وبذلك، تم تنصيبها ملكة، عرفاناً لجميلها، وتقديراً لشجاعتها؛[38] فانتقلت من التحرير الأصغر إلى محاولات التحرير الأكبر.

والعنصر الأخير في صناعة أسطورة ديا، هو ما كُتِب عنها وساهم في إغناء المخيال المتشكّل حولها؛ ففي مقابل الإساءة من المؤرخين المسلمين، قام آخرون بتقديرها؛ فقد كتب إرنست فايوت Ernest Falot: «حان الوقت كي تحظى هذه البطلة بمكانتها في التاريخ،

---

35 . Modérann, op. cit.

36. مع التأكيد على وجود روايات تقول أنها أ بادت الجميع.

37. إن أبناء الكاهنة الذين تذكر المصادر أن أحدهم كان بربرياً والثاني رومانياً، ثم اتخاذها لثالث عربي، في ملامح التفاعل وقبول الآخر في شخصية الكاهنة الأسطورة، وهذا مبحث يستحق تحليله باستخدام أدوات تحليل الأساطير.

38. Fallot, op. cit., pp. 130-131.

بجانب النساء اللواتي عرفن بشجاعتهن وإخلاصهن لوطنهن».[39] وعلّق على نهايتها: «بموت هذه المرأة الشجاعة، سقطت استقلالية البربر».[40] ووصف بعضهم فترة حكمها بجمل مؤثرة : أعقبت هذا الانتصار فترة زمنية امتدت حوالي خمس سنوات، تجسّدت فيها مقولة يوغرطة juratha «إفريقيا للأفارقة».[41] وتشير نهلة الزيراوي إلى أنّها قد غيّرت النظرة إلى الأميرة التي يكاد ينحصر دورها في أن تكون الزوجة والناقلة للقب الملك، فكانت آخر ملكة بربرية نجحت في توحيد شعب قلما يتّفق على أمر جامع.[42] بل هناك من قدّم وصفاً شاعرياً، كما هو الحال مع الجنرال دونوب الذي كتب يقول: «سلام أيتها الكاهنة، أيتها المرأة الشجاعة من جبال الأوراس الجميلة، آخر حصن بربري سقط دفاعاً عن أنبل القضايا».[43]

خاتمة

تمكّننا المعطيات السابقة من تقديم العديد من التصورات و«السيناريوهات» الممكنة حول حياة الكاهنة والأحداث التي عاشتها. والحقيقة أن كل «سيناريو» إنّما يقوم على مجموعة من الفرضيات؛ إذ يمكن تقديمها بوصفها امرأة عادية، قام المؤرخون بتضخيم صورتها وبالغوا في مدى مساهمتها في توجيه الأحداث التي كانت طرفاً فيها، متأثرين بالفارق الزمني بين تاريخ هذه الأحداث وعصر تدوينها والكتابة عنها، وأيضا بالخلفيات الثقافية التي تشبّعوا بها، وبكثير من عناصر المخيال الشعبي الذي رافق نقل هذه الوقائع عبر الأجيال. كما يمكن أن تكون الصراعات السياسية القبلية قد وجهت في صناعة تاريخ يحاول إثبات المكانة والمزية التي كانت لأسلاف كل قبيلة على حدة.

وعليه، تغدو الكتابات التاريخية، في الكثير من الأحيان، مجالاً للبناءات الدرامية والأسطورية التي يتم تغليفها بجوانب من الحرفية، حتّى تغدو تجسيداً للموضوعية وللحقائق التاريخية؛ الكتابة التاريخية مجال لعمل المخيّلة التاريخية على غرار المخيلة

39. Ibid., p. 130.
40. Ibid., p. 133.
41. Kadra, 2005, p. 225.
42. Zéraoui, op. cit, p. 6.
43. Donop, 1908, pp. 243-245.

السوسيولوجية التي دعا إليها رايت ميلز.[44] ونحن إذ نحاول بناء شخصية **ديا** فإنّه يحلو لنا أن نطلق العنان لخيالنا، وكأنّنا نصنع فيلما عن شخصية تاريخية؛ فنود أن نجعلها امرأة بربرية فارعة الطول، واسعة الحيلة، حدسها ثاقب، يكاد سناء وجهها يضيء الظلمة من الحسن، يتوسّط جبينها وشم يحيل الى الأرض والتاريخ، قويّة لكنها طيبة. ورغم جمالها، إلا أنّها شديدة في ساحة الوغى، عودها صلب كقسوة التغيّرات التي عرفها وطنها عبر التاريخ. عيناها بنيتان، بشكل عجيب يجعلك تراهما سوداوتين بلون شعرها الحريري الذي يتطاير فوق جوادها. هاتان العينان الساحرتان، فيهما رقّة امرأة بربرية (أمازيغية)، ويتطاير منهما شرر إصرار وتحدّي امرأة حرّة.

■المراجع

- ابن عبد العالي، عبد السلام؛ ثقافة الأذن وثقافة العين، الدار البيضاء، دار توبقال للنشر، 2008.
- ابن خلدون، عبد الرحمن؛ العبر وديوان المبتدأ والخبر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، تحقيق أبو صهيب الكرمي، عمان: بيت الأفكار الدولية.
- البكري، أبو عبيد؛ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، القاهرة: دار الكتاب الإسلامي.
- المراكشي، ابن عذاري؛ البيان المغرب في أخباة الأندلس والمغرب، الجزء الأول، تحقيق ومراجعة ج. س. كولان وإ. ليفي بروفنسال، بيروت: دار الثقافة، ط. 3، 1993.
- غيدنز، أنتوني؛ علم الاجتماع، ترجمة فايز الصياغ، المنظمة العربية للترجمة، ط.2، 7006.
- فروم، إريك؛ الإنسان من أجل ذاته: بحث في سيكولوجية الأخلاق، ترجمة محمود منقذ الهاشمي، دمشق: منشورات وزارة الثقافة، ط.1، 7002.
- لخلوفي، جمال؛ الإسلام المغربي: محاولة في التركيب، مكتبة القبس، 2017.
- Dejeux, Jean; *Femmes d'Algérie: Légendes, Traditions, Histoire, Littérature*، Paris : La boite à documents, 1987.
- Donop, General; *Lettres sur l'Algérie 1907-1908*, Paris: Plon, 1908.
- Fallot, Ernest; *Par-delà la Méditerranée*, Paris : Librairie Plon, 1887.
- Gaid, Mouloud; *Les berbères dans l'histoire de la préhistoire à la Kahina*، Tome1, Alger : Editions Mimouni, 1990.
- Kadra, Houaria; *Jugurtha: un berbère contre Rome*, Paris : Arléa, 2005.
- Modéran, Y.; «Kahena», in 27 | Kairouan – Kifan Bel-Ghomari, Aix-enProvence, Edisud («Volumes», no 27), 2005 [En ligne], mis en ligne le 01 juin 2011, consulté le 02 février 2017. URL: http//: encyclopedieberbere.revues.org/1306.

[44]. رايت ميلز، نقلاً عن غيدنز، 2005، ص.48.

- Naylor, Phillip C.; *North Africa: A History from Antiquity to the Present*، University of Texas Press, 2009.
- Piquet, Victor; *Les civilisations de l'Afrique du Nord*, Paris: Librairie Armand Colin, 1917.
- Zéraoui, Nahla; *Les différents statuts de La Kahéna dans la literature d'expression française*, Thèse en vue de l'obtention du doctorat en langue et littérature française et comparée, Présentée et soutenue publiquement le 13/12/2007, Sous la direction de Monsieur le professeur Bruno Curatolo, Université de Franche-Comté, Ecole Doctorale «Langage, Espaces, Temps, Sociétés».

التحصينات الهيللينستية والبيزنطية في توكرة (تاوخيرا)

(2/2)

ديفيد سميث (و) جيمس كرو

ترجمة:

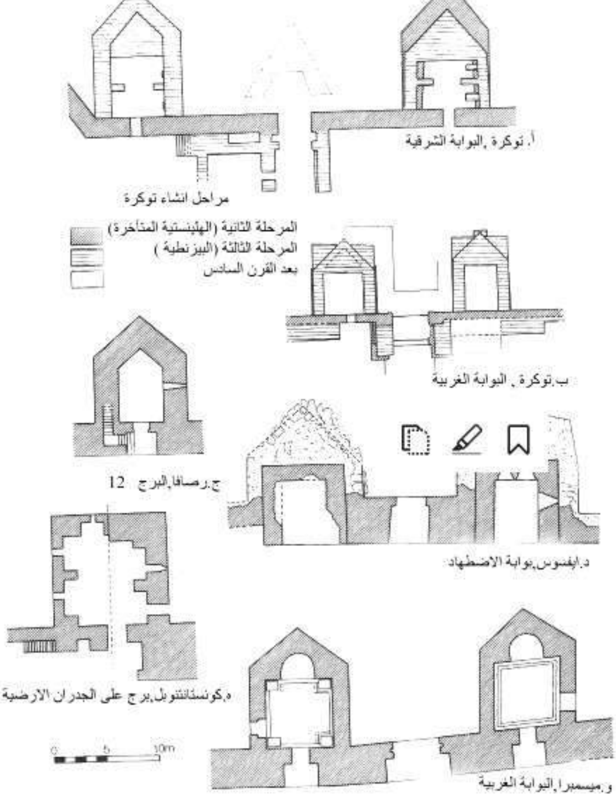
سالم محمد بوجنات (و) أحمد سعد ميلود

2. **البوابات:** (ش. 19)

البوابة الجنوبية (ش. 17) : كما لوحظ سابقاً، توجد بوابة تعود إلى مرحلة البناء الثانية من مراحل بناء الأسوار في الجدار الخلفي من البرج 17 في الناحية الجنوبية من المدينة، وكان عرضها 3.40 م. في الأصل وعضاداتها بعرض 0.50 م.، وتبرز 0.05 م. وتحمل عقداً مقوساً، وما زال العقد قائماً بارتفاعه الكامل تقريباً من الحطام المغطّى بالنباتات الذي يحيط به. الباب على أي حال انقص من عرضه إلى حوالي 0.90 م. على الاغلب، ربما عندما كانت البوابة محاطة ببرج وحجرة كبيرة وباب في المرحلة الثالثة. وتحدّد هذه البوابة النهاية الجنوبية لكاردو المدينة.

- البوابة الغربية :

تم ابراز البوابة الغربية من الداخل حتى حجارة رصف الديكومانوس بشكل غير كامل من الخارج. [29] مدخلها بعرض 3.45 م. ويرجع تاريخه إلى المرحلة الثانية لكن العضادة الجنوبية أعيد بنائها جزئياً وازداد ارتفاعها في المرحلة الثالثة وبالرغم من أنها ما زالت قائمة بارتفاع 4 م. فوق الرصيف إلا أن هذه العضادة لاتقدم دليلاً على وجود عقد. وبدلاً من ذلك زُيّنت هذه البوابة، ربما أثناء إعادة بنائها، بعتبة من حجارة عقد إسفينية مائلة (ربما كانت بقوس مسدود فوقها) كما في البوابة البيزنطية (عرض 2.50 م. وارتفاع 6.50 م.) في لبدة الكبرى . [30]



ش. 19: مخططات البوابات

في المرحلة الثانية كانت البوابة محاطة بأبراج مستطيلة بارزة بحجر منحوت مشذب ذي حواف مستديرة على مسافات غير متساوية من الباب. يقع البرج الشمالي على بعد 2.40م. من الباب وبعرض حوالي 5.50م. وبروز 3.55م.، بينما كان ذلك الواقع الى الجنوب يبعد 1.40م، من مدخل البوابة وبعرض بلغ حوالي 6.0م، ويبرز 4.38م. في المرحلة الثالثة تم تفكيك صفوف الابراج الى حد كبير وترك فقط الصفين السفليين لتكون اساسات للابراج الجديدة، التي بنيت تقريباً بنفس العرض ولكن بواجهات أمامية مثلثة مصمتة تبرز الى الخارج بشكل كبير، إذ يبرز البرج الشمالي 7.65م. والجنوبي حوالي 7م. مقابل الأبراج المبكرة شيدت مساطب مستطيلة من حجارة معاد استخدامها لتدعيم الواجهات المثلثة الأمامية الجديدة (الصورة 20). وكل من الأبراج لها حجرة أرضية، أما التي بالبرج الجنوبي

فهي أقصر (شرق -غرب) لكنها أوسع عن مثيلتها في الشمال. وكانت الجدران ذات سمك مماثل والساتر يشكل الجدار الشرقي. المدخل المؤدي إلى البرج الشمالي لابد أنه موجود تحت الأرض بالرغم من أنه -كما يبدو بوضوح- مسدود بمصطبة صلبة مشيدة من كتل كبيرة مبنية مقابل المتراس الواقع خلف البرج. في البرج الجنوبي يوجد مدخل مقوس بعرض 0.85م. ويقل بالخارج بسبب إطار الباب الخشبي وهذا المدخل لا زال باقياً بارتفاعه الكامل في الجدار الشرقي. علاوة على ذلك الساتر بالمرحلة الثانية الذي كان قائماً بارتفاع المدخل عندما أعيد تشكيل البوابة في المرحلة الثالثة، وجدار المرحلة الثالثة بسمك 1.5م. يمتد مسافة 2.80م. من خلف العضادة الجنوبية للبوابة . وعلى عكس الأبراج المستطيلة بالمرحلة الثانية لم تكن الأبراج ذات الواجهة المثلثة في المرحلة الثالثة مرتبطة بالساتر.

- البوابة الشرقية (الصورة 21):

الأبراج ذات الواجهة المثلثة بنفس الإنشاء لكن بأبعاد أكبر تحيط أيضاً بالبوابة الشرقية، وقد كشف عنها غودتشايلد، وتمت صيانتها حال الكشف عنها .[31] أعيد بناء المدخل في المرحلة الثالثة لكن بالعرض الأصلي 3.10م. مما يجعله أضيق عن تلك المداخل الموجودة في البوابتين الأخريين، ولا تدع النسب الكلية للبوابة شكاً بأنها كانت بوابة رئيسية للمدينة.



ش. 20: برج البوابة الغربية بالنظر جنوباً.



ش. 21: البوابة الشرقية.

وقد يكون قصد بها منافسة البوابة الغربية الهيلينستية لمدينة بتوليمايس المجاورة الواقعة على بعد 40كم على طول الساحل جهة الشمال الشرقي. وقد شيّدت أبراج المرحلة الثالثة على الصفين السفليين لبرجي المرحلة الثانية ذوي الواجهات المثلثة اللذين تم تفكيكهما، وبافتراض أن الأخيرة نفسها حلت محل أبراج المرحلة الأولى فأنه سوف يكون من المهم معرفة ما إذا كانت ذات واجهة مثلثة أو أنها شابهت أبراج المرحلة الثانية المستطيلة عند البوابة الغربية.

ويبعد البرج الشمالي 9.25م. عن المدخل وهو بعرض 8.60م، ويبرز 12.30م. الجوانب الشمالية والجنوبية تمتد على زوايا قائمة مع الساتر بمقاس 7.90م، و 8.05م، على التوالي. وتتطابق إعادة الإنشاء للمرحلة الثالثة من الخارج مع الخطوط الخارجية للبرج المبكر برغم أنه لم يكن مرتبطاً بالساتر. الحجرة الداخلية مع بقايا الركائز (الدعائم) لدعم القبو البرميلي المدعم تنسب إلى المرحلة الثالثة أيضاً (الصورة 22).[34]

والكتل الحجرية المشطوفة مندمجة في الواجهة الخارجية لكن وضعت بشكل مقلوب وتحتوي على حلية منقوشة على شكل صليب، ويتوسط المدخل تقريباً الجدار الغربي وهو بعرض 1.15 م، باق بكامل ارتفاعه حتى عتبته الضخمة المنحوتة من كتلة حجرية واحدة.

وعلى بعد ما يزيد عن 3م، وتوجد إلى الجنوب منه مقابل الجهة الخلفية من الساتر بقايا سلالم حجرية بعرض 2.15 م، وكان من المفترض أنها تؤدي إلى أعلى ممشى المتراس (الصورة 23)، ولكن من المجازفة محاولة استنتاج ارتفاع سور المدينة من هذه المعطيات.



ش. 22: منظر اعمدة القبوالبرميلي المضلع في البوابة الشرقية.

ويبعد البرج الجنوبي على مسافة 8.90م. من المدخل، وكان عرضه 8.50م. في الأصل، ويبرز 12.10م. وتتعامد الجدران الشمالية والجنوبية مع السور بزوايا قائمة وكليهما بمقاس 7.40م، لكن أثناء عملية إنشائها في المرحلة الثالثة فإن جدران البرج شيدت إلى الخلف بمقاسات مختلفة عن خطوط امتداداتها الخاصة بالمرحلة السابقة (الصورة 24) ولا تتطابق الواجهتان إلا على مسافة 0.30م. من الساتر على الجانب الشمالي للبرج فقط، والواجهة الأخيرة ارجعت للخلف من الواجهة المبكرة بـ 0.08م، وازدادت 0.13م، من حيث يبدأ الجانب الشمالي للواجهة المثلثة.

والواجهة نفسها أرجعت للخلف 1.70م. عن الواجهة المبكرة، وفي الجهة الجنوبية تنفرج الواجهتين مباشرة بعد الزاوية الواقعة بين البرج والسور إلى حد أن الواجهة الأخيرة وضعت على بعد 0.20م. من الواجهة المبكرة، ومن حيث يبدأ الجانب الجنوبي للواجهة المثلثة، فهذا الجانب أيضاً أرجع للخلف 1.70م. عن البرج المبكر، وهكذا في المرحلة الثالثة برز هذا البرج 9.50م، بواجهة مثلثة شيدت بمتانة بـ 2.60م، أقل عن سابقه الذي

يعود للمرحلة الثانية، و2.80م. أقل من الأبراج المزامنه له على الجانب الآخر من البوابة. مرة أخرى تنتمي الحجرة الداخلية إلى برج المرحلة الثالثة ويوجد بها ركائز لقبو برميلي مدعم، يحتل المدخل مركز الجدار الغربي تقريباً وهو بعرض 1.10م، ولا يفتقد اليوم إلا عتبته.



ش. 23: سلالم حجرية تحاذي السور الساتر بجوار البوابة الشرقية.



ش. 24: بقايا البرج الجنوبي من البوابة الشرقية تبين الأبعاد المختلفة من المرحلة الثانية والمرحلة الثالثة.

ومن الواضح أن البرجين ذوي الواجهتين المثلثتين اللذان يعودان للمرحلة الأخيرة في كلا البوابتين الشرقية والغربية هما نسخة من الأبراج من هذا النوع الذي أنشئ في المرحلة الثانية قبل ذلك بعدة قرون في البوابة الشرقية. برغم وضوح حاجتها لإعادة الإنشاء لا بد

أنها في ذلك الوقت ما زالت باقية بما يكفي لتتخذ كنماذج. ويمكن الجزم بذلك على الأقل بالنسبة للبرج الشمالي من البوابة الشرقية الذي تم تماماً تتبع الخطوط العريضة منه في إعادة الإنشاء، وفوق ذلك فإن جودة البناء يمكن وصفها بأنها مثالية. والأبراج خماسية الزوايا كانت معروفة في المرحلة الهيلينستية عندما صممت أول مرة لقدرتها على توجيه القذائف من أسلحة الحصار في اتجاهات مختلفة.[35] قليل من الأبراج من هذا النوع على أي حال يبدو أنها تعود إلى أي مرحلة أخرى تسبق المرحلة القديمة المتأخرة Late Antiquity.[36] ولكل هذا فإن أبراج بوابات توكرة تستحق مكاناً بتاريخ فن العمارة العسكرية القديمة.

الأدلة المتعلقة بكيفية الحراسة والتحكم في البوابة الشرقية تحتاج أيضاً إلى وصف مستقل. فعلى الجانب الغربي من السلالم المفترض أنها تتيح الوصول إلى ممشى المتراس توجد بقايا حجرة الحراسة ولها مدخل يفتح على الطريق الذي يمر بمدخل البوابة. ويمتد الجدار الذي يحتوي هذ المدخل حتى السور، وشيدت في هذا الجدار خلف مدخل البوابة مباشرة كوة بعمق حوالي 0.60 إلى 0.70م. وبعرض 0.70م. وعلى الجانب الجنوبي من الطريق يوجد جدار مواز للجدار السابق وبه كوة مماثلة، ولكنها أقل عمقاً وأكثر اتساعاً. وتوجد خلف هذه الكوات دعامات البوابة الفعلية كما توجد في الزوايا خلف الدعامات كتل حجرية محورية لفتح وغلق البوابات. ورغم ذلك فإن العرض غير اللازم للتجاويف لا بد أنه يمثل احتياطاً لمشبك حديدي يحمى به المدخل.[37] والحفرة المستطيلة اللافتة للنظر في الأرضية الحجرية خلف الساتر شمال المدخل الخلفي كانت لتثبيت عمود التوازن، وهذه المزايا مخصصة للمرحلة الثالثة، وعند البوابة الغربية لا يوجد دليل على التحصين إما في المرحلة الأولى أو في المرحلة الثالثة لكن من المهم ملاحظة أن دليل التدابيرالاحتياطية للمشبك الحديدي لايزال باقياً في البوابة الغربية الرئيسية لمدينة بتوليمايس[38] المذكورة أعلاه.

إن الأحداث التي أدت إلى اختفاء توكرة من التاريخ موجودة بشكل واضح في كلا البوابتين. فخارج مدخل البوابة الشرقية بحوالي 1.55م. فقط يوجد بقايا تشكيل معماري مبني من الحجر ذي واجهة مثلثة شيّد دون شك لحماية البوابة من الهجوم بالمنجنيق (شكل 21)[39] على الرغم من أنه زوّد بكوة شبه سداسية بعمق 2.30م. مقابل مدخل

البوابة لتوفّر مجالاً لاستدارة المركبات، فأنه على أي حال قد شكل عائقاً حقيقياً لمرور المركبات في أوقات السلم. هذا التشكيل لايستند على أي أساسات باستثناء ما وفرته له الطريق وهو دون شك يعود إلى مرحلة متأخرة. وباختصار فإن هذا التشكيل المعماري لابد أنه كان يعود إلى المرحلة التي تعرضت فيها المدينة إلى التهديد الرهيب في آخر أيامها.

لا يوجد أي أثر لتشكيل مماثل عند البوابة الغربية، لكن رغم ذلك يوجد هناك أيضا دليل هام على اتخاذ إجراءات طارئة. وهذا يتخذ شكل قطع في أرضية حجارة رصف الطريق الصلبة ويبدأ 0.30م. داخل الباب ويمتد لمسافة 2م. خلفه ويستدل من ذلك على أن هذه البوابة قد أصبحت بشكل متعمد من المستحيل على المركبات اجتيازها. منذ ذلك بقيت أرضية الشارع على هذا الشكل تتخللها هذه الفجوات التي ملأت تدريجياً عبر الزمن بالتراب والحجارة.

من المستحيل ألا تصاحب هذه التدابير اليائسة والنهائية اقتراب الغزاة العرب والأقباط. ففي عام 642م انسحب أبولونيوس قائد إقليم المدن الخمس وجنوده ورجال المنطقة الأغنياء إلى مدينة توكرة التي كانت أسوارها محصنة، وأغلقوا البوابات.[40] لكن بدون جدوى، فقد عاد الغزاة بعد عامين لاحتلال المدينة التي ربما هجرها سكانها قبل وصولهم.[41]

تحصينات توكرة البيزنطية: تفسير جيمس كرو

كانت التحصينات المدنية حول الممالك الهيلينستية ومدن أسيا الصغرى وسوريا وشمال أفريقيا نادراً ما تعدت في حجمها وهيبتها الأعمال الدفاعية المقامة في المراحل المبكرة واللاحقة. وقد أصبحت المنافسة المدنية بين هذه الدول تنعكس في الأسوار الباقية لمدن مثل أسوس وإيفيسوس في آسيا الصغرى[42] أو قورينا في إقليم كيرينايكي.[43] لكن توطيد الحكم الروماني عبر شرق البحر المتوسط قطع هذا النشاط وبدأ مرحلة طويلة من السلام والأمن السياسي الملحوظ، وبدأ الصراع ما بين المدن يخمد، وتحولت المنافسة المدنية إلى مسرح جديد هو النصب التذكارية الدنيوية والدينية والمنافسات الثقافية. وقد انحدر نشاط التحصين المدني لعدة قرون، ومع تزايد القلق حول حدود الإمبراطورية من القرن الثالث الميلادي فصاعداً نبدأ في التعرف على برامج البناء الجديدة

لاستعادة أو إعادة بناء تحصينات المدن الإغريقية الشرقية.[44] وكانت الاستجابة متعددة جداً، ففي أثينا في نهاية القرن الثالث تم تحصين جزء من النواة الحضرية في المدينة فقط، لكن في أماكن اخرى في آسيا الصغرى، في نيقيا مثلاً، فإن المدن أحيطت بأسوار جديدة على نحو واسع.[45] وكانت بعض المدن محصنة والأخرى لم تكن كذلك، لكن القليل جداً من الأبحاث أجريت في هذا المجال، ولم تفحص بشكل كاف قضايا الرعاية الإمبراطورية والمسؤولية المدنية.[46] وأحد المشاكل الخاصة التي قد تقابل كلاً من الدارس أو السائح على السواء هي إلى أي مدى بقيت هذه الأسوار الهيلينستية الضخمة في العصر القديم المتأخر؟ في بعض المدن توجد أدلة واضحة على إن الدفاعات قد دعمت دعماً بسيطاً وأصلحت،[47] وفي حالات أخرى تطلب الأمر برامج واسعة لإعادة البناء، وخاصة في مدن مثل أفروديسياس حيث لم تكن محاطة بأسوار في السابق.[48] لكن في حالات عدة سوف يظهر أنه حتى حلول أزمة العصر القديم المتأخر، فإن التحصينات المبكرة قد بقيت بما يكفي لتوفر الحماية الوافية للمجتمعات الحضرية في شرق البحر المتوسط.

يقدّم المسح التفصيلي للتحصينات الباقية الذي قام به ديفيد سميث ورفاقه، الوارد في الجزء الأول من هذا المقال، فرصة مناسبة لفحص جوانب التاريخ الإنشائي للموقع وأيضاً لوضع تاريخ التحصينات في الاعتبار في سياق التحصينات الأخرى في ليبيا وما بعدها. وكنتيجة لفشل الأسلحة الرومانية في ضمان أمن الإمبراطورية فإن مدن العصرالقديم المتأخرتحولت إلى حماية نفسها، ونحن نرى أن المبنيين الشائعين بذلك العصر هي الكنائس والأسوار الدفاعية. وهذه هي الصفات التي تظهرفي مخطط توكرة المنشور حديثاً (انظرالمخطط المرفق): الأسوار الطويلة المحيطة بالمدينة والكنائس البازيليكية الشرقية والغربية والطوق الدفاعي داخل المدينة الذي يشمل ما يسمّى بالحصن. وهذه الدراسة معنية أساساً بالتحصينات، ستليها دراسات أخرى تعنى بالكنائس والمباني الأخرى الواقعة داخل المدينة، لكن يؤمل أنه بفحص أحد عناصر المدينة بشكل مفصل ربما نتمكن من توضيح مرحلة من تاريخ المدينة عندما تكون مصادر معلوماتنا الأخرى المتاحة قليلة.

يحدّد وصف ديفيد سميث للتحصينات ثلاث مراحل أساسية من تاريخها الإنشائي،

فالمرحلة الأولى هي الهيلينستية المميزة بالكتل المستوية ذات الواجهة المطروقة والمرتبطة ببعضها بعضاً بالحواف البارزة Drafted joints. والمرحلة الثانية تحدّد باستخدام الكتل المستوية مع حواف مشطوفة ونقر قطري خفيف. اقتراح عام 29م كـ«أحدث تاريخ محتمل» terminus ante quem يعتمد على نقش حفر في الوجه الداخلي للجدار الشرقي في منطقة الجمنازيوم،[49] وهو ما يحتم نسبة هذه المرحلة الى المرحلة الهيلينستية المتأخرة أو الرومانية المبكرة. ولو أن هذه الكتل الحجرية المنقوشة، على أي حال، كتل معاد استخدامها فهي بكل بساطة تشير إلى «أحدث تاريخ محتمل» لهذا القطاع من سور المرحلة الثالثة. وتنتمي التحصينات الدفاعية الباقية في أغلبها لمرحلة إعادة الإنشاء في المرحلة البنائية الثالثة حيث تنتسب أساساً لإعادة الإنشاء في المرحلة الثالثة، وتميزت باستخدام الأبراج المستطيلة وبناء السور الساتر من وجهين ولب وهو نموذج من التحصينات البيزنطية الموجودة في أماكن أخرى في شمال أفريقيا.[50] لكن هناك عنصرين من عناصر التحصين يبرزان هنا بشكل خاص: السور الخارجي proteichisma والأبراج خماسية الزاوية على جانبي البوابات الغربية والشرقية. ومثل هذه العناصر نادراً ما لوحظت في المقاطعات الغربية أو شمال أفريقيا وتنتسب إلى الإعدادات العسكرية للإمبراطورية الرومانية الشرقية.

- **السور الخارجي** Proteichisma

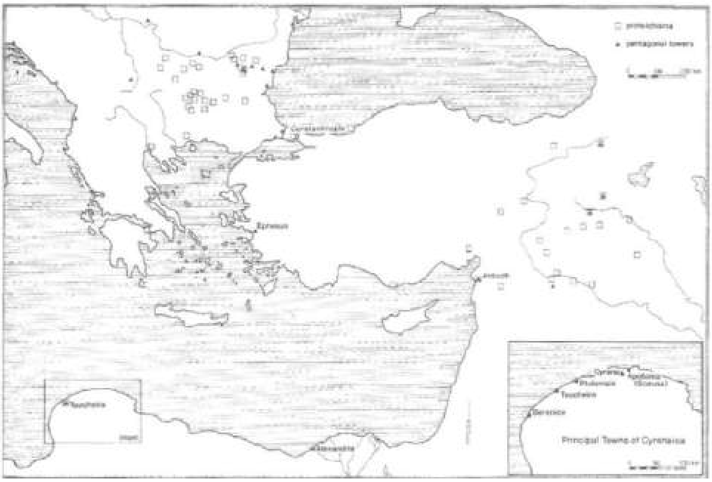
السور الخارجي أو proteichisma في توكرة فريد بالنسبة إلى التحصينات البيزنطية المبكرة بشمال أفريقيا (انظر الشكل 25)، على الرغم من أنها تبدو منتمية إلى المرحلة البنائية الثالثة لأسوار المدينة، لكن وكما في معظم الأمثلة التي نوقشت في هذا المقال، فأنه بدون إجراء حفريات فإنه نادراً ما يمكننا أن نتأكد أنها معاصرة للسور الرئيسي. ويمتد السور الخارجي موازياً للمنتصف الجنوبي من سور المدينة من الجانب الجنوبي للبوابة الغربية حتى الجانب الجنوبي للبوابة الشرقية. أما كيف انتهى عند هذه البوابات، أو على أي جانب من البوابة الجنوبية، فهو أمر لا يمكن ملاحظته في الوقت الحالي. وعلى طول الجهة الجنوبية لمحيط المدينة يمتد السور الرئيسي عبر بساتين القرية وهو يفتقد لبقاياه على الأرض لمسافة كبيرة ربما بفعل النشاط الزراعي. لكن مساره وثق على مخطّط بيتشي،[51] وفي القطاع الجنوبي الغربي يبدو أن المسافة بين السور الساتر والسور

الخارجي قد قسمت بالجدران برغم عدم تأكدنا لمعاصرتها للتحصينات فهي قد تكون تطويقات أو توزيعات لاحقة. ومن المهم ملاحظته أن معظم الأبواب موجودة على طول الجهة الجنوبية من الأسوار لتوفر إمكانية الوصول إلى هذا السور الخارجي. والمشكلة المثارة بوصف proteichisma هو الخندق الموجود بين السور الخارجي والداخلي (انظر أعلاه)، قد تخمن ثلاثة تفسيرات يمكن اقتراحها هنا: التفسيرالأول أن الخندق كان معاصراً للساتر الرئيسي ويسبق تاريخ السور الخارجي، والثاني أنه كان خندقاً داخلياً للسور الخارجي شيد كوقاية ضد اختراق السور عبر الانفاق،[52] والتفسير الثالث أنه يمثل خندق شيد في مرحلة لاحقة خاص بالساتر الرئيسي والذي حفر بعد أن تم التخلي عن السور الخارجي. وبدون إجراء حفريات فإنه من غير الممكن حل هذا السؤال والأرجح يبدو أنه الاقتراح الثاني أو الثالث.

الأسوار الخارجية لها أصول قديمة في تحصينات الشرق الأدنى وقد تم تبنيها من قبل الأغريق منذ مطلع القرن الرابع ق.م. استجابةً للمستجدات في حروب الحصار،[53] ولم يتم تبنيها في التحصينات الرومانية في عصريها الجمهوري والإمبراطوري المبكر، على الرغم من أن الجيوش الرومانية التي قامت بحملات ضد «بارثيا» و«الحضر» Hatra في القرن الثاني الميلادي قد صادفت هذه الطريقة من الدفاع،[54] فإن الأسوار الخارجية في التحصينات الرومانية لا يمكن إقرارها قبل منتصف القرن الرابع الميلادي. ويصف «أميانوس مارسيلينوس» القلعة في «بيزابد» (سيزر) أثناء حصار الساسانيين عام 360م. بأن لها سور مزدوج في جانبها الأضعف.[55] والمثال الأقدم للسور الخارجي الذي أقر أثرياً في «سنجارا» (بلد سينجار) والتي خضعت في النهاية للساسانيين عام 360م.[56] وشكل هذا متراس حجري للمنحدر الداخلي بالخندق المقطوع بالصخر. ومثله في الشكل وربما يرجع تاريخه إلى القرن الرابع تلك الأسوار الخارجية في «أميدا» (ديار بكر)[57] و«رسينا» (رأس العين)،[58] وأيضاً في بلاد ما بين النهرين. وما يسمى سور البحر في أنامور قد يكون سوراً خارجياً proteichisma ويحدّد تاريخها من خلال نقش يعود إلى عام 382م.[59]

لا توجد بقايا مادية معروفة للأسوار الخارجية في الإمبراطورية الغربية برغم أن رواية حصار «أكويليا» عام 361 احتوت على وصف لهذه الميزة.[60] أثناء حصار المدينة، حيث لجأت فرق الهجوم من المدينة إلى الاحتماء خلف سد من الأعشاب على الجانب الداخلي

من الخندق. وهذا الرواية أيضاً تؤكد أن الأسوار الخارجية يمكن أن تستغل فقط في حال ارتباطها مع المداخل الخلفية مثلما هو الحال في السور الجنوبي في توكرة. وبعيداً عن هذا المثال فإن وجود أسوار خارجية proteichismata رومانية، ترابية أو خشبية، أمر غير مؤكد.(61) والأسوار الخارجية المشهورة في المرحلة المتأخرة هي أسوار أرض «ثيودوسيان» من «كونستنتينوبل» المبنية عام 412م.(62)



ش. 25: خريطة تبين توزيع الأبراج خماسية الزاوية والأسوار الخارجية proteichisma في الإمبراطورية الرومانية الشرقية من القرن الخامس حتى القرن السابع الميلادي.

وعلى عكس الأمثلة التي نوقشت حتى الآن فإن السور الخارجي الأساسي يقع في منتصف الطريق بين الخندق والساتر الرئيسي في حين أن السور الثانوي يمتد على طول المنحدر الداخلي للخندق موفراً سوراً ثانوياً ثانياً ذو فعالية. ومثال أسوار «تيودوسيان» يبدو أنه ألهم مهندسي العمارة العسكرية في البلقان، وتوجد أمثلة أخرى معروفة لكن القليل منها أرخ بشكل دقيق. في «ثيسالونيكا» قطاع من الأسوار الخارجية proteichismata قد أنشئ بعقود ذات قناطر من الطوب المرصوص بشكل إشعاعي ويعد طريقة استثنائية في تشييد الأسوار، ولكنها اتبعت أيضاً في الساتر الرئيسي. وبناء على ذلك فإن السور الداخلي والخارجي يبدوان معاصرين لبعضهما ويرجّح تاريخهما بمنتصف القرن الخامس.(63) المدن

الكبرى الأخرى المحصنة هي فيليبي[64] وسيرديكا (صوفيا)[65] وأوغوستا ترايانا (ستارازاغرا) وفيليبوليس (بلوفديف) وأيضا هزار. وقد امتد استخدام الأسوار الخارجية الى القلاع والمستوطنات المحصنة وأفضل مثال هو قلعة فويفودا المحصنة حيث يرجع تاريخ السور الخارجي إلى حوالي منتصف القرن الخامس، وهناك ثلاث وعشرون مثالاً آخر معروف، ومعظمها مؤرخ بالاكتشافات السطحية للقرن الخامس أو السادس. وحتى الأسوار الطويلة التي تحمي البرزخ الكورنثي والطريق من ترموبايلي يحتمل أنها كانت مزوّدة بأسوار مزدوجة.[66]

وتُستَمدّ معظم معارفنا بتوزيع الأسوار الخارجية في المقاطعات الشرقية من رواية بروكوبيوس لمباني جستنيان،[67] رغم أن عدداً منها يسبق تاريخ هذا العمل. وهذا التوزيع لا يخلو من الأهمية حيث أن هذه الأمثلة معروفة من السجل الأدبي والأثري وموجودة في المقاطعات التي كان يهددها الغزو الفارسي والتي تشمل مقاطعات بلاد مابين النهرين العليا وشمال سوريا وأرمينيا. وإلى الجنوب من ذلك حيث كانت المشكلة العسكرية الأساسية تتمثل في غارات العرب، لم يكن هناك وجود للأسوار الخارجية، وسوف يظهر أن مثل هذه الأسوار قد تم الاعتماد عليها في الحدود الشرقية بشكل أساسي حيث وجد التهديد بحصار حربي متطور.[68] وفي البلقان كان للمواقع المحصنة الكبرى أسوار خارجية لأسباب مماثلة، لكن الاستخدام واسع الانتشار للأسوار القديمة المزدوجة لعدد من المواقع الصغرى يشير إلى أن البنائين (وليس بالضرورة السلطات الإمبراطورية في كل الأحوال) أدركوا المزايا التكتيكية للسور الإضافي حتى في الأماكن التي لم يكن من المرجح فيها استخدام آلات الحصار المتطورة.

توضح لنا المصادر القديمة بعض وظائف الأسوار الخارجية. أدلة من حصار أكويليا[69] ومن حصار ثيسالونيكا في آخر القرن السادس على يد افارس وسلافس،[70] تبين أن السور الخارجي كان يشكل جزءاً من النظام الهجومي للتحصين الذي يوفر الأمن للعمل الهجومي والتحكم المتزايد في الخندق والسطح. ويمكن أن تستخدم المسافة بين السور الداخلي والسور الخارجي مكاناً لتجميع الماشية من الريف المجاور كما وصف ذلك بروكوبيس في دارا.[71] وفوق ذلك مثّل السور الخارجي عائقاً إضافياً أمام أي قوة هجومية، وخصوصاً في تلك القطاعات من التحصينات التي كانت أكثر عرضة للهجوم.

السور الخارجي في توكرة يفي بهذا المتطلب الأخير حيث أنه يغطي أيضاً القطاع الجنوبي للتحصينات الأكثر عرضة للهجوم وهو نفس القطاع الذي وجد فيه آثار المسار الهيلينستي المسنن.[72] وبرغم أنه يوفر حماية إضافية فإنه يظل غير واضح لماذا كان الشعور بضرورة بناء سور خارجي في توكرة لمواجهة قبائل الصحراء في ليبيا الذين حاربهم سينسيوس، ولم تكن لهم دراية بأساليب الحصار أكثر من العرب المسلمين من الحجاز وسوريا.[73] والحل البديل هو أن السور الخارجي لم يكن متزامناً مع تحصينات القرن السادس الرئيسية (المرحلة الثالثة) لكنه يمثل تحصيناً لاحقاً في القرن السابع في وقت كانت المدينة فيه تحت تهديد القوات الساسانية أو العربية، وعندما كانت أعمال التقوية الإضافية للبوابتين الشرقية والغربية تحت الإنجاز (انظر أدناه).

- البرج 6 والكنيسة الغربية

أثناء وصف البرج 6 وقطاع السور الواقع إلى الشمال منه المشيد على نحو متين بشكل استثنائي، رجّح أن هذا القطاع من السور القديم ربما كان يشكل جزءاً من المجمع الكنسي للكنيسة الغربية. وهذا يثير سؤالاً عن المشاركة المدنية وخصوصاً الكنسية في تحصينات المرحلة الإمبراطورية المتأخرة. لم تكن الحكومة الامبراطورية تشجع المواطنين على حمل الأسلحة ولأسباب تتعلق بأمن الولاية فإنها قيدت امتلاك الأسلحة.[74] فضلاً عن ذلك فإن المدنيين ورجال الدين كانوا ينضمون لصيانة وإنشاء التحصينات،[75] والدليل الذي يقدّمه «كونستانتوبل» هو الأوضح في هذه الحال. فعندما بنيت أسوار أرض «ثيودوسيان» فإن ملاك الأراضي الذين كانت في نطاق الدائرة الجديدة قد أعطوا حقوق تعويض الممتلكات على أبراج السور لكن مع الالتزام بالصيانة.[76] وتوضح هذه الضوابط ما أمكن انه كان ممارسة عامة في كافة أنحاء الإمبراطورية كلها في هذه المرحلة، حيث كانت الحكومة تواقة لنشر العبء الكبير من صيانة عدد كبير من التحصينات المدنية في أرجاء الإمبراطورية.

وفي أثناء القرن الخامس، حيث ضعف التحكم الإمبراطوري على مناطق الحدود، فإن المبادرة المحلية كانت مطلوبة لأغراض دفاعية، وساهمت الكنيسة كونها عنصراً هاماً وثرياً في المجتمع الروماني في بناء التحصينات،[77] وقدم رجال الدين بكثرة ليتم توظيفهم كوكلاء لمشاريع الإمبراطورية في البناء، ولاشك أن أحد أسباب ذلك هو خبرتهم العملية في

تنظيم بناء الكنيسة. وتصف حياة القديس «ساباس» كيفية تنظيم حماية الأديرة ضد غارات العرب وموّل الدوق (=الحاكم المحلي) رئيس الرهبان لبناء قلعة جرت حمايتها بقوة على نفقة الولاية.[78] لكن لم يقتصر دور الكنيسة في بناء التحصينات على القلاع الصغيرة، كما في إنشاء حصن «أناستاسيوس» الجديد في «دارا» وكان بإدارة أسقف «أميدا» ورجال الدين التابعين له.[79] وفي المرحلة نفسها زوّد أسقف «برتا» بتمويلات إمبراطورية ليتحمل تكلفة بناء أسوار المدينة،[80] وفي «إديسا» رغم أن القسم الأعظم من أعمال البناء في الجدار الخارجي قد نفّذه الحاكم فإن الأسقف كان يعطي عشرين جنيهاً ذهبياً لإصلاح الأسوار.[81] ورغم عدم عدم تحديد أي جزء من الأسوار فإنه من المرجح أن يكون قطاعاً من السور الرئيسي الذي كان لزاماً عليه الاعتناء به.

الدليل الأكثر دقة للمسؤولية المدنية للحفاظ على سور المدينة وتحصينه مشتق من «جوشوا» رواية «ستايلايت» عن حصار «كونستانتينا» في بلاد ما بين النهرين عام 503م .[82] حين بدأ الحصار الفارسي خطّطت الجالية اليهودية لخيانة المدينة وتسهيل دخول العدو إليها: لأجل ذلك حفروا حفرة في برج معبدهم الذي عُهد به إليهم لحراسته، وأبلغو الفرس بذلك واقترحوا عليهم أن يحفروا [من الخارج] ويدخلو عبر الحفرة. والرواية واضحة هنا، وهي أن برج المعبد كان جز ء من أسوار المدينة، وقد مُنح لليهود لكي يدافعوا عنه عندما تكون المدينة في خطر، ثم أُكتشفت خيانتهم، ونتج عن ذلك المذبحة التي تعرضوا لها.

هذا الدليل على المساهمة الكنسية في إنشاء وتنظيم التحصينات والمشاركة النشطة في الدفاع عنها يقدّم قرينة عن البقايا الإنشائية من توكرة، وحيث أنه لا البرج السادس، ولا مجمع الكنيسة الغربية، قد تم التنقيب فيهما، فمن الصعوبة التأكد من هذا الدليل، لكن إذا ما وضعنا في الاعتبار ماحدث في «كنستانتينا» حيث يبدو من الأرجح أن إنشاء البرج 6 المحكم والسور الساتر الواقع الى الشمال منه يشكلان جز ء متكاملاً من مجمع الكنيسة الغربية، وأن سلطات الكنيسة كانت مسؤولة بشكل ما عن عملية الإنشاء والصيانة والدفاع عن ذلك القطاع من السور الساتر.

إن زخرفة الصليب الموجودة في دعامات النوافذ بالبرج 6 ليست دليلاً في حد ذاتها على الوظيفة الكنسية، حيث أن شكل الصليب وجد في كل مكان بشكل شائع في مباني المدن والقرى بالقرن السادس والسابع.[83] إلا أن تركيزها في هذا الإنشاء باستبعاد أي أمثلة

أخرى من المدينة تشير بشكل خاص إلى وجود ارتباط ديني. مجاورة الكنائس وقربها للأسوار الدفاعية هي سمة شائعة من سمات المدن والقلاع الأثرية في العصر القديم المتأخر. في «حيدرة» Haïdra (أميدارا Ammaedara) تعد الكنيسة الموجودة داخل القلعة التي تعود الى القرن السادس جز ء إنشائياً من برج في الساتر الغربي،(84) وفي «أبولونيا» تجاور الكنيسة الغربية الساتر وإضافةً إلى ذلك فإن المبنى المسقوف بقبة والذي يحتمل أن يكون قبراً أو مثوى شهيد كان قد أنشئ في الزاوية بين السور الهيلينستي من الخارج والبرج الثاني.(85) بإستثناء الاقتراح الذي يقضي بأن الكنيسة في «حيدرة» قد تكون كنيسة صغيرة chapel احتوت حامية عسكرية،(86) ليس هناك أي مناقشات إضافية فيما يتعلق بمواقع هذه المباني والعلاقة الممكنة للمجتمع الكنسي فيما يتعلق بصيانة وحماية هذه المنشآت الدفاعية. كما إن معظم دراسات الكنائس التي تعود الى المرحلة القديمة المتأخرة اهتمت بتاريخها المعماري وتصميمها وزخرفتها. ارتباطها بالمستوطنات أو خارجها لم يحظ بالكثير من الاعتبار وتوجد قلة من الدراسات غير المفصلة التي تتناول الكنائس الموجودة داخل القلاع أو تلك التي تبحث في علاقتها بالتحصينات المدنية.(87)

- الأبراج خماسية الزوايا

يحيط بالبوابات الرئيسية الشرقية والغربية في توكرة برجين خماسيي الزاويا. ولا توجد أي منشورات عن أمثلة محددة أخرى للأبراج خماسية الزوايا من أفريقيا،(88) ومن المهم أيضاً معرفة أن أبراج المرحلة الثالثة التي تحيط بالبوابة الشرقية قد أعيد إنشائها على الصفوف السفلى من أبراج المرحلة الثانية (الصورة 19) ورغم أن الأبراج خماسية وسداسية الزوايا قد أوصى بها من قبل Philo of Byzantium (فيلو البيزنطي) في دراسته عن أُسس التحصينات الهيلينستية إلا ان الأمثلة الباقية من هذه المرحلة نادرة(89) وهي فوق ذلك أقل شيوعاً من حيث استخدامها على جانبي المداخل كما هو الحال في توكرة.(90) وكل الأمثلة المعروفة من العالم الإغريقي قبل المرحلة القديمة المتأخرة التي ربما تؤرخ ما بين القرن الرابع والقرن الثاني ق.م تشير إلى أن المرحلة الثانية من البوابة الشرقية كانت هيلينستية متأخرة أكثر من كونها تعود الى المرحلة الرومانية المبكرة تاريخياً كما اعتقد سميث الذي أشار أيضاً إلى وجود مرحلتين واضحتين للتحصين الهيلينستي.

أدخلت الأبراج خماسية الزوايا في إعداد التحصينات البيزنطية المبكرة في أواخر القرن الخامس[91] وقد أوصي بها بشكل خاص في دراسة عسكرية من القرن السادس شخص مجهول من بيزنطة،[92] وقد كانت الواجهة المائلة التي توفرها الأبراج الخماسية والثلاثية في مواجهة المهاجمين حصناً فعالاً ضد «المدفعية» وخصوصاً المدكّات المائلة، بالإضافة إلى أن الواجهة ذات الزاويا يمكن مساندتها بفاعلية بنيران من الجانبين من الساتر، وعلى عكس الأشكال الأخرى من الأبراج فإن النقطة الحادة المشكلة بواسطة الجدران المتجهة إلى الأمام لا تحتوي على منطقة عمياء. الأبراج الخماسية البيزنطية المبكرة ترتبط في شكلها ومتطلباتها التكتيكية للأبراج المثلثة وأقدم تاريخ موثوق للأبراج المثلثة جاء من «ثيسالونيكا» حيث إن الأبراج الثلاثية تشكل جز ء من إعادة التحصينات في منتصف القرن الخامس.[93] ولو لم تكن معاصرة لهذه الأبراج فإن الأبراج الخماسية قد استخدمت في تاريخ لا يتعدى نهاية القرن الخامس.[94] وأمثلة الأبراج الخماسية معروفة من تحصينات المقاطعات الشرقية (الصورة 25)،[95] لكن الأبراج في كل هذه الأمثلة لا تحيط بالبوابة كما هو الحال في توكرة، أما الأبراج خماسية الزوايا التي تحيط بالبوابات المعروفة أساساً في البلقان وإيطاليا، وأمثلة من ميسمبريا (نيسبري) (الصورة 19)، ماركو في كولي فوق سكوبج و جوستنيانا الأولى (كارسيني غارد) تقدم نظائر لبوابات توكرة.[96] وبالإضافة إلى توسع مثلث الشكل إلى البرج المستطيل المبكر لتشكيل برج خماسي الزوايا كما في البوابة الغربية في توكرة فقد وجد أيضاً في تحصينين كبيرين في الأدرياتيك هما «أكتيا نيكوبوليس» و«سالونا».[97] بقدر ما تسمح به الأدلة التأريخيه المحدودة فإن الأبراج خماسية الزوايا لم تظهر في التحصينات البيزنطية المبكرة قبل منتصف ونهاية القرن الخامس واستمرت في الاستخدام في العصر البيزنطي الوسيط (700 - 1100م).

ومن الواضح من الأمثلة التي نوقشت حتى الآن أن الأبراج خماسية الزوايا في توكرة ليست خارج سياق القرن السادس، لكن المشكلة الأخرى هي كيف أن هذا التصميم في هذه المرحلة الثالثة قد تحدد إما بالأبراج القائمة التي تحيط بالبوابة الشرقية أو بالممارسة الحالية في الإمبراطورية الشرقية. في مدينة أبولونيا عاصمة المدن الخمس في أواخر القرن الخامس تم ترميم السور القديم في المرحلة القديمة المتأخرة واتبع تقريباً امتدادات السورالهيلينستي.[98] وقد بقيت عناصر السور القديم الهيلينستي في توكرة على

الرغم من أن المسار المسنن للساتر الجنوبي كان محجوباً بالأبراج المستطيلة التي تعود للمرحلة الثالثة.[99] يبين استمرار التصميم أن الأسوار كانت في حالة جيدة وذات فعالية في بعض الأماكن الأمر الذي أدى إلى الاكتفاء بترميمها بدلاً من إنشاء أسوار جديدة للمدينة في مكانها لضمان استرداد القديم فضلاً عن نظام المدينة الجديد. ويمكن الاقتراح أيضاً بأن أبراج المرحلة الثالثة الخماسية كانت قد نسخت مباشرةً من أبراج المرحلة الثانية، فوق ذلك، على عكس أبراج أبولونيا التي بنيت ببساطة بدون تغيير المخطّط، فإن إعادة البناء الأخيرة لأبراج البوابة في توكرة اتبعت امتداداً يختلف عن امتداد البرج السابق في البوابة الشرقية وأنشئت أبراج خماسية جديدة في البوابة الغربية.

ثمة ميزة أخرى تستحق الانتباه في هذه البوابات. وتتمثل هذه الميزة في التشكيل المعماري غير المألوف الذي اتخذ شكل الحرف V في البوابة الشرقية. ويوضح الوصف الذي قدّم أعلاه أن هذه سمة متأخرة حيث إنها ترتكز على سطح الطريق وتعيق بفاعلية عملية الوصول إلى البوابة. ولا يوجد حتى الآن مثال آخر معروف يشبه هذه الميزة: جدار نصف دائري أنشئ في الساحة الأمامية للبوابة الغربية للتحصينات الرومانية المتأخرة في لبدة الكبرى. وكان من الواضح أنه متأخر أكثر من التحصين الرئيسي للقوس التذكاري الضخم لكنه اعتبر «محاولة بائسة أخيرة لحجز الرمل في الخليج»،[100] أكثر من كونه جزءاً من التحصينات العسكرية المتأخرة للبوابة. ويوجد شكل تحصيني مماثل عند البوابة الشرقية الرئيسية بمستوطنة «أريف» التي تعود إلى القرن السادس تحت مدينة «أريكانادا» في «ليشيا». وبما إن الموقع شهد فقط أعمال مسح وبالتالي فإنه ليس من المؤكد أن هذا يمثل مظهراً دفاعياً متأخراً،[101] غير إنه تكون من جدار حاجز نصف دائري مندمج في كنيسة الصغيرة chapel.

باستخدام الأسوار الخارجية والأبراج خماسية الزوايا تمثل توكرة التحصينات الأكثر تقدماً في القرن الخامس والسادس، وهي تمثل نموذجاً من أنواع الحصون الموصوفة برسالة مجهولة من القرن السادس. هذه الصفة ليست معروفة في أي مكان بشمال أفريقيا كجزء من تحصينات جستنيان للمقاطعات، أو قبلها. وقد يعكس هذا بكل بساطة التاريخ الإداري المختلف لإقليم كيرينايكي المتحدث بلغة الإغريق. وعلى عكس القادة في مقاطعات أفريقيا فإن دوق المدن الخمس في ليبيا[102] كان تحت السلطة الجديدة للقائد

العسكري بالشرق التي تمتد من صحراء ليبيا حتى البحر الأسود. ضمن مناطق هذه السلطة وجدت العديد من الأسوار الخارجية proteichismata والأبراج خماسية الزوايا، ويبدو أنه من الممكن أن المبادرة والتأثير لتصميم تحصينات توكرة أتت من هذا المصدر، وعلى أي حال -كما يشير توزيع الاسوار الخارجية البيزنطية المبكرة والأبراج خماسية الزوايا- فإن هذه الأشكال شائعة بشكل مساو في مقاطعات البلقان الامبراطورية كما هي في الشرق.

وتبقى المشكلة في التساؤل لماذا كان الشعور بضرورة تحصين توكرة بهذه القوة في القرن السادس. عندما كان يعاد بناء الأسوار، ربما على يد جستينيان[103] كان لتوكرة أطول وأقوى أسوار في كامل إقليم المدن الخمس.[104] وهذا الاستنتاج يدعمه وصف بروكوبيوس للمدن الليبية، لم يذكر بروكوبيوس أبولونيا ولا كيريني في روايته على الرغم من أن أبولونيا كانت فرضياً لا تزال العاصمة في القرن السادس.[105] ومثل هذا الإغفال المفاجئ وظهور توكرة بمنتصف القرن السادس كأشد مدينة محصنة (في السجلات الأثرية على الأقل) يستدعي التساؤل عن بعض الفرضيات حول «أبولونيا» في هذه المرحلة، ورغم أنه لا توجد استنتاجات مؤكدة قد يتم التوصل إليها بسبب ندرة المصادر التاريخية عن ليبيا في القرنين السادس والسابع، أي آخر مرجع تاريخي موثوق يشير الى أبولونيا عاصمة للمقاطعة نجده عند سينسيديموس Synecedemos لهيروقليس Hierocles عام 28-527م . والدليل الأثري بأن المدينة استمرت تلعب هذا الدور حتى نهاية الحكم البيزنطي يتمثل في بقايا قصر الدوق.[106] وهذا المجمع من المباني استمر دونما انقطاع حتى منتصف القرن السابع وحسب معرفتنا الحالية فإنه لا يوجد مجال للشك في تفسير غودتشايلد.

يمكننا بالمقابل ان نخمن أن مقرات الحاكم (الدوق) ربما تكون قد انتقلت إلى توكرة قبل الأزمة الأخيرة المتمثلة في غزو العرب. وكان حجاج غودتشايلد مبني على أساس رواية جون النيقوسي الذي ذكر أن القائد أبولينوس وجنوده والرجال الأغنياء بالمقاطعة قد انسحبوا سوياً إلى توكرة (35, CXX) لكن دون أن يذكر الانسحاب من أبولونيا بوضوح، كما استدل غودتشايلد. وفي السياق نفسه هناك مصدر واضح عن المرحلة الأخيرة من تحصينات توكرة : « لقد تحصنت الآن أسوارها بقوة». القلعة والتحصين المتأخر بالبوابة

الشرقية تم التعرف عليها بأنها تنتسب إلى هذه المرحلة الأخيرة من حياة المدينة. والأولى أشير إليها لدى غودتشايلد على أنها «قلعة توكرة الكبرى» التي تمثل المشاريع العامة الأخيرة في إقليم كيرينايكي قبل السيطرة العربية.(107) على الرغم من ذلك فإن مثل هذا التفسير لا يأخذ في اعتباره تداخل المصادر التاريخية والأثرية بالكامل.

إن توكرة واحدة من المواقع الثلاثة في إقليم المدن الخمس التي وجد بها شيئاً من مرسوم «أنستاسيوس» الذي يخص جنود الجبهة (SEG ,414)، وقد لاحظ غودتشايلد أن نظير هذا المرسوم في العاصمة أبولونيا نقش في المرمر في حين أن الأمثلة الأخرى من توكرة وبتوليمايس نقشت على ألواح من الحجر الرملي، وتشير بذلك إلى حالة المدن الإدارية المختلفة في ذلك الوقت.(108) الدليل الثاني للنشاط العسكري ،كما هو واضح من التحصين المدني، كان ما يسمى في توكرة بالقلعة البيزنطية في الجهة الجنوبية من الديكومانوس. لم يتم نشر نتائج الحفريات التي أجريت في عقد الستينات من القرن العشرين،(109) لكن ملخص الأدلة الأثرية والمخطط المنشور مع مخطط المدينة الجديد يسمح لنا برؤية مجمع عسكري مخطط ومنظم جيداً. ولكن من جهة أخرى ربما يبرز سؤال عما إذا كانت النية من هذه القلعة أن تكون ذات طابع دفاعي. وهل كانت هي الملجأ الأخير؟ السمة الشائعة في تحويل التخطيط الحضري في المرحلة القديمة المتأخرة كانت تقليل المساحة المحمية بالأسوار، وهذه الظاهرة كانت معروفة في كل العالم الروماني المتأخر خصوصاً في آسيا الصغرى من القرن السادس فصاعداً.(110) ويمكن رؤية مثل هذا التعاقب في «حيدرة» في ولاية أفريقيا المعاد السيطرة عليها حيث تحتل قلعة «جستنيان» مساحة أصغر بكثير من المدينة المبكرة .(111) القلعة البيزنطية في توكرة أنشئت بمقياس مختلف جداً عن قلعة «حيدرة» وفضلاً عن كونها تمثل الملجأ الأخير أو مركز المجتمع المدني المتقلص، فإن القلعة في توكرة حددت منطقة الإدارة الرسمية داخل المدينة . وتقارن بقلاع القرن الثالث م .في أماكن بعيدة مثل «كوربردج» و«ديورا يوروبوس» حيث كانت الفرق العسكرية مفصولة عن المستوطنات المدنية في مجمعات عسكرية مستقلة . وكما لاحظ «روك» فإن دراسات العصر القديم المتأخر في إقليم كيرينايكي تخللتها «أسطورة التدهور»(112) ورغم أن أُسس الجدار الخارجي المحيط بالقلعة البيزنطية قد تكون منخفضة(113) فإنه لا يوجد سبب لربط ذلك مع فرضية إنشاؤه بشكل طارئ ومستعجل.

وتمثل القلعة الحضور الرسمي المتواصل لحامية عسكرية ربما لها صلة بقيادة إقليم المدن الخمس في أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع التي تمركزت داخل أسوار جستنيان المنيعة.

تم التركيز بشكل كبير وملحوظ في رواية «جون النيقوسي» على غزو العرب مصر وشمال أفريقيا في أعوام عقد 640م، لكن نتيجة تلك الدراسات تجاهلت احتلال الساسانيين للإسكندرية ومصر بين عامي 619- 628 كقرينة محتملة للتغيرات في البنيات الدفاعية والإدارة العسكرية للمنطقة.[114] ولعبت المدن الخمس دوراً هاماً في التآمر ضد الإمبراطور «فوكاس» على يد هرقل وأبوه، الذي كان قائداً في قرطاج، في بداية القرن 115حيث أنه لا يوجد دليل بأن المدن الليبية قد احتلها الفرس بعد سقوط الإسكندرية، وهذه بالتأكيد تكون خلال المرحلة التي قد نتوقع فيها رداً عسكرياً من مدن مثل توكرة، وخصوصاً أنها تقع في الجزء الغربي من إقليم كيرينايكي، وكانت معزولة إلى درجة ما عن العدو المستقر في مصر. وفي وقت الأزمة هذه قد نتوقع وجود دليل لإجراءات دفاعية، وبالرغم من أن المظاهر المتأخرة في البوابات الغربية والشرقية تشير إلى اهتمام أكبر بالأمن، فإنه لا يوجد دليل مؤكد على الخوف على عكس ما حدث في ابولونيا من غلق واضح للبوابة الغربية.[116] ليس بالإمكان وضع تاريخ مؤكد لهذه الأعمال سواء في توكرة أو أبولونيا، وليس لدينا ما يمكن أن نفرق به بين الغزوات العربية في أعوام عقد 640م أو الغارات الساسانية التي حدثت قبل ذلك بعقدين. والدراسة المستقبلية للأدلة الأثرية من الحصن قد توفر دليلاً إضافياً من خلال دراسة العملات والخزف الذي قد يمكن من تحديد إطار زمني أوضح لأحداث القرن الأخير لحكم البيزنطيين في توكرة. بما أن هذا المجمع لا يتوافق بأي طريقة مع أسوار المرحلة الثالثة، فإن كل الأدلة المعمارية تمكننا من أن نقترح بأن المنشأتين المعماريتين على الأرجح غير متعاصرتين، وبذلك تعد القلعة لاحقة بالنسبة للأسوار الساترة.

من المهم إدراك أن هناك قرناً من الزمان يمتد بين اكتمال «العمائر» De Aedificiis(تأريخ بروكوبيوس لأعمال جستنيان المعمارية)، والسيطرة النهائية على المدن الخمس من قبل العرب. إن صمت المصادر الإمبراطورية لا يشير بالضرورة إلى خمول في المقاطعات، ولكننا نحتاج لتحديد المراحل المميزة الممثلة في السجل الأثري حتى لو أنها

لم تستخدم لعمل رواية تاريخية واضحة. المصادر الأدبية البسيطة لا تسمح لنا بشرح لماذا كانت التحصينات التي تعود للمرحلة الثالثة في توكرة إما واسعة أو معقدة، لكن المباني نفسها تضع العمل في سياق المشروعات الاستعمارية الكبرى في الإمبراطورية الرومانية الشرقية، وتجعلنا المقارنة بأبولونيا، حيث لا دليل على وجود تحصينات كبيرة أثناء القرن السادس، نخمن بأن إعادة تحصين توكرة كان يشكل جزءاً من السياسة الإمبراطورية التي كانت تهدف إما إلى خلق مدينة عسكرية مكافئة للعاصمة أو ربما لرفع توكرة كعاصمة جديدة لإقليم المدن الخمس. وما حدث في الأعوام التي تلت لا يمكن أن يدرك بالتفصيل من دليل المسح أو من الروايات التاريخية المحدودة جداً، لكن نأمل أن تكشف الدراسات المستقبلية والحفريات عن الكثير فيما يتعلق بالحياة في المدينة في المرحلة القديمة المتأخرة ومصيرها النهائي.(117)

***

■ هوامش وتعليقات:

29. هذه الحفريات قد أجريت في عامي 39-1940 بمعرفة G.Pesce لكنها لم تنشر .

30. R.G.Goodchild and J.B.Ward Perkins 1953,56-8,fig.5,pl.XVIII.

31. قاد الحفريات غوتشايلد وكنت عند طلبه حيث أعددت رسم البوابة عام 1967 لنشر بحث مشترك عن توكرة.

32. Kraeling 1962,58-60,pls.VI-VIII,plan IV .

33. سوف تحدّد الحفريات بدون شك إجابة السؤال، وتوفر في الوقت نفسه أدلة متعاقبة ترتبط بالفترات المتتالية للظواهر المعمارية المكشوفة.

34. الدعامات الحالية لمثل هذا القبو لاتزال سليمة في البرج المنقب عنه في مدينة أبولونيا على بعد حوالي 150كم شرقاً على طول الساحل، انظر أيضاً وصف البرج 6 في توكرة أعلاه.

35. cf.Marsden 1969,113-14,148-50,162,diagram 12(a) ;

انظر أيضاً McNicoll 1997,10,table 4,125-6 وقد لاحظ أن الأبراج خماسية وسداسية الجوانب كانت نادرة نسبياً.

36- انظر التعليق أدناه.

37. يبدو أن شقوق المشابك الحديدية في البوابات القديمة كانت ذات عرض بين 0.50 ، 0.25م. لبعض الأمثلة انظر: Richmond 1931, fig. 14, Puerte del Minho, Lugo, post-AD 258; ibid., 1932, fig.8 ,

البوابة، Fano, fig. 7,البوابة الغربيةBenere, Spello; ibid., 1933, fig. 5, Minturno, fig. 6, , Porta di الغربية البوابة الجنوبية ، Rimini

38. من أجل المخطّطات انظر: Kraeling 1962,52, fig.8، وقد أعيد عمل الرسم التخطيطي المؤرخ بعام 1936، والمخطط 4 اللافت للنظر،إضافة إلى أن Kraeling لم يشر لشق المشبك الحديدي خلف الباب، ولابد أن أعترف بأنه في فحوصاتي السريعة العابرة لهذه البوابة لم ألاحظ أي إشارات إليها، ومن الممكن بناء على ذلك، المجازفة بالتفسير الحالي فقط، على أساس المخططات المنشورة، فأنني أسأت تفسير غرض هذه الفتحة الظاهرة. في تحديد تاريخ هذه البوابة انظر: .Kraeling 1962,61-2، وقد يضاف أن وجهة نظر Kraeling لشكلها الأصلي 1962 ،59-60 سوف تكون مطابقة بالكامل لتفسير Richmond لبوابات أغسطس في تورينو و سبيلو وأماكن أخرى كونها صممت لحصرالمهاجمين الغافلين بين المشقبية والبوابات الفعلية.

39. لم أكن قادراً على اكتشاف التعبير التقني أو حتى الموازي لهذه الميزة، موقعها ووظيفتها تذكرنا بالخندق tutulus الذي

وجد في المعسكرات المؤقتة في العصور الرومانية المبكرة.

40. Chronicle of John of Nikiu (Charles 1916, CXX, 35), cited by Goodchild 1967,116-17.

41. Goodchild 1967,115-16,122, أنظر أيضاً التعليقات أدناه.

42. بالنسبة إلى آسيا الصغرى انظر: McNicoll 1997 .

43. تبقى القليل من أسوار كيريني، المدينة الهيلينستية الرئيسية في الإقليم، انظر Goodchild (1965, 137)، لوحة 65a ، أعيد إنشاء المخطط العام بواسطة Stucchi 1975، اللوحة1. انظر الدراسة الحالية عن ابولونيا وكيريني في White 1998 .

44. انظر 8 – 235 ,Mitchell 1993 بالنسبة إلى أسيا الصغرى، و Wilkes 1989 بالنسبة إلى بلاد اليونان.

45. Foss and Winfield 1985, 80.

46. انظر تعليقات Saradi Mendelovici 1988, 397-401 في ما يخص الأهمية المعطاة للتحصينات في كتاب «العمائر».

47. انظر Des Courtils 1994, عن تركيب التحصينات في Xanthos في Lycia بين القرن السابع ق.م والسابع الميلادي، والتحصينات المتأخرة ظاهرة من المسح والحفريات في أبولونيا، انظر White, 1976 .

48. لا يوجد مسح لتحصينات Aphrodisias لكن انظر المخطط الجديد عند Smith and Ratte 1995، اللوحة 1، والنقوش من البوابات في Rouchee, 1989 .

49. هذا لو أن الحجر كان قد نحت في الموقع، يعتبر Smith أنه معاد الاستخدام. أنظر Reynolds 1977: لوصف هذه النقوش.

50. Diehl 1986 والأحدث منشور Pringle 1981 و White 1976 . انظر أيضاً المراجعة الهامة التي أجريت

بواسطة Duval 1983.

51. أعيد نشره في Kraeling,1962, fig.7 .

52. Procopius, De Bello Persico, 2, 13, 24-8 .

53. Winter1971; Garlan 1974,250-57; Lawrence 1979, chapter 13 ;

بالرغم من تعليقات لورنس عن مشاكل تحديد الأدلة للأعمال الخارجية ، 1979، 276، 277 لكن من المرجح عملياً أن الأسوار الخارجية والأسوار المزدوجة استخدمت بقلة في العصر الهيلينستي ولدينا بعض الأمثلة من العالم الاغريقي. انظر: McNicoll, 1997, 12, n.83. Garlan 1974, 250 وأيضاً الملاحظات بأن غالبية التحصينات الخارجية معروفة في العصر الهيلينستي من 'peripheric barbare'. White 1998, 598-99 'يضع في الاعتبار أدلة الجدران الخارجية الهلينستية من أبولونيا وكيريني.

54. من المهم أن Dio Cassius, 76, 12, 1 يستخدم عبارة يونانية بسيطة του εχωθεν περιβολου بدلاً من المصطلح التقني proteichisma الذي كان يستخدمه الكتاب الهيلينستيين والبيزنطيين، . Andrae 1912, Ahmed 1972. من المرجح أن يكون السور الخارجي قد شيد من قبل الرومان أو الفرس لغرض الحصار بدلاً من كونه دفاعات شيّدت بواسطة الحضريين (نسبة الى الحضر في العراق)، Bradford 1957, 73-5, pi. 24.

55. Ammianus Marcellinus, 20.7.1

56. Oates 1968, 99-103, fig. 11.73

57. Gabriel 1940, 85ff.

58. McEwan et al., 14-17,24-7. pls. 10-12;

تماثل إنشاء الأسوار الداخلية والخارجية يجعلنا نقترح بأنها متعاصرة. ويعتقد أن تاريخها يعود إلى عام 383 ميلادي (Pauly-Wissowa, sv Resaina).

59. Alfoldi-Rosenbaum 1972.

إنني شاكر للدكتور H.Williams اقتراحه بأن النقش قد يشير إلى السور الخارجي.

60. Ammianus Marcellinus ,21, 12, 13 .

61. انظر دليل السور الخارجي المشيد من قوالب الطوب من نيكوبوليس و ايستروم Poulter 1995.

62. المراجع حول هذا الأمر كثيرة، للاطلاع على مختصر في ما يتعلق بالتأريخ والمراجع الكاملة انظر: Muller-Wiener 1977, 286-95 وهو يعدّ السور الخارجي معاصراً للأسوار الرئيسية، لكنه لم يناقش الأدلة المادية بالتفصيل. مقال Lebek 1995الذي نشر حديثاً يراجع الأدلة النقشية والتاريخية للأسوار الداخلية والخارجية في القسطنطينية لكنه لم يأخذ في الاعتبار الأدلة الإنشائية؛ انظر أيضاً Ricci 1989 .

63. أسوار ثيسالونيكا الخارجية، Tafrali 1913, 55ff, 69-71; والمخطط الأكثر حداثة لدى Alexandrov 1976, sv.: وللاطلاع على نتائج الحفريات Arkeologikon Deltion 26 (1971), Kronika, 373-4

انظرThessalonika تشابه البناء في السورين وكيف و ظلف الجدار الخارجي نوقشت بواسطة J. M Spieser in Lemerle 1979, 140, n. 3 لتاريخ تحصينات ثيسالونيكا انظر1984 Spieser, :الذي لاحظ ان السور الخارجي كان يمثل حاجزاً اكثر من كونه مصطبة للقتال، .1984، 73

64. Ducoux and Lemerle 1938, 4-19; ibid. 1945, 147-9.

65. Ovcharov 1973; Hoddinott 1975;

66. Jenkins and Megaw 1931-2, esp. 78, Fig. 5,

67. Procopius, De Aedificiis chapter 2; Croke and Crow 1983.

68. McCotter 1995,302-10.

69. انظر الهامش رقم 60.

70. انظر الهامش رقم 63.

71. Procopius, De Bella Persico 2, 13, 16; Anonymous of Byzantium 12, 31-6; translated in Dennis 1985, 35.

72. انظر الهامش رقم 99 أدناه.

73. Procopius, De Bello Persico 2, 19, 8-15.

يقول أن العرب كانوا غير قادرين بطبيعتهم على اختراق السور لكنهم كانوا جيدين في النهب، ويعطى سينيسيوس Synesius صورة واضحة عن الحرب بين الصحراء والمدينة. والموجز حديثاً عند Tomlin 1980 ; وناقشه أيضاً وايت White 1976و 4-142, انظر أيضاً مناقشة ماكوتر .McCotter 1995, 296-8.

74. Jones 1964, 1062, n. 54; Musset 1975, 178;

انظر الدليل من رسائل سينيسيوس على دور الأسقف في الدفاع المحلي (White 1976, Tomlin 1980) الحالة الأخرى للتدخل المباشر للأساقفة عرفت أيضاً في بلاد ما بين النهرين حيث كان الدفاع عن ريساينا/ ثيودوسيوبليس من تنظيم وإشراف الأسقف يونوميوس الذي يصفه ثيودوريت في Ecclesiastical History V, 36; PG 82, 1270 بمطاردة ناجحة للهجوم الفارسي بالأسلحة المدفعية التي سميت على اسم القس توماس.

75. Cod. Theod., 11, 17, 4; 15, 1, 49; Nov. Val., 5, 2, 2-3.

76. Cod. Theod., 15, 1, 51.

77. Liebeschuetz 1977, 487-99, esp. 491-2;

78. Liebeschuetz, ibid., 493, n. 65.

79. Zachariah of Mitylene, The Syriac Chronicle, tr. F. J. Hamilton and E. W. Brooks (1899), 164-7.

80. Joshua the Stylite, Chronicle, composed in Syriac AD 507, tr. W. Wight (1882), 91.

81. Ibid. 87.

82. Ibid. 58.

83. Curcic 1992, 17-20.

84. Pringle 1981, 180, figure 18; Baratte 1996, 145.

85. Wright 1993, Ward Perkins 1976, 276-7.

86. Duval 1983, 198.

87. كمثال للفشل في اقتران الإنشاءات، في دراسة ورد بركنز للكنيسة الغربية في أبولونيا (1976) الحائط الدفاعي المبكر محذوف من مخططات الكنيسة، على فرضية أنه كان قليل الأهمية. ضمن فيز -324 ,Vaes 1986 5عدداً من أمثلة الكنائس والمعابد اليهودية شيدت بجوار أو داخل التحصينات، لكن قائمته ليست شاملة وأغلب أمثلته من أوروبا.

88. Pringle 1981, 301, fig. 22.

89. Garlan 1974 331-5; Hall 1976, 191-7, fig. 2; McNicoll 1997, 125-6 (Oenoanda), 155-6.

90. انظر المثال من هيلاريما Hyllarima في كاريا Caria حيث البوابة الرئيسية محاطة بأبراج خماسية وسداسية 1994, 199-204, fig. 4.;Brun

91. Bobchev 1961, 103-45;

92. Dennis 1985,35.

93. Tafrali 1913,74-5;

94. الأبراج الخماسية الزوايا كانت عنصراً أساسياً في نظام الدفاع عن سور أنستاسييوس Anastasian الطويل في Crow and Ricci 1997, 249, n. 70, figure 7, plate 1

95. خصوصاً في أنتيوخ Antioch والرصافه Resafa وميلتينMelitene وكيمهKemah ويستمر الشكل في الاستخدام في التحصينات البيزنطية خلال القرن السابع والثامن في آسيا الصغرى، انظر مولر . Muller Wiener 1986

96. بالنسبة إلى ميسمبريا Messembria انظر .Vendikov 1969, 38-53, 125-49ميسمبريا مثل توكرة بها مشقبيات تتلائم في موضعها مع فتح البوابة بإتجاه الأمام. بالنسبة إلى جستينيان الأول انظر Mano-Zissi 1968, 111-14 pl.2 وبالنسبة إلى ماركوفي كولي Markovi kuli انظر Mikulcic 1982, 49-50, figure 23; وبالنسبة إلى تيراسين في ايطاليا انظر زندر.Zander 1968, 85

97. Actia Nicopolis ,Hellenkemper1987, Gregory 1987 ;Salona ,Dyggve 1928, 1, plans A, B.

98. Goodchild et al.1976, 85-155.

99. بالنسبة للمسار المسنّن انظر: Garlan 1974, 245-50 and McNicoll 1997; White 1976, 146. أشار وايت مخطئاً إلى أن المسار المسنن لم يكن له وجود في توكرة. وهو واضح في مخطط الأخوان بيتشي . الجمع بين

الأبراج والمسارات المسننة معروف من آسيا الصغرى الهيلينستية.

100. Goodchild and Ward Perkins 1953, 52, fig. 3; Bandinelli 1966, plate 170.

101. Harrison and Lawson 1979, 13-17 ,plan p.14.

102. Jones 1971, 289-97.

103. Procopius, De Aedificiis, 5.

104. Goodchild 1953, 76; 1966, 235.

105. Goodchild el al. 1976, 20-5; Roques 1994; Roques 1996.

106. Goodchild el al. 1976, 245-53; Ellis 1985.

107. Goodchild 1966, 249-50.

108. Goodchild 1966, 236, n. 27; see also Roques 1987, 92.

109. Jones 1983, 1985.

110. Brandes 1989, 82-109.

111. Duval 1983, 185-8.

112. Roques 1987, 27.

113. Jones 1985,37.

114. Bowman 1990,51-2.

115. See John of Nikiu 108, (Charles 1916, 167-8).

116. White 1976, plate 15 e and f.

117. انظر دراسة بن طاهر الحديثة Bentaher 1994.

■ المراجع:

Ahmed, S. S. 1972. Hatra Iraq, Archaeology 25: 103-11.

Alexandrov, G. 1976. Tabula Imperil Romanii: Naissus etc, K34. Ljubljana.

Alfoldi-Rosenbaum, E. 1972. Matrohius, comes Isauriae: an inscription from the sea wall at Anemorium, Phoenix 26: 183-6; see the revisions by Jones C. P., Phoenix 26 (1972), 396-8

Andrae, W. 1912. Hatra //, Wissen Veroffentl. d. Deuschen Orient-Gesellschaft 21. Leipzig.

Baratte, F. 1996. Recherches franco-tunisiennes sur la citadelle byzantine d'Ammaedara (Haidra), Comptes rendus de VAcademic des Inscriptions et de belles Lettres: 125-54 .

Barker, G., Lloyd, J, and Reynolds, J. 1985. Cyrenaica in Antiquity, BAR International Series 236 Oxford. Beechey, F. W. and Beechey, H. W. 1828. Proceedings of the Expedition to

Explore the Northern Coast of Africa, from Tripoly Eastward in 1821 and 1822. London.

Bentaher, F. 1994. General account of recent discoveries at Tocra. Libyan Studies 25: 231-43.

Boardman, J. and Hayes, J. 1966. Excavations at Tocra 1963-65. The Archaic Deposits I. Oxford.

Boardman, J. and Hayes, J. 1973. Excavations at Tocra 1963-65. The Archaic Deposits and Later II .Oxford.

Bobchev, S. 1961. Die Stadtmauerturme mit spitzem vorsprung und ihre bedeutung fur die bcsestigung der antiken Stadte. hvestitya Arkeoloicheski Institut 24: 103-45.

Bowman, A. 1990. Egypt after the Pharaohs. Oxford.

Bradford, J. 1951. Ancient Landscapes, Studies in Field Archaeology. London.

Brandes, W. 1989. Die Stadte Kleinasiens im 7. und 8. Jahrhundert. Amsterdam. Brun, P. Les fortifications d'Hyllarima, Philon de Byzance et Pleistarchos. Fevue des etudes anciennes 94: 193-204.

Cameron, A. 1996. Procopius and the Sixth Century. London. I

Catani, E. and Marengo, S. M. 1998. La Cirenaica in Eta Antica, Atti dei Convegno Internazionale di Studi, Macerata.

Charles, R. H. (trans.) 1916. The Chronicle of John of Nikiu. London. Chrysos, E. (ed) 1987. Nikopolis 1. Prevesa.

Claude, D. 1969. Die byzantinische Stadt im 6. Jahrhundert (Byzantinische Archiv 13), Munchen.

Croke, B. 1978. Hormisdas and the late Roman walls of Thessalonika. Greek, Roman and Byzantine Studies 19: 251--8.

Croke, B. and Crow, J. 1983. Procopius and Dara. Journal of Roman Studies 73: 143-59.

Crow, J. and Ricci, A. Investigating the hinterland of Constantinople: interim report on the Anastasian Long Wall. JRA 10:235-62.

Crow, J. G. 1981. Late Roman Fortifications in the Lower Danube Provinces, M.Litt thesis. Newcastle upon Tyne.

Curcic, S. 1992. Design and structural innovation in Byzantine architecture before Hagia Sophia. In Mark, R. and Cakmak, A. Hagia Sophia from Justinian to the present. Princeton.

Dennis, G. T. 1985. Three Byzantine Military Treatises, Corpus Fontium Historiae Byzantinae 25, Washington.

Des Courtils, J..1994. Nouvelles donnees sur le rempart de Xanthos. Revue des etudes anciennes 96: 285-98 .

Diehl, C. 1896. L'Afrique Byzantines hisloire de la domination byzantine en Afriqiie. Paris.

Ducoux, H. and Lemerle, P. 1938. L'Acropole et l'Enceinte Haute de Philippes, BCH 62: 4-19.

Ducoux, H. and Lemerle, P, 194.5. Phiiippes et la Macedoine orientale. Paris.

Durliatt, J, 1981. Les dedicaces d'ouvrages de defense dans l'Afrique byzantine, Ecole Francaise de Roman Coll.

Dyggve, E. 1928. Recherches a Salona I. Copenhagen.

Ellis, S. 1985. The Palace of the Dux at Apollonia, and related houses, in : Barker et al. 1985: 15-26.

Feissel, D. 1992. Notes d'epigraphie Chretienne (VIII). BCH 116, 383-407.

Foss, C. and Winfield D. 1985. Byzantine fortifications, an introduction. Pretoria .

Gabriel, A. 1940. Voyages Archeologiques en Turquie Oriental. Paris.

Garlan, Y. 1974. Recherches de Poliorcetique grecque. Athens.80

Goodchild. R. G. and Ward Perkins J. 1953. The Roman and Byzantine Limes in Cyrenaica. Journal of Roman Studies 43:65-76.

Goodchild, R. G. and Ward Perkins j. 1953. The Roman and Byzantine Defences of Lcpcis Magna. Papers of the British School at Rome 21: 42-73.

Goodchild, R. G. 1965, Arcllaeological News 1963-64, Cyrenaica. Libya Antiqua 2: 137.

Goodchild, R. G. 1966, Fortificazioni e Palazzi Bizantini in Tripolitania e Cirenaica. Corsi di cuhura sll'arte ravennate e bizatitini: 225-50.

Goodchild, R. G. 1967. Byzantines, Berbers and Arabs in 7th-century Libya. Antiquity 41:

114-24.

Goodchild, R. G., pedlley,- J. G. and White, D. 1976. Apollonia, the Port of Cyrene, Exeavations by the-University of Michigan 1965-7, Supplements to Libya Antiqua 4.

Gregory, T. 1987. The early Byzantine fortifications of Nikopolis in comparative perspective, in: Chrysos 1987:500-9.

Gregory, T. E. 1993. Isthmia 5. The Hexamillion and the Fortress. Princeton. Haldon. J. F. 1995 Strategies of defence, problems of security: the garrisons of Constantinople in the middle Byzantine period, in C. Mango and G. Dagron, Constantinople and its hinterland, SPBS 3, Aldershot.

Hall, A. S. 1976. The Oenoanda survey: 1974-6, Anatolian Studies 26: 191-7.

Harrison, R. M. 1991. Amorium Excavations 1990, Anatolian Studies 41: 220-2.

Harrison, R. M. and Lawson G. R. J. 1979, An Early Byzantine Town in Arif in Lycia, Yayla, 2, 13-17.

Hellenkemper, H. 1987. Die Byzantinische Stadtmauer von Nikopolis in Epeiros, cin Kaiserlicher Bauauftrag des 5. oder 6. Jahrhunderts. In Chrysos 1987: 243-61.

Hoddmott, R. F;. 1975. Bulgaria in Antiquity: an archaeological introduction. London.

Jenkins. R. and Megaw, A. H 1931-2. Researches at Isthmia. Annual of the British School at Athens 32: 68-89.

Jones, A. IF M. 1964. The Late Roman Empire: 284-602. Oxford.

Jones. A. H. M. 1971. Frontier defence in Byzantine Libya. In Gadallah. F. (ed) Libya in History. Proceedings of a conference held at the Faculty of Arts, University of Libya 1968(Benghazi) : 289-97.

Jones, G. D. B. 1983. Excavations at Tocra and Euhesperides, Cyrenaica 1968-1969. Libvan Studies 14:109-21.

Jones, B. 1985. Beginnings and Endings in Cyrenaican Cities, in: Barker et al. 1985: 27-42.

Kraeling, C. FF 1962. Ptolemais, City of the Libyan Pentapolis. Chicago. Lawrence, A. W. 1979. Greek Aims in Fortifications. Oxford.

Lebek, W. D. 1995. Die Landmauer von Konstantinopel und ein neues Bauepigram. Epigraphica Anatolica 25: 107-54.

Lemerle, P. 1979. Les Plus Anciens Receuils des Miracles de St Demetrius et la Penetration des Slaves dans les Balkans 1, le texte. Paris.82

Lieheschuetz, J. H . W. 1977. The defences of Syria in the sixth century. Studien zu den. Militargrenzen Roms II. Koln. 487-99.

Mano-Zissi, D. 1968. Caricin Grad, Starinar 19: 111-14.

Marsden, E. W. 3969. Greek and Roman Artillery: Historical Development. Oxford.

McCotter, S. 1995. Strategy and Tactics of Siege Warfare in the Early Byzantine Period: From Consuuitine to Flerachus. Belfast PhD.

McEwan, et al.' 1958. Soundings at tell Fakhariyah , Oriental Institute Publications, Chicago.

McNicoll, A. W.I 997. Hellenistic Fortifications from the Aegean to the Euphrates. Oxford.

Mitchell. S. 1993. Anatolia: Land, Men and Gods in Asia Minor 1. Oxford. Muller-Wiener, W. 1977. Bildlexikon zur topographic Istanbuls. Tubingen.

Muller-Wiener, W. 1986. Von der Polis zum Kastron. wandlungen der Stadt im agaischen Raum. Grvmnasium 93: 435-75.

Musset, L. 1975. The Germanic Invasions: the making of Europe, AD 400-600. London.

Oates, D. 1968. Studies in the Ancient History of Northern Iraq. London. Oliverio, G. 1936. Documenti antichi dell' Africa Italiana II.

Ovcharov, D. 1973. Le proteichisme du systeme des fortifications pendant la haut époque Byzantine dansles- terres Bulgares. Arkeologya 15: 11-23.

Popescu, E. 1976. Inscriptii Grecesti si Latine din Sec. IV-XIII descoperite in Romania. Bucurest.

Poulter, A. 1995. Nicopolis ad Istrum: a Roman, .Late Roman and Early_Byzantine City: excavations 1985-1992. Vol.1, Britannia Monographs No. 8. London.83

Pringle, R. D. 1981. The Defence of Byzantine Africa from Justinian to the Arab Conquest: an account of the military history and archaeology of the African provinces in the sixth and seventh centuries. BAR Int. Series 99. Oxford.

Reynolds, J. M. 1977. The date of the Tocra graffiti. Libyan Studies 11: 65-72.

Reynolds, J. 1998. The Ephebic inscriptions of Teucheira. In Catani and Marengo 1998: 475-84.

Rey, L. 1925. Les remparts de Durrazo, Albania. Revue d'Archeologie: 33-48.

Ricci, A. 1989. The land walls of Constantinople: prototype or imitation? Byzantine Studies Conference Abstracts.

Richmond, I. A. 1931. Five town-walls in Hispania Citerior. Journal of Roman Studies 21: 86-100.

Richmond, I. A. 1932. Augustan gates at Torino and Spello. Papers of the British School at Rome 22:52-62.

Richmond, I. A. 1933. Commemorative arches and city gates in the Augustan age. Journal of Roman Studies 23: 149-74.

Roques, D. 1987. Synesios de Cyrene et la Cyrenaique du Bas-empire (Etudes d'antiquites Africaines).Paris.

Roques, D. 1993-1994. Procope de Cesaree et la Cyrenaique du VI s.ap.J.C. (De Aedificiis, VI, 2, 1-23), Rendiconti della Accademia di Archeologia, Lettere e Belle Arti, n.s. 64: 393-434.

Roques, D. 1994. Procope de Cesaree et la Cyrenaique du 6e s.ap.J.C. (resume). Libyan Studies 25: 259-64.

Saradi Mendelovici, H. 1988. The demise of the ancient city and the emergence of the mediaeval city in the Eastern Roman Empire, Echos du Monde ClassiquelClassical Views 32: 365-401.

Scranton, R. L. 1941. Greek Walls. Cambridge, Mass.

Smith, R. R. R. and Ratte, C. 1995. Archaeological research at Aphrodisias in Caria 1993. American Journal of Archaeology 99: 33-58.

Spieser, J.-M. 1974. Notes sur la chronologic des remparts de Thessalonique, BCH 98: 507-19.

Spieser, J.-M. 1984.- Thessalonique et ses monuments du IVe au Vie siecle: contribution a etude d'une ville paleochretienne. Paris.

Stillwell, R. (ed) 1976. The Princeton Encyclopedia of Classical Sites. Princeton.

Stucchi, S. 1975.Architettura Cirenaica (Monographic di Archeologia Libica 9). Roma.

Tafrali, O. 1913 Topographie de Thessalonique. Paris.

Tomlin, R. 1980. Meanwhile in north Italy and Cyrenaica ..., in: Casey, P. J. (ed). The End of Roman Britain, Oxford: 260-70.

Unal, R. H. 1968. Les monuments islamiques anciens de la ville d'Erzurum et de sa region. Paris. Vaes, J. 1984-86. Christliche Wiederverwendting antiker Bauten: Ein Forschungsberichte. Ancient Sociefr 15-17:305-443.

Vendikov, I. 1969. In Ivanov, T (ed). Nessebre I: 38-53, 125-49.

Ward-Perkins, J. 1943. Christian Antiquities of the Cyrenaican Pentabons, Bulletin de la societe d'Archeologie copte 9: 123-39.

Ward Perkins, J. B. 1976. The Christian Architecture of Apollonia, in: Goocfchild et al. 1976: 267-92.

White, D. 1976. The City Defenses of Apollonia, in: Goodchild et al. 1976: 85-155.85

White, D. 1998. Static versus reactive defense: an in-progress case study of the Apollonia and Cyrene fortifications, in: Catani and Marengo 1998: 579-622.

Wilkes, J. J. 1.989. Civil Defence in third-century Achaia, in: Walker, S. and Cameron, A. 1989. The Greek Renaissance in the Roman Empire. London: 187-92.

Winter, F. E. 1971. Greek Fortifications. London.

Wright, G. R. H. 1993. The martyrion by the city wall of Apollonia. Libyan Studies 24: 37-56.

Zander, G. 1968. Ruines des fortifications d'epoque byzantine et du haut-moyen age dans le sud d'ltalie, Actes de huitieme reunion scientifique, Institut international des chateaux historiques.868788

اختصارات التوثيق في آجال Abbreviations used in AJAL

Kilo annum	ka	أ. س.	ألف سنة
Et cetera	etc.	إلخ.	إلى آخره
Id est	i.e.	أي	أي
Anno Domini	a.d.	ب.م.	بعد الميلاد
Editor	ed.	ح.	تحرير، محرّر
Translation	trans., tr.	ت.	ترجمة، تعريب
Part	pt.	ج.	جزء
Circa	ca.	~	حوالي (للأرقام)
No date	n.d.	د.ت.	دون تاريخ
Number	no.	ر.	رقم
Common Era	c.e.	ز.ح.	الزمن (العصر) الحالي
Figure	fig.	ش.	شكل
Page	p.	ص.	صفحة
Edition	ed.	ط.	طبعة
Second Edition	2nd ed.	ط.2	الطبعة الثانية
Revised edition	rev. ed.	ط. ن.	طبعة منقحة
Chapter	ch.	ف.	فصل
Paragraph	para.	فق.	فقرة
Confer	cf.	قا.	قارن
Section	sec.	ق.	قسم
Before Common Era	b.c.e.	ق.ح.	قبل الزمن الحالي
Before Christ	b.c.	ق.م.	قبل الميلاد
Section	sect.	ق.	قسم
Exempli gratia	e.g.	مثال	مثال
Volume	vol.	م.	مجلد
Ibidem	Ibid.	م. س.	مرجع سابق
Supplement	suppl.	ملحق	ملحق، تكملة
Et alii, et aliae	et al.	وآخرون	وآخرون
Videlicet	viz.	أي	يعني، بكلمات أخرى

اصطلاحات يُفضّل استخدامها في مجلة آجال، تعريباً واختصاراً

1. العصور الحجرية

- **الحَجَرِيم** مقابل «باليوليثيك» Paleolithic (العصر الحجري القديم).

- **الحجرِين** مقابل «ميزوليثيك» Mesolithic (العصر الحجري البيني أو المتوسط).

- **الحجريد** مقابل «نيوليثيك» Neolithic (العصر الحجري الجديد أو الحديث).

2. مصطلحات عامة

- **أفرسة** = Afroasitization : إضفاء طابع أفروآسيوي.

- **أفرقة** = Africanization : إضفاء طابع أفريقي.

- أمزغة، **تمزيغ** = Amazighization: إضفاء طابع أمازيغي.

- **بربرة** = Berberization : إضفاء طابع بربري.

- **تحيين** = Chronologizing : تحديد الترتيب في التسلسل الزمني.

- **رومنة** = Romanization : إضفاء طابع روماني/ لاتيني.

- ضميمة = Phylum : كيان يضم أكثر من عائلة Family لغوية.

- **سَمْيَمَة** = Sematization : ضفاء طابع ساميّ، تحوّل إلى الساميّة.

- **لتنَنَة** = Latinisation : إضفاء طابع لاتيني، تحوّل إلى اللاتينية.

- **نقحرة** = Translitration : نقل حرفي.

Short bibliography on Omani Rock Art

Anati E. 1968, Rock art in Central Arabia, Institute Orientaliste, Biblioteque de l'Université, Louvain, Belgium.

Ash Shahri A. 1994, Dhofar. Ancient inscriptions and rock art. Self published, Salalah, Oman.

Clarke C. 1975, The Rock art of Oman 1975, The Journal of Oman Studies 1:113-122.

Cleuziou S., Tosi M. 2007, In the Shadow of the Ancestors. The Prehistoric Foundations of the Early Arabian Civilizations in Oman. Ministry of Heritage and Culture, Muscat, Oman.

ElMahi A.T. 2001, The ostrich in the rock art of Oman. Adumatu 3:15-26

Fossati A.E. 2009, Oman Rock Art. Mission Report. Manuscript on file with Ministry of Heritage and Culture. Muscat, Oman.

Fossati A.E. 2013, Rock Art Mission Report. Wadi Sahtan, Wadi Bani Kharous, Wadi Bani Auf, Wadi Bani Henei, Wadi Al Ayn. Manuscript on file with Ministry of Heritage and Culture. Muscat, Oman.

Insall D. 1999, The Petroglyphs of Shenah. Arabian Archaeology and Epigraphy 10: 225-245.

Jäckli R. 1980, Rock art in Oman. An introductory Presentation. Manuscript on file with Ministry of Heritage and Culture. Muscat, Oman.

Khan M. 2003, Rock art of Saudi Arabia: Yesterday and Today. In Rock Art Studies. News of the World 2, (P. Bahn, A. Fossati, editors), pp. 82-87. Oxbow Books, Oxford, England.

Preston K. 1976, An introduction to the Anthropomorphic Content of the Rock Art of Jebel Akdhar. The Journal of Oman Studies 2:17-38.

Thomas Sidney B. 1932, Arabia Felix. Across the Empty Quarter of Arabia, J. Cape, London.

Yule P. 2001, The Hasat Bani Salt in the al-Zahirah Province of the Sultanate of Oman. In Lux Orientis Archäologie zwischen Asien und Europa, Festschrift für Harald Hauptmann zum 65 Geburtstag, R.M. Boehmer/J. Maran (editors), pp. 443-450. Rahden, Germany.

Aknowledgments

I express my deep gratitude to the Undersecretary of Heritage H.E. Salim Mohammed Al-Mahrooqi, to the General Director of Archaeology & Museums Hassan Mohammed Ali Al-Lawati. Sultan Al-Bakri, Director of Excavations & Archaeological Studies for the Ministry of Heritage and Culture in Oman, encouraged this study and gave the permission of publishing. Biubwa Al-Sabri supported my research giving a lot of important suggestions. I would like to thank Prof. Maurizio Tosi, permanent consultant for the Ministry of Heritage and Culture in Oman for giving me the opportunity of studying the rock art of this beautiful country and sharing with me his valuable knowledge on Omani archaeology. My deep gratitude to Dr. James D. Keyser and Mike Taylor for inviting me to present the Omani rock art to the US academic public and for the help in editing this first report.

□□

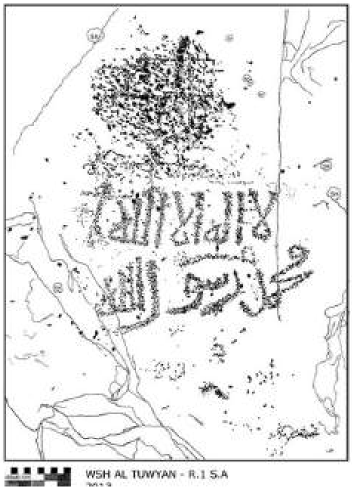


Fig. 24 – The Shahada is an Islamic creed that declares the oneness of God and the acceptance of Muhammad as God's prophet. An horseman figure has been over pecked with the probable intention of cancelling the figure – Al Tuwyan, Wadi Sahtan – (drawing by Francesca Roncoroni)

The interpretation of Omani rock art is in its infancy. Further work will undoubtedly change these preliminary observations as additional rock art research is integrated with ongoing archaeological research on the different cultures that have inhabited Oman through the centuries. As the road building and railroad construction continue as part of Oman's economic development, construction activities continue to threaten many sites, but the Ministry of Heritage and Culture of the Sultanate of Oman is committed to document endangered sites as part of the salvage effort to preserve the rock art of this area. Hopefully, the result will be additional information that will enable the development of a more secure chronology and a more detailed interpretation of this rich body of ancient rock art.



Fig. 25 – The author tracing a rock in Shenah using permanent pencils on crystal plastic field sheet (photo by Angelo Fossati)

The beautiful leopards (or lions) engraved in Wadi Sahtan (fig. 22) were created—maybe with totemic value—during the last millennium BC; when, for the first time, the Arab people used a writing system. A few inscriptions in the ancient South Arabic alphabet (which is different from today's standard Arabic writing) accompany some of these figures of warriors and animals (fig. 23). These inscriptions are names of people—possible travelers, traders, or inhabitants of the wadi villages—the same "artists" that produced the older rock art. Later inscriptions, in standard Arabic script, witness the importance of the wadis as road systems that connected the south and interior of the country with the coastal area during historical times (fig. 24).



Fig. 22 – A mythical animal resembling a leopard or a wolf – Gore Anaqsah, Wadi Sahtan – (drawing by Angelo Fossati)



Fig. 23 – Inscription in South Arabic alphabet from Gore Anaqsah in Wadi Sahtan (drawing by Angelo Fossati)

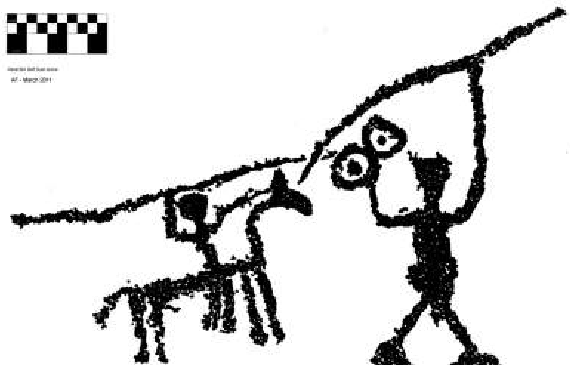


Fig. 19 – A duel between an horseman and a warrior. These engravings are etched around the big boulder where there are the famous composition of figures in bas relief – Hasat Bin Salt (Coleman's Rock) – (drawing by Angelo Fossati)

I have met the artist who carved a beautiful representation of an oud (an Arabian lute) as a tribute to a famous Yemeni singer (fig. 20), and we have also recorded a petroglyph of three automobiles (fig. 21).

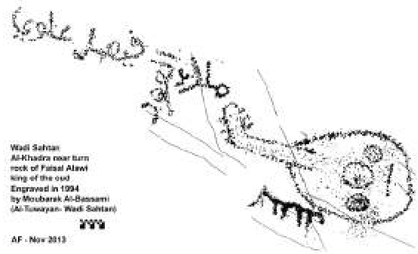


Fig. 20 – Representation of a oud (an Arabian lute) with an inscription that praises Faisal Alawi, a famous singer from the nearby country, Yemen, calling him "the king of the oud" – Al Khadra, Wadi Sahtan – (drawing by Angelo Fossati)



Fig. 21 – Three cars engraved on a rock at Al Khadra. They represent the first motor vehicles entering in the wadi in the last century, probably already during the thirties – Wadi Sahtan (photo by Francesca Roncoroni)

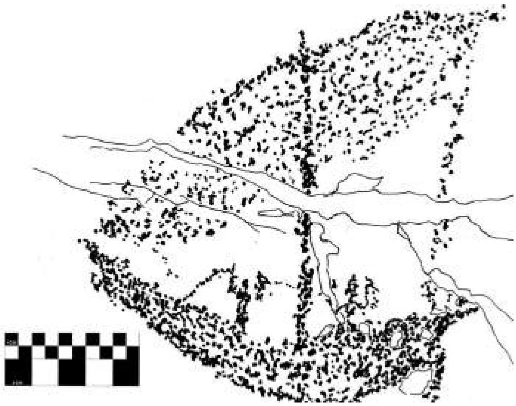


Fig. 16 – A typical Omani boat engraved on a rock at Wadi Al Hareem. These boats were used to trade goods, like frankincense, from the internal part of the Arabian peninsula to the other countries of the gulf (drawing by Angelo Fossati)



Fig. 17 – Traditional daggers (khanjars) engraved on a rocky wall in Wadi Bani Kharous – (photo by Angelo Fossati)



Fig. 18 – Warriors and horsemen with weapons – Wadi Al Hareem – (photo by Angelo Fossati)

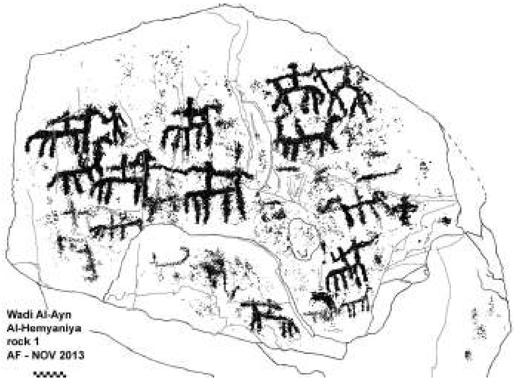


Fig. 13 – Tracing of the previous scene – Al-Hemyaniya village – Wadi Al Ayn – (drawing by Angelo Fossati)



Fig. 14 – Riders on horse and on camel. The camel in Oman is typically ridden sitting behind the hump of the animal (photo by Angelo Fossati)



Fig. 15 – Ostriches and bull. It is believed that the ostriches are mating. The bull has a big hump and can be identify as a type very near to the animal called "Indian Bull" – Wadi Sahtan – (drawing by Angelo Fossati)

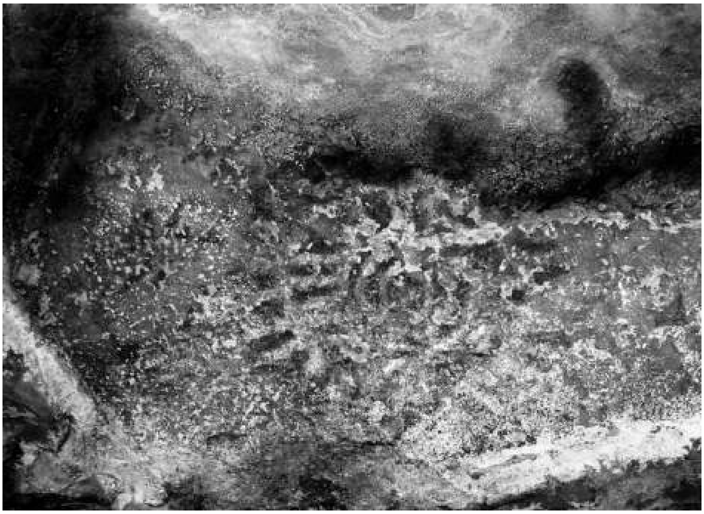


Fig. 11 – Solar figure painted in red and white on a roof of a shelter in Wadi Tanuf (photo by Angelo Fossati)

The most recent art (Phase 4) is warrior art. These images show horsemen (fig. 12, 13), camels and camel riders (fig. 14), ostriches (ElMahi 2001) (fig. 15), boats (fig. 16), weapons and other items of material culture (fig. 17), and fighting warriors that were carved from the last millennium BC (about 1,000 BC) until modern times—with the latest carvings made within the last few decades (fig. 18, 19).

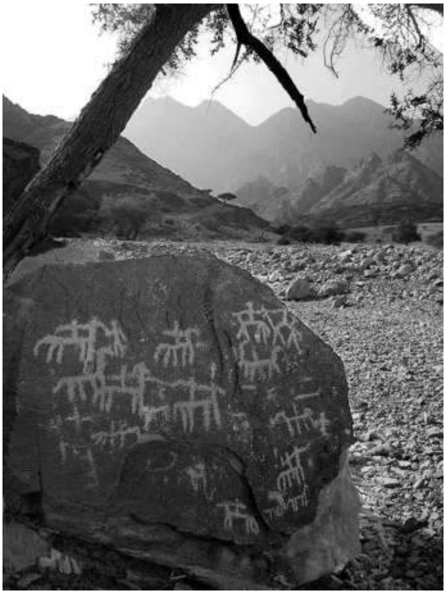


Fig. 12 – A group of riders on horses and camels engraved on a boulder near Al-Hemyaniya village – Wadi Al Ayn – (photo by Angelo Fossati)

Often the Phase 3 petroglyphs are found superimposed on Phase 1 animal representations (fig. 9).

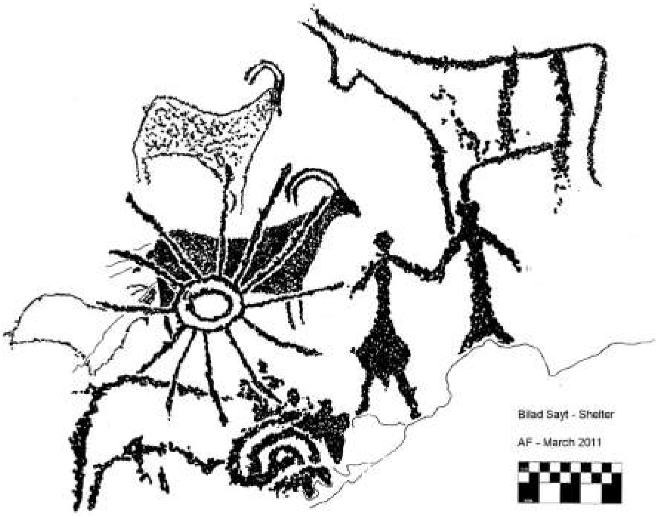


Fig. 9 – Solar figure associated to two human figures overlapping a series of ibex-like figures – from a cave in Bilad Sayt (drawing by Angelo Fossati)

Phase 3 also includes painted figures in white and red but I have yet to find these pictographs in superimposition sequences with petroglyphs so they are classified into this phase based on thematic and stylistic criteria (fig. 10-11).



Fig. 10 – Anthropomorphs and tree-like figures painted in white on a roof of a shelter in Wadi Tanuf (photo by Angelo Fossati)

Phase 3 figures include both petroglyphs and pictographs whose primary motifs are geometric/symbolic patterns (solar symbols, sub-rectangular [recti-linear] forms, and others) sometimes accompanied by human figures in a few related schematic styles (fig. 7-8).

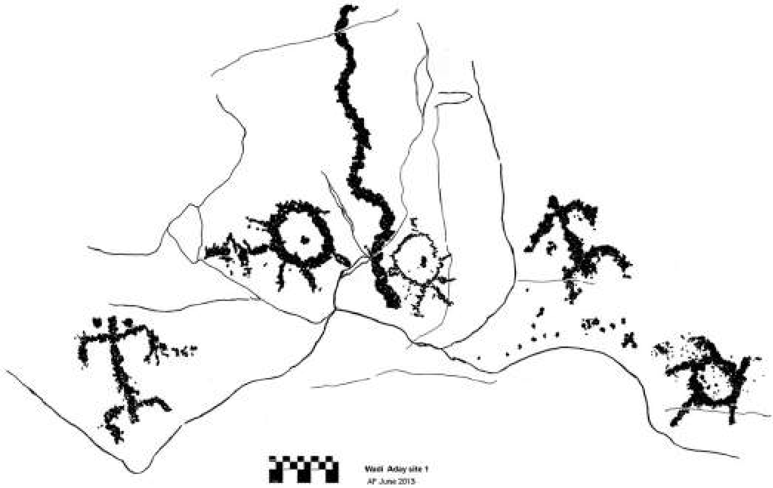


Fig. 7 – Solar symbols associated to a snake and schematic human figures – Wady Aday 9 – (drawing by Angelo Fossati)

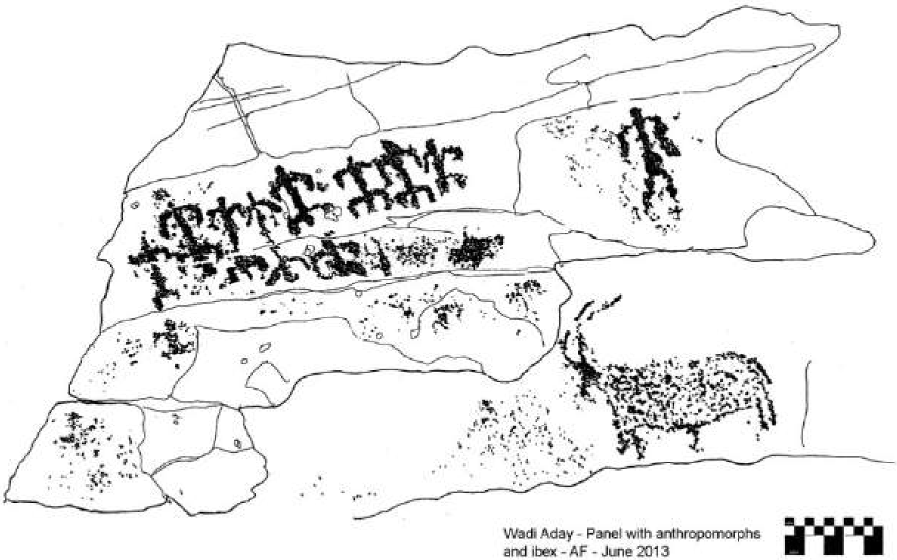


Fig. 8 – A group of human figures in a schematic praying position and an ibex – Wady Aday, a site near Muscat the capital of Oman 8 – (drawing by Angelo Fossati)



Fig. 5 – Group of goat like figures engraved in an outcrop at Shenah – (photo by Angelo Fossati)

These earliest (Phase 1) engravings were probably made in the fourth millennium BC (5,000-6,000 years ago) by hunters that frequented the Jebel Akhdar Mountains in search of prey. A second phase consists of angular, stylized human figures, including a group of women, each seated on a throne and accompanied by an attendant (fig. 6). Stylistically related to the anthropomorphic bas-relief sculptures on the Hasat Bin Salt Monument (Coleman's Rock), these images probably date to the third and second millennia BC (3,000 to 4,500 years ago) based on cross-dating with carved tombs found elsewhere in Oman and Abu Dhabi (Cleuziou, Tosi 2007). These women shown seated on thrones probably represent royalty (queens or princesses) based on this sort of thematic portrayal as found throughout Near Eastern Officialdom from Egypt to Mesopotamia during this period.



Fig. 6 – Ladies sitting on a chair. They probably are princesses seated on a throne and they have a servant helping them – Gore Anaqsah, Wadi Sahtan – (drawing by Angelo Fossati)



Fig. 3 – Animals (arabian gazelles and wild asses) engraved on a big boulder in Shenah – (photo by Angelo Fossati)



Fig. 4 – An heavily eroded rock engraved with animal motives near the village of Shenah – (photo by Angelo Fossati)

Of significant interest is the presence of ibex-like figures that have been engraved on the rocky walls of many wadis in Oman and that have connection with similar figures present elsewhere in the Arabian Peninsula (Anati 1968; Insall 1999; Khan 2003) (fig. 5).

and pictographs has never been created. In the last five years I have carried out a series of surveys in the Jebel Akhdar mountain range for the Omani Ministry of Heritage and Culture with the aim of starting and organizing such a catalogue (Fossati 2009, 2013). Rock art is also known in the south of the Sultanate in the Dhofar region, where it also occurs as both paintings and engravings (Ash Shahri 1994).

Omani rock art—made as petroglyphs using several techniques including percussion, incision, and bas-relief carvings and as paintings—presents numerous themes including humans, animals, artifacts, geometric/symbolic figures, and inscriptions (Jäckli 1980). These various sorts of carvings and paintings were made over a long time period. However, the establishment of a chronology for this art depends on the study of styles, distinguishing different types of weapons, and demonstrating the presence of certain animals in various scenes. Currently I am only at the start of my analysis of the data I have recorded, but I offer here a few preliminary observations. As is often the case in rock art research, the analysis of superimpositions between figures and the comparison of different levels of revarnishing (on the same surface) has helped with the organization of phases into general time periods.

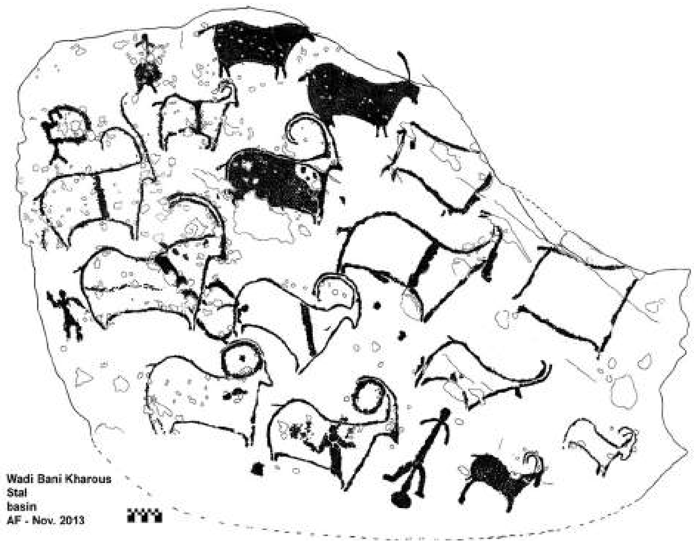


Fig. 2 – A group of goat-like animals and human figures engraved in a rocky basin. The goat-like figures overlap a figure of green turtle, an animal that had a great symbolic value six thousand years ago – Stal, Wadi Bani Kharous – (drawing by Angelo Fossati)

The most ancient rock art in the region illustrates wild animals such as green turtles, wild ibex, gazelles, asses, aurochs, and other animals (fig. 2, fig. 3). Sometimes these images are heavily revarnished and weathered (fig. 4).

Rock Art in Jebel Akhdar, Sultanate of Oman

Angelo Eugenio Fossati*

Rock Art in Oman was first reported in the thirties (Thomas Sidney 1932), when the British explorer Bertram Sidney Thomas on his camel journeys in the Sultanate, noted its presence on rocks in the wadis (deep arroyos) that characterize the country's desert topography. The first scientific interest in this subject arose only in the 1970s with brief studies (Clarke 1975, Preston 1976), especially focusing on Hasat Bin Salt (also called Coleman's Rock), a unique and interesting natural feature that has many petroglyphs but is better known for a bas-relief carving that creates a monumental sculpture on three side of the large rock (Yule 2001) (fig. 1).



Fig. 1 – Figures realized in bas relief. These figures are on the most known piece of rock art in Oman, a boulder naturally shaped as a gigantic standing stone – Hasat Bin Salt (Coleman's Rock) – (photo by Angelo Fossati)

In spite of the evident historical, archaeological, and anthropological importance of this rock art corpus, a complete catalogue of the country's petroglyphs

* Università Cattolica del S. Cuore, Dipartimento di Storia, Archeologia e Storia dell'Arte Largo Gemelli, 1 – 20123 MILANO (Italy) angelo.fossati at unicatt.it – ae.fossati at libero.it

65. T. Melton *et al*. *Am. J. Hum. Genet*. 63, 1807 (1998).
66. E. Hagelberg, in *The Archaeology of Lapita Dispersal in Oceania*, G.R.Clark *et al*., Eds. (Pandanus, Canberra, Australia, 2001), pp.167.
67. M. Hurles *et al*., *Genetics* 160, 289 (2002).
68. D. Fuller, in (*11*), chap.16.
69. V. Blazek, in *Archaeology and Language IV*, R. Blench, M. Spriggs, Eds. (Routledge, London, 1998), pp.48–78.
70. I. Diakonoff, *J. Semitic Studies* 43, 219–217, (1998).
71. A. Militarev, in (*11*), chap.12.
72. C. Ehret, *J. African Hist*. 20, 161 (1979).
73. C. Ehret, *Reconstructing Proto-Afro-Asiatic* (Univ.of California Press, Berkeley, CA, 1995).
74. M. Gimbutas, *J. Indo-European Studies* 13, 185 (1985).
75. J. Mallory, *In Search of the Indo-Europeans* (Thames and Hudson, London, 1989).
76. D. Anthony, *Antiquity* 69, 554 (1995).
77. M. Levine, in *Late Prehistoric Exploitation of the Eurasian Steppe* (McDonald Institute for Archaeological Research, Cambridge, 1999), pp. 5–58.
78. C. Renfrew, *Archaeology and Language* (Jonathan Cape, London, 1987).
79. G. Krantz, *Geographical Development of European Languages* (Lang, New York, 1988).
80. C. Renfrew *J. Indo-European Studies* 27, 257 (1999).
81. C. Watkins, *The American Heritage Dictionary of Indo-European Roots* (Houghton Mifflin, Boston, 1985).
82. J. Mallory, in *Archaeology and Language I*, R. Blench, M. Spriggs, Eds. (Routledge, London, 1997), pp. 93–121.
83. J. Diamond, *Nature* 418, 34 (2002).
84. M. Richards *et al*., *Am J. Hum. Genet*. 67, 1251 (2000).
85. L. Simoni *et al*., *Am. J. Hum. Genet.* 66, 262 (2000).
86. J. Greenberg, *Language in the Americas* (Stanford Univ. Press, Stanford, CA, 1987).
87. M .Ruhlen, *A Guide to the World's Languages* (Stanford Univ. Press, Stanford, CA, 1987), vol.1.
88. D. Nettle, *Linguistic Diversity* (Oxford Univ.Press, Oxford, 1999).
89. *Encyclopaedia Britannica* (Encyclopedia Britannica, Chicago, IL, ed. 15, 1987), vol.22

90. We thank C. Hilliker for drafting the illustrations.

□□

27. P. Bellwood, *Prehistory of the Indo-Malaysian Archipelago* (Univ. of Hawaii Press, Honolulu, rev. ed., 1997).
28. L. L. Cavalli-Sforza, P. Menozzi, A. Piazza, *The History and Geography of Human Genes,* (Princeton Univ.Press, Princeton, NJ, 1994).
29. M. Ross, in *Archaeology and Language I*, R.Blench and M. Spriggs, Eds. (Routledge, London, 1997), pp. 209–30. L. Reid, in *Language Contact and Change in the Austronesian World*, T. Dutton, D. Tryon, Eds. (Mouton de Gruyter, Berlin, 1994), pp.443–76.
31. R. Drews, Ed., *J. Indo-European Studies Mono.* 38,"Greater Anatolia and the Indo-Hittite Language Family" (Institute for the Study of Man, Washington, DC, 2001).
32. A. Dolgopolsky, *Mediterranean Lang. Rev.* 6, 230 (1993).
33. D. Dumond, *The Eskimos and Aleuts* (Thames and Hudson, London, 1987).
34. M. Fortescue, *Language Relations across Bering Strait* (Cassell, London, 1998).
35. R. G. Matson, in (*11*), chap.27.
36. A. Sherratt, S.Sherratt, *Antiquity* 62, 584 (1988).
37. C. Renfrew, *Cambridge Archaeol. J.* 10, 7 (2000).
38. P. Bellwood, in *Archaeology in Southeast Asia*, Y. Chun-tong, L. Wai-ling, Eds. (University Museum and Art Gallery, Hong Kong, 1995), pp.11–22.
39. C. Ehret, M. Posnansky, Eds. *The Archaeological and Linguistic Reconstruction of African History* (Univ.of California Press, Berkeley, CA, 1982).
40. D. Phillipson, in (*11*), chap.15.
41. K. Williamson, R.Blench in *African Languages*, B. Heine, D.Nurse, Eds.(Cambridge Univ.Press, Cambridge, 2000), pp.11–42.
42. P. Underhill, *Ann. Hum. Genet.* 65, 43 (2001).
43. L. Campbell, *American Indian Languages* (Oxford Univ.Press, New York, 1997).
44. I. Rouse, *The Tainos* (Yale Univ. Press, New Haven, CT, 1992).
45. A. Aikhenvald, in *The Amazonian Languages*, R. Dixon, A. Aikhenvald, Eds. (Cambridge Univ. Press, Cambridge, 1999), p.75.
46. C. Higham, *The Bronze Age of Southeast Asia* (Cambridge Univ.Press, Cambridge, 1996). 47.G.van Driem, *Bull. Indo-Pacific Prehistory Assn*. 18, 43 (1999).
48. J. Janhunen, *Manchuria: An Ethnic History* (SuomalaisUgrilainen Seura, Helsinki, Finland, 1996). 49.J.Hill, in (*11*), chap.26.
50. P. Bellwood, in *Areal Diffusion and Genetic Inheritance: Problems in Comparative Linguistics*, A. Aikhenvald, R. Dixon, Eds. (Oxford Univ. Press, Oxford, 2001), pp.27–43.
51. J. Hill, *Am. Anthropol*. 103, 913 (2001).
52. P. Bellwood, in *Time Depth in Historical Linguistics*, C.Renfrew, A.McMahon, L.Trask, Eds.(McDonald Institute for Archaeological Research, Cambridge, 2000), vol.1, pp.109–40.
53. T. Kaufman, in *Amazonian Linguistics*, D.L.Payne, Ed.(Univ.of Texas Press, Austin, TX, 1990), pp.13–73.
54. R.Adams, M.J.MacLeod, Eds, *The Cambridge History of the Native Peoples of the Americas* (Cambridge Univ. Press, Cambridge, 2000), vol.II, part I.
55. A. K.Pawley, in *Perspectives on the Bird's Head of Irian Jaya, Indonesia*, J. Miedema, C.Ode, R.Dam, Eds. (Rodopi, Amsterdam, 1998), p.684.
56. J. Golson, in *Sunda and Sahul*, J. Allen, J. Golson, R. Jones, Eds.(Academic Press, London, 1977), pp.601–638.
57. M. Spriggs, in (*2*), pp.524–537.
58. S. G. Haberle, A.Chepstow-Lusty, *Environ. Hist.* 6, 349 (2000). 59.S.Horai *et al*., *Am. J. Hum. Genet.* 59, 579 (1996).
60. K. Omoto, N.Saito, *Am. J. Phys. Anthropol.* 102, 437 (1997).
61. M. Hudson, *Ruins of Identity* (Univ.of Hawaii Press, Honolulu, 1999).
62. R. Blust, *J. World Prehistory* 9, 453 (1995).
63. A. K. Pawley, in (11), chap.20.
64. S. Oppenheimer, M.Richards, *Nature* 410, 166 (2001).

movements into Southeast Asia. Evidently, the early spreads of farmers and their languages depended on being in the right place at the right time. Relevant factors would have included availability of new lands nearby into which to spread (pull factors) and perhaps resource shortfalls at home due to climate changes or prior resource mismanagement (push factors). To extract reliable conclusions from all this evidence will require comparative research on a worldwide scale within multiple disciplines. It is quite a challenge, but a uniquely fascinating one.

**

References and Notes

1. B. Smith, *The Emergence of Agriculture* (Scientific American, Washington D.C., 1995).
2. D. Harris, Ed., *The Origins and Spread of Agriculture and Pastoralism in Eurasia* (Univ.College of London Press, London, 1996).
3. A. Damania *et al.,* Eds, *The Origins of Agriculture and Crop Domestication* (International Center for Agricultural Research in the Dry Areas, Aleppo, Syria, 1998).
4. J. Diamond, *Guns, Germs and Steel* (Norton, New York, 1997).
5. *The Transition to Agriculture in the Old World*, O. Bar-Yosef, Ed., special issue of *Rev. Archaeol.*, 19 (no. 2), 1998).
6. D. Piperno, D.Pearsall, *The Origins of Agriculture in the Lowland Neotropics* (Academic Press, San Diego, CA, 1998).
7. B. Smith, *Proc. Natl. Acad. Sci. U.S.A.* 98, 1324 (1998).
8. M. van der Veen, Ed., *The Exploitation of Plant Resources in Ancient Africa* (Kluwer Academic, New York, 1999).
9. D.Zohary, M.Hopf, *Domestication of Plants in the Old World* (Clarendon, Oxford, ed.3, 2000).
10. P. Bellwood, *Ann. Rev. Anthropol.* 30, 181 (2001).
11. P. Bellwood, C.Renfrew, Eds., *Examining the Language/Farming Dispersal Hypothesis* (McDonald Institute for Archaeological Research, Cambridge, 2003).
12. P. Bellwood, in (*2*), pp.465–498.
13. C. Renfrew, in (*2*), pp.70–92.Renfrew has been one of the most active researchers in favor of strong linkages between the spreading of early farmers and language families, as discussed here, especially for Indo-European and other western Eurasian langage families.See (*11*, *36*, *78*, *80*) and further references to Renfrew's work therein.
14. L. L.Cavalli-Sforza, F. Cavalli-Sforza, *The Great Human Diasporas* (Addison-Wesley, Reading, PA, 1995).
15. A. Whittle, *Europe in the Neolithic* (Cambridge Univ. Press, Cambridge, 1996).
16. A. J. Ammerman, L. L. Cavalli-Sforza, *The Neolithic Transition and the Genetics of Populations in Europe* (Princeton Univ.Press, Princeton, NJ, 1984).
17. L. Chikhi *et al.*, *Proc. Natl. Acad. Sci. U.S.A.* 99, 11008 (2002).
18. E. W. Hill, M. A. Jobling, D. G. Bradley, *Nature* 404, 351 (2000).
19. C. B. Bousman, *African Archaeol. Rev.* 15, 133 (1998).
20. C. Ehret, *An African Classical Age* (Univ.Press of Virginia, Charlottesville, VA, 1998).
21. J. F. Downs, *Animal Husbandry in Navajo Society and Culture* (Univ.of California Press, Berkeley, CA, 1964).
22. D. H. Snow in *Farmers, Hunters and Colonists*, K. A. Spielmann Ed.(Univ.of Arizona Press, Tucson, AZ, 1991), pp.71–88.
23. P. V. Kirch, *On the Road of the Winds* (Univ.of California Press, Berkeley, CA, 2000).
24. P. Bellwood *The Polynesians* (Thames and Hudson, London, 1987).
25. A. Anderson, *Prodigious Birds* (Cambridge Univ.Press, Cambridge, 1989).
26. V. T. King, *The Peoples of Borneo* (Blackwell, Oxford, 1993).

Indo-European origins around the time of the invention of the wheel (4000 B.C.) (*76*). Even we two authors of this paper have differing views on this issue.

Future Directions

We mentioned at the outset that study of the first agricultural expansions requires interdisciplinary research synthesizing five types of evidence. To resolve the many controversies concerning agricultural expansions, we need new evidence of all five types. Archaeological evidence of the first farmers is basic to many questions, such as the distinction between primary and secondary homelands of agriculture (*83*): Did agriculture really arise independently in Ethiopia, the Sahel, tropical West Africa, South India, and Amazonia? We need a more balanced record of the earliest crops and livestock, their wild relatives, and their dates and places of domestication, so that regions poorly known in this respect can take their place alongside the better understood Fertile Crescent (*9*).

Detailed studies of gene gradients similar to those available for Europe and the Pacific are needed for other parts of the world; that information will be especially difficult to obtain in the New World, because so many Native American populations have disappeared or shifted in the last 500 years. Studies of ancient skeletons and of ancient DNA may give us snapshots of human distributions at known times in the past. Most importantly, given that genetic data can, in theory, provide an ultimate test of whether farming systems and languages spread with or without people, it is essential to understand more about how genetic data should be interpreted in terms of human history. Problems with natural selection, differing rates of mutation, the effects of population bottlenecks on stochastic loss of lineages, and the modeling of clinal variation across geographical space are behind many of the current debates between geneticists, particularly in Europe (*17*, *84*, *85*) and Austronesia (*64*–*67*). Conflict in these fields is the main reason why this review is focused on languages and archaeology, rather than genetics.

Early farming systems and languages have clearly spread, probably on many occasions in historical association, and we believe that human populations have spread too, but detailed documentation of this inference still lies in the future. We also need more studies of languages themselves. Hundreds of historically important languages remain poorly described, efforts to trace so-called deep language relationships (i.e., relations between languages that diverged long ago) remain highly controversial, and relationships of New World languages are especially controversial (*43*, *86*, *87*), due in part to the scale of loss and replacement since 1500. Fortunately, linguists are today concerned with modeling the formation of linguistic diversity in time and through space (*88*), and this is a development to be applauded.

Environmental issues also arise, for not all early farmers underwent territorial expansion. The Mixe-Zoqueans essentially stayed at home, as did speakers of languages of the Caucasus and also the Hmong-Mien, before their recent

farming across the Nile into Egypt and North Africa, giving rise to the Egyptian and Berber branches of Afro-Asiatic languages, and sheep- and goat-based pastoralism from western Arabia across the Red Sea into Ethiopia and Sudan, giving rise to the Cushitic, Omotic, and Chadic branches (Semitic spread into Ethiopia much later). That Southwest Asian origin would now be masked by language replacement in the homeland, including the spread of the Semitic branch of AfroAsiatic languages (including Akkadian or Babylonian, Aramaic, and Arabic) in historic times. The other hypothesis, reflecting AfroAsiatic language subgrouping but with no clear archaeological support, favors a homeland in northeastern Africa (*72*, *73*). That African origin would imply a preagricultural spread for Afro-Asiatic, perhaps with population movement into a wetter early Holocene Sahara.

11. Indo-European. We have saved for last the most intensively studied, yet still the most recalcitrant, problem of historical linguistics: the origin of the Indo-European language family, distributed before 1492 A.D. from Ireland east to the Indian subcontinent and (as represented by the extinct Tocharian languages) western China. Unlike the NigerCongo and Austronesian language families, each consisting of about a thousand languages that sometimes intergrade geographically, the Indo-European language family containsonly 144 languages divided among 11 markedly distinct branches. These and other facts suggest that the task of reconstructing IndoEuropean origins is complicated by massive extinctions of Indo-European languages in the past, resulting from the expansions of a few highly successful subgroups (Germanic, Romance, Slavic, and Indo-Iranian). The two main competing hypotheses of Indo-European origins both face severe difficulties. One hypothesis views Proto-Indo-European as having been spoken in the steppes north of the Black Sea by horse-riding nomadic pastoralists, whose supposed domestication of the horse and invention of the wheel around 4000 B.C. enabled them to expand militarily (*74*–*76*). But objections include that horse domestication and riding may not have begun until thousands of years later (*77*); that it is hard to understand (perhaps even inconceivable) how steppe pastoralists could have imposed their language on so much of Europe west of the steppes (*78*); and that even linguists who reject glottochronology agree that Indo-European languages (including Anatolian) are so different from one another that their divergence probably began before 4000 B.C. (*31*).

The other hypothesis, based on the recognition that the extinct Anatolian languages (including Hittite and Luvian, the probable language of Troy) represent the most distinctive branch and hence the earliest documented branching in the family tree, views ProtoIndo-European (or, more strictly speaking, Proto-Indo-Hittite) as a language of Neolithic Anatolian farmers who carried Fertile Crescent domesticates west into Europe, east to the Indus Valley, and north and then east across the Central Asian steppes beginning around 7000 to 6000 B.C. (*32*, *78*–*80*). But objections include that the reconstructed Proto-Indo-European lexicon has a strong bias toward domesticated animals rather than crops (*81*, *82*) and that reconstructed ProtoIndo-European words relating to wheels and wheeled vehicles suggest (some would say "prove") late

respect to Southeast Asia (the progression of human settlement into Remote Oceania—Polynesia, Micronesia and easternMelanesia—is easiest to interpret because Austronesians were the first human population there). The most obvious objection is the absence of languages related to Austronesian in coastal South China today; an equally obvious explanation may be replacement there by expanding Sino-Tibetan speakers. A second issue is that rice of subtropical South Chinese origin was abandoned and tropical crops were domesticated or adopted when the expansion entered the equatorial tropics; this shift strikes us as an entirely expected development. Not a problem. A third issue is genetic studies interpreted to suggest genetic divergence between populations in what are now southern China and Island Austronesia long before 4000 B.C. (*64*), but the molecular clock calculations underlying that interpretation are controversial, and a Taiwan homeland for Austronesians is not ruled out by other genetic analyses (*65*–*67*).

9. Dravidian. Food production reached South India at about 3000 BC, partly through the spread of Fertile Crescent and Sahel domesticates via the Indus Valley and the northwestern Deccan, and partly through a simultaneous spread of rice cultivation from Southeast Asia with speakers of Austro-Asiatic (Mundaic) languages. In addition to these undoubted spreads of crops into India from elsewhere, Fuller (*68*) has recently argued for primary (independent) origins of rice, millet, and gram domestication in the Ganges Valley and South India. The Dravidian language family is concentrated in South India, with one distinctive outlier (Brahui) far to the northwest in Pakistan, and perhaps an even more distinctive extinct outlier (Elamite) much further to the northwest in southwest Iran (Elamite's relation to Dravidian languages is debated) (*69*). Either Dravidian languages are the original languages of much of the Indian subcontinent or they arose to the west and spread at about 3000 B.C. with Fertile Crescent domesticates into the Indian subcontinent, subsequently becoming extinct in their homeland. If the latter interpretation were correct, then one would have to assume either clinal gene dilution or else language shift to explain why South Indians today are phenotypically and genetically so unlike peoples of the Fertile Crescent. Thus, for South Asian early agriculture, both the archaeological and the linguistic records remain equivocal.

10. Afro-Asiatic. This language family consists of six branches, five (including Ancient Egyptian) confined to North Africa, one (Semitic) also extending in ancient times to Southwest Asia. That distribution suggests an African origin for the family, whose Semitic branch might then have spread into Southwest Asia. But the overwhelming archaeologically attested flow of domesticated crops and animals from Neolithic times onward, into Egypt and through the Arabian Peninsula into Ethiopia, is out of Southwest Asia rather than out of Africa. That would make it surprising for Semitic languages to have spread against that stream. There are two principal competing hypotheses for the origin of Afro-Asiatic. One, based on reconstruction of early vocabulary for cultural and environmental referents, places the homeland in the Levant during the earliest Neolithic (the late Natufian culture, 9500 B.C.) (*32*, *70*, *71*), with a subsequent two-pronged spread by 5000 B.C. that is well documented archaeologically: mixed

uncertainties concern the age of agricultural origins in the Highlands (as early as 7000 B.C. or as late as 4000 B.C., perhaps) (*56–58*), the identity of the first staple crops, and the linguistic limits of the Trans-New-Guinea family.

7. Japanese. Around 400 B.C., intensive rice agriculture, new pottery styles, and new tools, all based on Korean models, appeared on the southwestmost Japanese island of Kyushu near Korea and spread northeast up the Japanese archipelago. Genes and skeletons of the modern Japanese suggest that they arose as a hybrid population between arriving Korean rice farmers and a prior Japanese population similar to the modern Ainu and responsible for Japan's earlier Jomon pottery. Modern southwest-to-northeast gene clines in Japan and DNA extracted from ancient skeletons support this interpretation (*59*, *60*). Japanese origins would thus rival Bantu origins as the most concordant and unequivocal example of an agricultural expansion, were it not for the flagrant discordance of the linguistic evidence. If Korean farmers really did become dominant in Japan as recently as 400 B.C., one might have expected the modern Japanese and Korean languages to be as closely similar as other languages that diverged at such a recent date (e.g., German and Swedish), whereas their relationship is in fact much more distant.The likely explanation is language replacement in the Korean homeland. Early Korea consisted of three kingdoms with distinct languages. The modern Korean language is derived from that of the ancient Korean kingdom of Silla, the kingdom that unified Korea. However, the now-extinct language of one of the two ancient Korean kingdoms that Silla defeated, Koguryo, was much more similar to Old Japanese than is Sillan or modern Korean (*61*). Thus, a Koguryo-like language may have been spoken by the Korean farmers arriving in Japan, may have evolved into modern Japanese, and may have been replaced in Korea itself by Sillan that evolved into modern Korean.

8. Austronesian. Detailed archaeological evidence demonstrates the colonization of Taiwan by Neolithic pottery-making and rice-growing farmers from South China before 3000 B.C., followed by the spread of farming, pottery, and Neolithic tools to the Philippines (2000 to 1500 B.C.), then southwest to the Southeast Asian mainland and to Madagascar, and then east through Indonesia out across the Pacific to the furthest islands of Polynesia, eventually reaching New Zealand by about 1200 A.D. (*23*, *24*, *27*). In terms of distance covered, this was the world's largest pre-historic agricultural expansion, and it rivals the Bantu expansion in the degree of detail of its linguistic reconstruction (*62*, *63*).

Austronesian primary subgroups are concentrated in the Taiwan homeland, just as NigerCongo primary subgroups are concentrated in the West African homeland. These facts suggest that colonists derived ultimately from Austronesian-speaking farmers of coastal South China replaced or hybridized with the original population of the Philippines and Indonesia (related to modern Philippine Negritos, New Guineans, and Aboriginal Australians), and that language shift and hybridization were especially complex when spreading Austronesians encountered established dense populations in the New Guinea area and Northern Melanesia. This interpretation faces three objections, at least with

3. Austro-Asiatic, Tai ("Daic"), and SinoTibetan. Several independent sources of evidence suggest expansions of these three language families from agricultural homelands in China, at different times and over different geographic ranges. Austro-Asiatic spread west and south from southern China into the Indian subcontinent and Malay Peninsula (*46*), Sino-Tibetan spread from the Yellow River or Sichuan into Burma and the Himalayas (*47*, *48*). Much of the southward expansion of the Tai languages, like that of the Hmong-Mien (Miao-Yao) languages, has been within historic times. Austro-Asiatic languages are especially diverse, suggesting that they were the first of these three families to expand. They occur today almost entirely south of the political border of China, raising the possibility that they too originated in southern China, but were then largely replaced there by later expansions of SinoTibetan and Tai.

4. Uto-Aztecan. Maize, beans, and linguistic evidence suggest strongly that agriculture based on Mexican domesticates reached the southwestern United States from northern Mesoamerica with speakers of Uto-Aztecan languages (*49–51*). The principal discordance is that the northernmost groups of Uto-Aztecans (Numic, Tu¨batulabal, and Takic) are desert hunter-gatherers in the Great Basin and southern California, leading to the former assumption that Uto-Aztecan languages originated among northern desert hunter-gatherers who spread south and became farmers. More likely, as Hill has recently argued (*49*), northward-expanding Uto-Aztecan farmersreverted to hunting and gathering when they reached habitats either unsuitable for agriculture or rendered marginal by drought or agricultural over-exploitation, just as Austronesian farmers did in southern New Zealand when they entered a climate zone unsuitable for their main crop, the sweet potato.

*5. Oto-Manguean, Mixe-Zoquean, Mayan.*Oto-Manguean has the widest geographic range of any language family within the Mesoamerican agricultural homeland, spanning a distance of 1300 km from Mesoamerica's northwest boundary to its southeast boundary, although that range is still small by Old World standards. The reconstructed ProtoOto-Manguean language, as well as ProtoMayan and Proto-Mixe-Zoquean, includes terms for the major Mesoamerican crops, especially maize, supporting the hypothesis of an agricultural expansion. So-called glottochronological calculations of language family time depths (*43*, *52*) suggest that all four of these Mesoamerican families—UtoAztecan, Oto-Manguean, Mixe-Zoquean, and Mayan—spread initially between roughly 3000 and 1500 B.C. (*53*), a span that overlaps with the archaeological time span (2500 to 1500 B.C.) for the beginnings of agricultural intensification and sedentary village life in Mesoamerica (*54*).

6. New Guinea Highlands. By far the greatest linguistic diversity in the modern world occurs on the island of New Guinea, with 1000 of the modern world's 6000 languages, and with dozens of language isolates or families that have no demonstrable relationship to each other or to any language outside New Guinea. Recent linguistic stud ies suggest that at least half of those 1000 languages belong to a family (the TransNew-Guinea family) whose spread may have been driven by agricultural origins in the New Guinea Highlands (*55*). The principal

dence with other types of evidence (from genetics, archaeology, and domesticated plants and animals) in this case (*20*, *39–42*).

2. Arawak (Taino). Around 400 BC, farmers from the Orinoco River of South America colonized the West Indies and eventually replaced most of the islands' earlier occupants, spreading up the Lesser Antillean chain to the Greater Antilles and Bahamas. They thereby became ancestral to the modern Taino people speaking Arawakan languages. The evidence from linguistics, pottery, and domesticates is detailed, but genetic evidence is slight because few Tainos survived European conquest. Linguistic relationships suggest that Arawakan languages had previously originated in and spread over much of the upper Amazon (*43–45*).

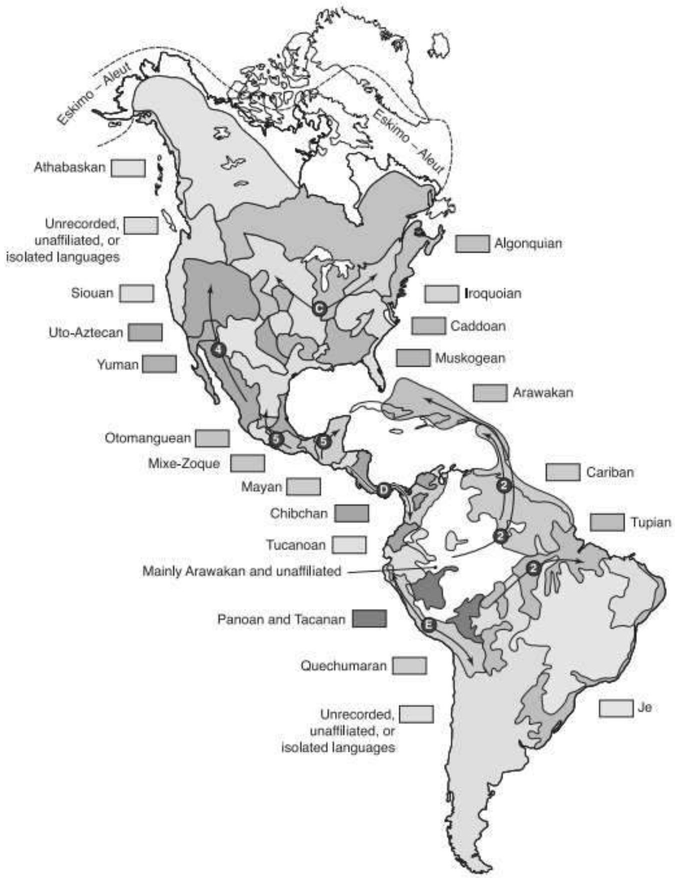


Fig. 3. Language families of the New World and their suggested expansions.Maps based on information in (*89*) and other sources.Numbered examples discussed in text are 2 (Arawakan, Cariban, and Tupian), 4 (Uto-Aztecan), 5 (Oto-Manguean and Mayan).Other possible examples mentioned only briefly: C (Iroquoian and Siouan, with maize after 500 A.D.), D (Chibchan), and E (Quechuan and Aymaran).

southern China and adjacent areas lies the intersection of the Sino-Tibetan, Tai-Kadai, Austro-Asiatic, and Hmong-Mien families, with Austronesian as an offshoot from Taiwan (Fig. 2) (*38*).

Mesoamerica formed the homeland for the Uto-Aztecan, Oto-Manguean, Mayan, Mixe-Zoquean, and several other minor families. Highland New Guinea gave rise to the Trans-New-Guinea family, tropical West Africa to the Bantu subfamily and indeed to the whole Niger-Congo family of which Bantu languages form a subgroup. Linguistic relationships in the eastern United States and in the Andes-Amazon region are too uncertain to test this generalization, in part because of migrations and diseasecaused language extinctions after European colonization. However, agriculture may have played a role in the spread of Iroquoian and Siouan languages in the eastern United States and of the Chibchan, Quechuan, and Aymaran languages in the Andes-Amazon (Fig. 3).

*East-west versus north-south expansions.*All other things being equal, crops and livestock, and people and the technologies and languages associated with them have spread more rapidly along east-west axes than along north-south axes (*4*). The reason is that daylength and seasonality (hence daylight-dependent plant germination schedules) depend only on latitude, so that sites at the same latitude but different longitudes are likely to share, and sites at the same longitude but different latitudes are likely to differ in, their domesticates, habitats, climates, diseases, and agricultural systems. As applied to linguistics, these differing average rates of spread along east-west and north-south axes may provide the underlying reason why there are three well-established language families (Indo-European, Afro-Asiatic, and Austronesian, and possibly a fourth if one includes the more controversial Altaic) with geographic ranges spanning 7000 to 14,000 km along the east-west axis of the Old World, but no language families spanning more than a few thousand kilometers along the north-south axis of the New World. These generalizations do not deny that a few language families spread rapidly north-south over much more modest distances (e.g., Bantu languages in subequatorial Africa, and Uto-Aztecan languages from Mexico into the southwestern United States).

Examples of Specific Language Families

We now examine how the basic hypothesis illuminates the dispersal histories of 15 language families, listed in an approximate sequence from unequivocal to controversial.

1. Bantu (Niger-Congo family). Beginning around 2000 B.C., farmers from the tropical West African agricultural homeland in eastern Nigeria and western Cameroon speaking early Bantu languages expanded east and then south over most of subequatorial Africa, replacing or intermarrying with most of the original inhabitants related to modern Pygmies and Khoisan people. The Bantu subgroup that covers most of this region is just one of the 177 subgroups of the whole NigerCongo language family and comprises about 500 of the family's recorded 1436 languages. Of particular interest, as a model for what could be achieved elsewhere, is the exceptionally detailed integration of linguistic evi-

guages in the western islands of Melanesia and by Agta Negritos in the Philippines (*29*, *30*). However, though such replacements can be attested, under prestate pre-literate conditions they were over only short distances compared with the spreads of many of the major agriculturalist language families over thousands of kilometers.

Replacement of the expanding farmers'language in the original homeland, after the expansion began. If this happened, modern language distributions might conflict with the combined evidence from genes, archaeology, skeletons, and domesticates. The original homeland might now either lack the original farmers' language family altogether, or else might support only one branch of the family compared with many branches in the periphery. Suggested examples of this tend to be controversial because they involve eradication of the original languages that can now, at best, only be reconstructed. Nevertheless, this seems to us the most plausible interpretation in some cases. For instance, one can suggest that languages closely related to Austronesian, Indo-European, and Japanese are no longer spoken in their putative ultimate homelands in South China, Anatolia, and Korea, respectively, because of the historical expansions of the Sinitic languages, Turkish, and Korean. The discovery of written documents attesting to the former existence of Hittite and other now-extinct Indo-European languages in Anatolia as well as the resulting big changes in our understanding of that language family confirm the reality of language loss in the potential homeland for that family (*31*, *32*).

Hunter-gatherer expansions. Not only farmers, but also sometimes hunter-gatherers, can expand at the expense of other hunter-gatherers, producing concordance of genes and languages without crops. Examples include the Inuit expansion eastwards across the Canadian Arctic and the Athabaskan expansion southward into the southwestern United States withinthe last millenium (*33*–*35*).

Language Family Origins and Spreads

Association of language family origins with agricultural homelands. If our basic hypothesis is correct, then a single agricultural homeland might have given rise to more than one language family radiating from it (*36*). This suggests that homelands will be areas where several major language families intersect geographically and where the methods of comparative linguistics suggest that those families originated. In contrast, most regions that lack independent agricultural origins should have a lesser diversity of language families. But these are not intended as universal generalizations, and regions with high numbers of language families need not always be regions of agricultural origin. For example, California in Native American times, certainly not a homeland for agriculture, is nevertheless famously diverse linguistically for other reasons including a long-term existence of partly sedentary hunter-gatherer populations. Each situation of linguistic diversity will need to be examined on its own terms. Thus, the Fertile Crescent, or else nearby areas reached early by Fertile Crescent domesticates, is a zone of intersection for the IndoEuropean, Elamite (with Dravidian?), AfroAsiatic, and Caucasian language families (*13*, *37*). In central and

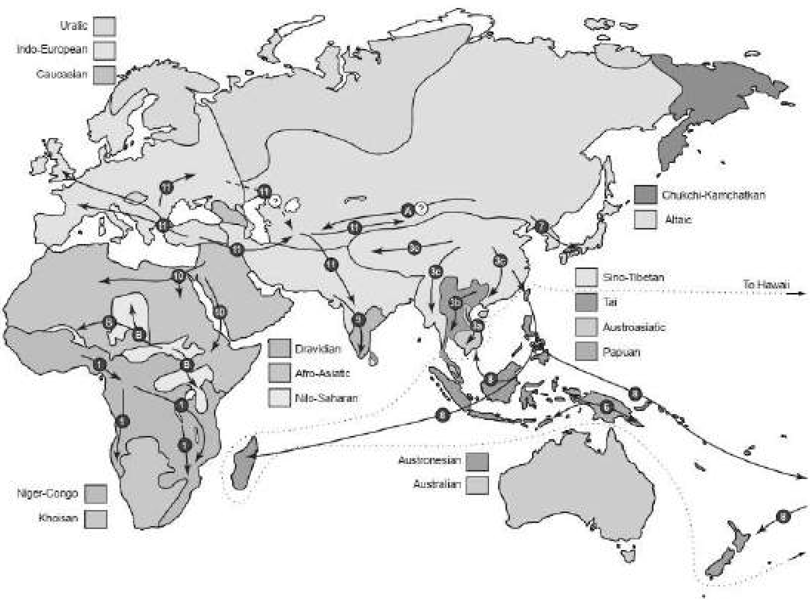


Fig. 2. Language families of the Old World and their suggested expansions. Map based on information in (*87*) and other sources. Numbered examples discussed in text are 1. (Bantu), 3a to 3c (Austro-Asiatic, Tai, and Sino-Tibetan, respectively), 6. (Trans New Guinea), 7. (Japanese), 8 (Austronesian), 9. (Dravidian), 10. (Afro-Asiatic), 11. (Indo-European).Other possible examples mentioned only briefly: A (Turkic), B (Nilo-Saharan).

Reversion of expanding farmers to the hunter-gatherer life-style. When expanding farmers reach areas unsuitable for farming with the domesticates available to them, they may survive by reverting to the hunter-gatherer life-style. Undoubted examples are the derivation of Polynesian hunter-gatherers on the Chatham Islands and New Zealand's South Island from ancestral Polynesian farmers (*23–25*), and of Punan hunter-gatherers in Borneo rainforests from other Austronesian farmers (*26*, *27*).

Language shift by indigenous populations. Discordance between languages and genes may arise when an expanding language is imposed on or adopted by a peripheral population, with only a minor contribution of expanding genes. This situation differs from the situation of clinal gene dilution, in which invaders constitute a majority at every step. A clear modern example is the increasing adoption of English as the language of government in Papua New Guinea, whose inhabitants nevertheless remain indigenous New Guineans with negligible admixture of European genes. Possible historical examples are the imposition of the Magyar and Turkish languages on medieval Hungarians and Anatolians, whose genes today are estimated to be derived only 10 and 30%, respectively, from their conquerors' genes (*28*). Likely prehistoric examples are the adoption of Austronesian languages by some former speakers of Papuan lan-

cided in attesting the replacement of local hunter-gatherers by expanding farmers bearing their own archaeologically visible culture, domesticates, skeletal types, genes, and languages, and if all those indicators were traceable back to the farmers' homeland of origin. Our two clearest examples of such concordance of evidence are the colonizations of previously uninhabited Polynesia and Micronesia by Neolithic populations speaking Austronesian languages (Fig. 2, no. 8), and the expansion of farmers speaking Bantu languages out of their tropical West African agricultural homeland after 1000 B.C. over most summer-rainfall regions of sub-equatorial Africa (Fig. 2, no. 1). But the basic hypothesis is more often controversial, because in most other cases the five types of evidence are less concordant.

Some critics believe that these discordances refute the hypothesis and that farming and language families spread mainly by diffusion amongst existing populations of hunter-gatherers (*15*). We conclude that reality is much richer and more complex than the simple version of the hypothesis, for many obvious reasons. The main classes of discordance are as follows:

Clinal genetic admixture between hunter-gatherers and farmers. Usually, arriving farmers do not exterminate or drive out hunter-gatherers completely. Instead, there is some intermarriage, especially of hunter-gatherer women to farmer men, resulting in dilution of farmer genes with hunter-gatherer genes. If the farmers' expansion consisted of hundreds of successive such steps of intermarriage and gene dilution, the hybrid population at the most remote step would have only low frequencies of the original farmers' genes, even though the hybrid population at each step might have consisted of only 10% local hunter-gatherers at that step and 90% invading hybrid farmers from the previous step. This is the wave-of-advance model by which Ammerman and Cavalli-Sforza [(*16*), see also (*17*)] interpreted southeast-northwest gene gradients across Europe, which they attributed to the northwestward expansion of farmers from Anatolia. As a result, genes of the modern population of western Ireland (the northwest terminus of the advance) are estimated to be derived 99% from Europe's original hunter-gatherers and only 1% from Anatolian farmers, even though Ireland's language, crops, livestock, religion, and writing system as of 1492 A.D. were derived almost entirely from eastern Mediterranean prototypes, with little or no contribution from the culture of Ireland's original Mesolithic hunter-gatherers (*18*).

Adoption of farming by peripheral hunter-gatherers. Some hunter-gatherer populations in the path of farming expansions succeeded in acquiring livestock and/or crops and some material culture (such as pottery) from food producers, while retaining their own languages, genes, and skeletons. The clearest example is the development of herding among some of southern Africa's indigenous Khoisan peoples (so-called Hottentots), who acquired livestock and pottery from food producers expanding southward in Africa about 2000 years ago (*19*, *20*). Other cases involve the Navajo in the southwestern United States adopting sheepherding between 1650 A.D. and 1700, and some Apache populations adopting casual maize farming (*21*, *22*).

such as smallpox and measles— diseases to which the farmers evolved or acquired some resistance, but to which unexposed hunter-gatherers had none. These advantages enabled early farmers to replace languages and societies of hunter-gatherers living in their main paths of expansion.

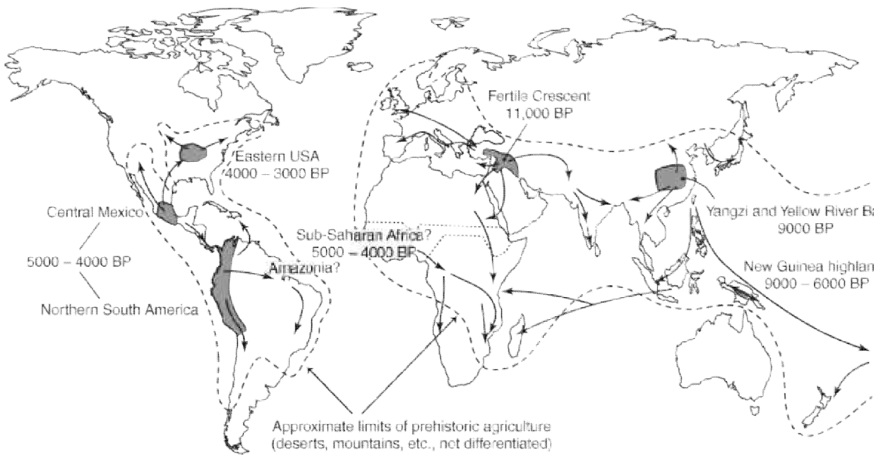


Fig. 1. Archaeological map of agricultural homelands and spreads of Neolithic/Formative cultures, with approximate radiocarbon dates.

Whereas recently expanding Europeans described their conquests in writing, most of the major pre-Columbian expansions of agricultural populations occurred in preliterate times. Hence the evidence for them comes from five other independent sources: archaeology, records of plant and animal domestication, human skeletal remains, modern human genes (and sometimes ancient DNA), and dispersal histories of existing or extinct but attested languages. Thus, study of the agricultural expansions is preeminently interdisciplinary. To synthesize evidence from disparate fields is exciting but also challenging: Few scientists possess technical competence in all of these fields, and the different types of evidence may seem to yield conflicting conclusions. This review begins by introducing the basic hypothesis and by explaining six complications sometimes raised as objections. We then discuss 2 general issues and 11 specific examples involving linked spreads of prehistoric farmers and language families outward from agricultural homelands, proceeding from relatively unequivocal examples to uncertain ones. Finally, we call attention to new types of evidence required to settle the many controversies in this field.

The Basic Hypothesis and Six Complications

The simplest form of the basic hypothesis—that prehistoric agriculture dispersed hand-in-hand with human genes and languages—is that farmers and their culture replace neighboring hunter-gatherers and the latter's culture. This hypothesis would be supported if all five independent types of evidence coin-

Farmers and Their Languages: The First Expansions

Jared Diamond* and Peter Bellwood**

The largest movements and replacements of human populations since the end of the Ice Ages resulted from the geographically uneven rise of food production around the world. The first farming societies thereby gained great advantages over hunter-gatherer societies. But most of those resulting shifts of populations and languages are complex, controversial, or both. We discuss the main complications and specific examples involving 15 language families. Further progress will depend on interdisciplinary research that combines archaeology, crop and livestock studies, physical anthropology, genetics, and linguistics.

Until the end of the Pleistocene, all people on all continents lived as hunter-gatherers. Then, at different subsequent times between about 8500 and 2500 B.C., food production based on domestication of relatively few wild plant and animal species arose independently in at most nine homelands of agriculture and herding, scattered over all inhabited continents except Australia (Fig. 1) (*1–11*). Because food production conferred enormous advantages to farmers compared with hunter-gatherers living outside those homelands, it triggered outward dispersals of farming populations, bearing their languages and lifestyles (*12–14*). Those dispersals constitute collectively the most important process in Holocene human history.

The agricultural expansions ultimately resulted from three advantages that farmers gained over hunter-gatherers. First, because of far higher food yields per area of productive land, food production can support far higher population densities than can the hunter-gatherer lifestyle. Second, whereas most hunter-gatherer societies are mobile, most food-producing societies are sedentary and can thus accumulate stored food surpluses, which were a prerequisite for the development of complex technology, social stratification, centralized states, and professional armies. Third, epidemic infectious diseases of social domestic animals evolved into epidemic infectious diseases of crowded farming populations,

* Department of Geography, University of California, Los Angeles, CA 90095-1524, USA.
** School of Archaeology and Anthropology and Research School of Pacific Studies, Australian National University, Canberra ACT, 0200, Australia. E-mail: jdiamond@geog.ucla.edu (J.D.); peer.bellwood@anu.edu.au (P.B.)

Contents

Correspondence should be directed to the Editorial Department at:
Ajal Journal, Omar al-Mukhtar St., Book Department, Tripoli
email: ajal@markez.info, ajalbarid@gmail.com

□□□

Subscriptions for the Journal and queries concerning distribution should be addressed to
alarabiabooks@gmail.com

□□□

ISSN : 2795-9465 (PRT), 42795-9473 (ONLN)
NSSN: 1318
978-9959-1-2690-0
Libyan Agency for International Standard Serial Number- 2024
9090509 - 9096379 - 9097074

□□□

Printed on: al'Alamia al'Eula for Printing and Advertising
Tripoli - Libya

AJĀL آجال

A Quarterly for Ancient Libyan and Afro-asiatic Cultures

Volume 1, Issue 3- Autumn 2024

Published by al-Arabiya Books & C.C.S

In cooperation with the Afro-asiatic Studies Circle

□□□

□□□

Cover: Rock art and Libyco-Berber writing, Fezzan.

Ajal journal devoted to the study of ancient Libyan and Afro-asiatic cultures, published by al-Arabiya Books and Center for Civilization Studies (CCS) to foster scholarly research into archaeology, history, languages, art, and social contexts of Near East and North Africa.



Mosaic panel from the 1st-2nd century AD in Leptis Magna, on the site of the Villa Dar Buk-Amira, showing a group of fish from the coasts of North Africa.

AJĀL آجال

A Quarterly for Ancient Libyan and Afro-asiatic Cultures
Vol. 1, Issue 3 - Autumn 2024



Al-Arabiya Books
Center for Civilization Studies